obeikandl.com

امـرأة هـزمت الـنـازية

هذه الترجمة الكاملة لكتاب
Countess Karolina Lanckorońska

Michelangelo in Ravenbrück

One Woman's War Against The Nazis

الكونتيسة كارولاينا لانسكرونسكا

امـرأة هزمـت الـنـازية

ترجمة / د. هناء عبد الفتاح
اشراف ترجمة / خالد طوبار
الغـلاف / هنيبال ـ هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من بولندا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع:١٥٩١٧ /٢٠١١
ISBN: **978- 977 -6299 -41 - 4**

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2011

obeikandl.com

الكونتيسة كارولاينا لانسكرونسكا

امـرأة هـزمت الـنـازية

ترجمة / د. هناء عبد الفتاح

وكـالـة سـفـنـكس

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
المكان: مدينة لاواو
الوقت: ٢٢ سبتمبر ١٩٣٩- ٣ مايو ١٩٤٠

في مساء يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٣٩ احتل الجيش الروسي السوفيتي مدينة لاواو.

وفي الصباح خرجت لأشتري بعض المستلزمات. وفي الطريق كانت هناك مجموعات صغيرة من جنود الجيش الأحمر تتجول في الطرقات، والذين أتوا إلى المدينة منذ ساعات قليلة. لم يرفع العمال الكادحون / من يطلق عليهم طبقة البروليتاريا أكفهم ليرحبوا بهم. حتى طبقة البلاشفة لم تبد عليها السعادة أو الفخر كغزاة. كنا ننظر إلى الرجال ذوو الزي الموحد بتعبيرات مرهقة قلقة بعض الشيء لو لم تكن يعتريها الخوف. كانوا متحفظين ولكن مذهولين في الوقت نفسه. لقد انتظروا وقت طويل أمام نوافذ المتجر والتي تعرض فيه بقايا البضائع ولكنهم لم يدخلوا إلا بعد يومين. وبمجرد أن فعلوا ذلك، بدت عليهم الشجاعة الفائقة.

وذات مرة أثناء وجودي اشترى أحد الجنود خشخيشة أطفال وأخذ يلعب بها بجوار أذن زميله وعندما أطلقت صوتا إذ بهما يقفزان في أرجاء المتجر ويطلقان صيحات مرحة. وبعد أن اشتراها، خرجا وهما مبتهجان. استدار المالك مذهولا نحوي بعد لحظة من الصمت وسألني وعلى وجهه علامات الحيرة: "كيف ستسير الأمور يا سيدتي؟ أعني لو أن هؤلاء جنودا!"

obeikandl.com

لقد بدأت المرحلة الأولى من حياتنا الجديدة. كان من الواضح أن البلاشفة سيظلون معنا طيلة فصل الشتاء. وما كان علينا إلا أن ننتظر حلول فصل الربيع البعيد. فلدينا الراديو وعندما كنا نستمع إلى الأخبار التي تبث من جميع أنحاء أوروبا، قلنا لأنفسنا مراراً أننا لسنا معزولين عن العالم. نعلم كل ما يحدث. إن أول شيء علمنا به هو أن "وارسو" تحارب وشعرنا بالحسد تجاههم. علمنا بعد ذلك بنفس الوسيلة أن حكومتنا الآن في باريس وأن الله قد فوّض الجنرال "سيكورسكي" لحماية شرف القطبين. ولكن في هذا الوقت، وبمساعدة مكبرات الصوت والتي اتخذت مكانها في زاوية كل شارع رئيسي بعدما استأنفت محطة توليد الكهرباء عملها، سمعنا شيء مختلف تماما وهو أن مدينتنا لاواو هي عاصمة أوكرانيا الغربية والتي أصبحت أخيرا عضوا جديدا في الأسرة العظيمة والسعيدة التي

تكوّن الإتحاد السوفيتي.

ولأول مرة انهال علينا شعار "يا عمال العالم، اتحدوا!" من جميع الجهات. وفي الوقت نفسه بدأ الراديو بث خطبة طويلة عنيفة عن "بولاندا التابعة للنبلاء" و"جيشها السابق". كانت هذه الأخبار موضّحة برسوم كاريكاتيرية على حوائط المنازل. أدت كل هذه المقدمات إلى نتيجة واحدة هامة ألا وهي تحوّل عمال لاواو البولنديين ضد النظام الجديد منذ البداية. وطبقاً لطبيعة المدينة الفطرية، غضب العمال.

وفي غضون ذلك بدأت لجان أوكرانيا المحلية تزداد بسرعة مثل الفطر بين عشية وضحاها.فقد تم الإستيلاء على قصر أصدقائنا "آل جوليتشوسيك" ليكون مقرا رئيسيا لهم. وكانت هذه واحدة من أولى الخطوات نحو الإستيلاء على الملكية الخاصة. وفي سياق عملية التخلص من مقتنيات المالك الصعبة، نجحت في إنقاذ أحد عشر ثوبا ليليا تابعين إلى الراحل أجينور جوليتشوسكي، أحد وزراء الخارجية في الحكومة النمساوية – المجرية، من الدور العلوي من القصر المحتل بالفعل . توجّهت بهذا الكسب النفيس مباشرة إلى ما يسمى بلجنة "كراكوا" المسئولة عن القادمين الجدد من "كراكوا" والتي يرأسها البروفيسير "كوت" والبروفيسير "جوتيل" آنذاك. كان هناك طلبا هائلا على كل بنود الملابس الرجالية. وتم تلقي الأثواب الوزارية المزينة بقدر هائل من الياقات الرسمية الرفيعة والمعروقة بفاتيرموردر والتي كست المحتاجين على نحو سريع.

كانت مدينة "لاواو" في هذا الوقت يقطنها مليون فرد. كان من الصعب السير في الشوارع المزدحمة وكأن بولندا كلها تتمركز فيها. فالطرق متخمة بكل وسائل الحركة الممكنة وكان من المستحيل أن تسير على الأرصفة. تدفق مئات الآلاف من اللاجئين ممن فقدوا كل ما يمتلكون -عادة ما يشمل ذلك ما هو قريب وعزيز- على المدينة بشكل أرعن، وكانوا يجوبون شوارع المدينة بلا أدنى فكرة ماذا سيفعلون بعد ذلك. منذ غزو البلاشفة، أصبح الذهاب لرومانيا مستحيلا وأصبح السفر إلى المجر أكثر صعوبة. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر الناس في الذهاب إليهم سيراً على الأقدام أو بأي وسيلة أخرى، ولكن الآخرين، وهم أكثر عددا، ظلوا يتدفقون على المدينة. والكل يتسائل: "ماذا سيحدث؟"

تفاقمت مشكلة اللاجئين بسبب نقص الطعام وعدم توفر مكان للإقامة. ومع ذلك، كان الوضع يتحسن كل يوم. فاستؤنفت الإمدادات من الريف وبدأ تدفق اللاجئين غربا "للجانب الآخر" حيث انسحب الألمان خلف نهر سان. إن عبور النهر في هذا الوقت لم يكن شيئا سهلا لكنه لم يكن مستحيلا. لقد أخذ ازدحام الطرق في التلاشي شيئاً فشيئاً وفي الوقت نفسه أثري نسيج المجتمع في لاواو خلال فصل الخريف بعناصر جديدة، فظهرت أعداد كبيرة من الرجال ممن يرتدون معاطف كبيرة وقبعات من الفرو بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والنبلاء من سكان الريف الراغبين في النزوح إلى المدينة.

لقد جلبوا أخبار القتل الأولى (ولو متفرقة) وكذلك المقبوض عليهم ويشملون ملاك الأراضي في الريف. وفي هذا الوقت وصل موظف من "جاكلينك" ليخبرني أن أخي الذي يملك أرض بالقرب من "كزرتكوا" وكذلك أختي قد ذهبا باتجاه الحدود الرومانية قبل ظهور البلاشفة بعشر دقائق فقط ونجحا في اللحظة الأخيرة في الخروج عن طريق "زاليسكيازكي" حيث قابلا عددا كبيراً من الأقارب والمعارف. وبعد ذلك كانا سيذهبان إلى جينيف. وسأل زعيم المجموعة الأولى من المجرمين،الذي كان يستهدف مقاطعة أخي، عنه بالإسم وقال أنه ينوي قتله.

إن أول الأخبار التي وصلتني من منزلي في كومارنو كانت من خادمتي المخلصة "أنديزا" وهي بنت ريفية بسيطة. جرّت حقيبة ثقيلة خلال الطريق كله. سار راعيها التذكاري -"ماتوز ماشنكي"، الخادم المتقاعد الظالم والبالغ من العمر خمسة وسبعين عاما- وراءها بخطوات واسعة. كان بشاربه الأبيض

الثلجي يبدو مثل الإمبراطور فرانز جوزيف.وبعد أن حيتني، أشارت أنديزا إلى الحقيبة وقالت "لقد أحضرت لكي أوراقك ومفكراتك. القي نظرة من فضلك وتأكدي هل قمت بإحضار المجموعة كلها." لقد جلبت كل شيء بالفعل حتى مخطوطتي (نظريتها عن ميشلانجيلو) الجاهزة للنشر – ثمرة عمل ثماني سنوات. ثم قالت "لدي المزيد لكي ولكني أحضرت الأوراق الأكاديمية أولا قبل أي شي لأني أعلم أنها الأكثر أهمية بالنسبة لكي." وفي "كومارنو"، وبرحيل السلطة البولندية بدأ الفلاحون تفقّد قصر المالك واستعادت أذهانهم مشاهد الثورات السابقة. ولقد اتبعهم الألمان الذين اضطروا للانسحاب إلى برزميسل بعد أن ظلوا لعدة أيام في الريف قاموا خلالها بنهب المنطقة. ومنذ ذلك الحين تولّت اللجان الأوكرانية المحلية السلطة وفي الوقت الراهن، أصبح تدفق العناصر السوفيتية قليلا.

الآن خادمتي "أنديزا" ذات الشعر الكتاني تعيش معي. وعلى الرغم من ذلك، كانت تقوم برحلات متكررة لـ "كومارنو" لتزودني بالمؤن أنا وأصدقائي مع أن ذلك يمثل خطراً عليها. إن أنواع الطعام التي جلبتها لم تكن قيمة لكنها أنقذت أيضا العديد من متعلقاتي الشخصية. ولقد أتى فلاحين أيضاً لزيارتي ولينقلوا لي آخر الأخبار وأذكر ذات مرة جاءت لي هدية من الجبن ملفوفة في زوج من الأوراق الممزقة من منشور يفسر لوحات مزهرة ترجعان إلى القرن الخامس عشر والذي تم انتزاعه من مكتبتي.

لقد زاد عدد البلاشفة المتدفقين الآن، كانوا رجالا ومعهم بعض النساء القبيحات عادة. كانوا يشترون كل ما يقع تحت أيديهم. اكتظت بهم كل المحلات. وتكررت مشاهد كمشهد الجندي وخشخيشة الأطفال والذي ذكر سابقا أكثر من مرة في اليوم. ولأن الغرض المراد من العديد من الأشياء لم يكن معلوما لدى المشترين، فكانوا عرضة لمواقف معينة محرجة.فعل سبيل المثال، تذهب الصديقات إلى المسرح وهن يرتدين فساتين سواريه فاتنة، أو يستخدمن قدور الغرف لري الأزهار. كان من الصعب أن تتمشى رغبتهم في امتلاك الأشياء مع اقتناعهم الدائم بغزارة البضائع في روسيا وادعائهم أن الإتحاد السوفيتي به كل ما تشتهي الأنفس. فعندما سأل مواطن من لاواو هل يمكن، على سبيل المثال، للفرد أن يجد أفرادا من كوبنهاجن في الإتحاد السوفيتي، أكد له مواطن روسي أن هناك الملايين منهم. ماذا عن البرتقال، إذا؟ هل توجد أعداد منه! بالطبع، هناك دائما الكثير، ولكن الآن بنينا العديد من المصانع الجديدة، فأصبح لدينا أكثر.

لم يكن قد مضى وقت طويل قبل لقائنا مع السلطات الجديدة على أرضنا – الجامعة. تم دعوة أساتذة الجامعة والقراء والمحاضرين والطلاب والحجباء لإجتماع في مجلس الجامعة الأعلى في التاسع والعشرين من سبتمبر. كان جمعا كبيرا. أعلى المنصة كانت هناك لوحة عملاقة لستالين بصورته وبالألوان. كانت مثل هذه الأشياء العملاقة مألوفة بالنسبة لنا نتيجة للحضارة البيزنطية. ولكن اللوحة المعلقة فوقنا تبرهن على عقلية منفصلة تماما عن الجذور الكلاسيكية التي نبعت منها الحضارة البيزنطية. شعرت بالهلع وأنا أنظر إلى الملامح والجبهة، تلك الملامح التي سوف تقابلنا وتلاحقنا أينما ذهبنا، في كل مكان سواء في نوافذ المتاجر أو المطاعم أو زوايا الطرق أو الترام. بدا هذا الوجه مختلفا تماما عن وجوهنا التي تعبر عن أفكارنا ومشاعرنا. هذه خاصية لوجوه أهل الغرب. لكن الملامح التي أراها أمامي الآن تختبئ فيها المشاعر والأفكار خلف حجاب لا يمكن اختراقه. من هذا الوجه - الذي كان غريبا عنا تماما في ذلك الوقت، ولكنه سيصبح مألوفا لنا بعد فترة من الوقت، على الرغم من أنه سيظل غريبا - تعلمنا بطريقة مريرة وغير قابلة للجدل أن العقلية التي تحكمنا مختلفة تماما عن عقليتنا.

وفي غضون ذلك دخلت شخصيات سوفيتية إلى القاعة: القائد الروسي لمدينة "لاواو" في معطفه الثقيل القيم يليه رجل طويل بدين ذو ملامح ذكية غير عادية ويرتدي سترة بلشفية وكان القائد يعامله بطريقة مختلفة. اعتليا المنصة ودعوا رئيس الجامعة وعمداء الكليات ليلحقوا بهم. إن أول من تحدث كان القائد الذي أثر فيّ كشخص روسي. لقد بدأ بتحية الحضور موضحاً أنه كان يفضل أن يفتتح اللقاء الأول في ذلك المبنى الذي سيساهم من الآن فصاعدا في نشر العلم ليس فقط للصفوة ولكن لكل الناس. ثم أعطى الفرصة للرفيق "كورنجسيك"، العضو في أكاديمية كييف كي يتكلم.

وقف السيد "كورنجسيك" وسار ببطء في اتجاه المنصة ومن هناك بدأ يخاطبنا بصوت قوي وعميق. تحدث باللغة الأوكرانية، لهجة كييف التي تختلف قليلا عن لهجتنا - لهجة من يعيشون بجانب النهر. تحدث عن عظمة وقوة الصدق والمعرفة وكيف لعبت الثقافة البولندية دورا في ثقافة العالم. وأشار إلى عظمة "آدم مايكوايس" الشاعر الشعبي الوطني في كلمات رقيقة استثنائية. ثم تحدث عن قوة وقيمة العلم بنبرات مختلفة، فالعلم يوحّد البشرية. وذكر مهمة الجامعات وخاصة جامعة

"لاواو" والتي من مهامها ضم الحضارتين -الأوكرانية والبولندية- ليصيحا حضارة واحدة. وعلى الرغم من أني لم أفهم كل الكلمات وغابت عني الكثير من الجمل سأظل أتذكر هذه الخطبة كواحدة من أفضل ما سمعت في حياتي كلها.

وعندما أنهى السيد "كورنجيسكي" حديثه، جاء دور من سيعتلون المناصب العليا في الجامعة الشيوعية- الأوكرانيون واليهود والبولنديون. بدأوا في غمرنا بالعبارات الغوغائية. وعندما تطرق الحديث عن الاستغناء عن أعضاء "القسم المميز" السابق من الجامعة، طلب البروفيسور "كرزمينوسكي" العجوز أن يتحدث. لقد كان يشغل منصب رئيس الجامعة سابقا، وشارك في كفاح سنة ١٩٠٥ وتم اعتقاله سياسياً من قبل. وعندما ظهر على الساحة بهيئته المهيبة، لم يكن بوسعنا سوى أن نلقاه بتصفيق تلقائي طويل.

انحنى السيد "كرزمينوسكي" بفخر لرئيس الجامعة وبدأ يتحدث بصوت عالي ونبرة هادئة: "فخامة الرئيس" ثم نظر إلى "كورنيجسكي" وقال "أيها الأكاديميون!" وفي النهاية نظر إلى الحضور وقال "سيداتي سادتي!". أما قائد المدينة، هذا الرجل القصير، والذي لم يتفضل المتحدث بتحيته على الإطلاق، فقد شعر ببعض الضيق في مكانه. تابع "كرزمينوسكي" حديثه قائلا "إن الرجل المهذب المبجّل الذي انتهى توا من حديثه (كان الرجل الذي يشير إليه والذي يجلس الآن وسط الحضور قد عقص شعره) يريد أن يستبعد جزءا من مجتمعنا من دخول الجامعة. سأقول ذلك له: لو أن التعليم لا يتجزأ مثل الحقيقة، لو أننا لم ندرك الآن الفروق الطبقية، فهذا يرجع، من وجهة نظري، إلى إن الكل سواء - فلاحين وعمال ومفكرين ونبلاء. إنني سوف أعلم الفلاحين والعمال والمفكرين والنبلاء. فلا تهم حقيقة الأصل الاجتماعي لمن أراد أن يخدم التعليم!"

ومتجاهلاً صيحة المعارضين الحادة، غادر السيد "كرزمينوسكي" المنصة وسط تصفيق حاد من الحضور. ثم وقف حاكم المدينة غير واثق من نفسه إلى حد ما، كما لو أن هناك شيئا ناقصا، على الرغم من أنه لم يكن قادرا على فهم ما يحدث. ثم قرأ نص برقية موجّهة إلى ستالين. لم تكن لغة البرقية مجاملة بإفراط بل كانت لهجة حذرة ومن الواضح أن البرقية لم تكن تهدف لمعاداتنا. ثم قال "من يوافق على إرسال هذه البرقية فليتفضل برفع يده". ومن بين البضع آلاف من الحاضرين رفع بضع عشرات يديهم. "ومن ضد إرسالها؟" لم يكن من الغريب أن

أحدا لم يرفع يده. فاختتم حديثه بابتسامة عريضة وقال: "تمت الموافقة بالإجماع على إرسال البرقية."

لقد غادرنا المكان يملئنا شعور بالمرارة. كان المساء قد حل ولكن على الرغم من كل شيء شعرنا بالأمل بعد خطبة السيد "كرزمينوسكي" حيث شعرنا بالإطمئنان أن يمكن إنقاذ الجامعة وأنه يمكن الحفاظ عليها حتى فصل الربيع كنصب تذكاري – كنوع من النصب التذكارية التي يتم إنقاذها من حطام سفينة من الوطن الأم. وبعد عدة أسابيع علمنا أنَّ السيد "كورنيجسك" كان قد ألقى خطبة حماسية أخرى في التاسعة من مساء نفس الليلة ولكن هذه المرة في اجتماع للأوكرانيين ووعد فيها باستبعاد كل العناصر البولندية من جامعة لاواو.

انتظرنا وطال انتظارنا. كان لدينا انطباع أن العناية الآلهية تقودنا للمجهول وكان فضولنا يفوق كل الحدود. يجب أن أعترف، بقدر ما اهتمامي بذلك، أن فضول المؤرخ والذي فتح المجال لإمكانية التواصل مع واحدة من الحركات الرائدة في وقتنا – قد فاق كل شيء. إذا كان لابد أن تخسر كل البلاد استقلالها لشهور في نهاية الأمر (يمكن القول حتى حلول الربيع)، فسأشعر بالسعادة أن أكون في الجزء الروسي المحتل. يبدو أن التجربة ستكون شيقة وأن مفهوم كرامة الإنسان، الذي يمثل أساس كوننا الداخلي، سيحتل جزءا كبيرا من نظريات الشيوعية والذي محاه هتلر لصالح الطائفة التي تعبد الحيوان في سياسة التميز العنصري.

إن المعلومات التي وصلت إلينا من الجانب الآخر كانت تؤكد وتخدم هذا الإتجاه. فلقد سمعنا من الراديو أنه هناك إعدامات جماعية في مقاطعاتنا الغربية ثم بعد ذلك عرفنا أنه تم القبض على أساتذة جامعة جاجيالونيان في "كراكو" وإرسالهم إلى معسكر اعتقال. لقد هبطت علينا تلك الأنباء كالصاعقة. ثم توالت عاصفة من التقارير عن تدمير كل المراكز الثقافية والأرشيف – في الحقيقة، تم تدمير كل ما آثار تاريخنا الماضي. وعلى الرغم من أننا لازلنا نتعلق بأمل وهمي بألا يكون كل هذا صحيحا، فبعض منه على الأقل تم نشره من قبل المعارضين لهتلر إعلامياً. وعلى الكل أن يعترف أن السوفيت، على النقيض من ذلك، كانوا يبدون إحتراما للعلم والثقافة واللذان سيساعدان بالتأكيد على إنقاذ الكثير. استمر هذا الشعور بمجرد افتتاح الجامعة بالكامل. كان يجب علينا الاستمرار في دراستنا كالمعتاد فهذه كانت الوصية. بدأنا العمل وكأن شيء لم يحدث، وأنا

كالباقين أكملت محاضراتي. على الرغم من أن الحاضرين كانوا مجموعة غريبة. لم يكن هناك فتية بولنديين وكان الطلاب يأتون في وقت واحد لقراءة الكتب وطلب المشورة بشأن المزيد من القراءة. فيما مضى، كانت الطالبات يأتين إلى المحاضرات ويذكرن أن الساعات التي يقضينها تساعدهم نوعا ما ليستمروا في دراستهم. كان هناك أيضا بعض الطالبات الجدد غير البولنديين واللاتي أرسلتهم السلطات. ولأنني، وفقا للبرنامج الأصلي، كنت أحاضر سلميا حول عالم مدرسة سيسينا للرسم الموجودة منذ القرن الرابع عشر، جلس الطلاب الجدد غير المحظوظين ساعة تلو الأخرى وعيونهم لم تكن تحملق في الصور الشفافة على الشاشة، بل كانت تحدّق في الفضاء فوقهم. كان لأننا كنا جميعا نخضع لرقابة صارمة. فكن غالبا يستسلمن للنوم وأجد محاضراتي مصحوبة بشخيرهن المتناغم في الوقت الذيس أشرح فيه أهمية سيمون مارتيني، صديق بترارك.

استمر رئيس الجامعة المنتخب، في الجزء قبل الأخير في العام الدراسي، في تولي مهام الجامعة حتى جاء اليوم الذي تم استبداله بالأستاذ "ماركزينكو" من "جامعة كييف". لقد أخبرنا أنه أحد أبناء وأحفاد العمال اليوميين إلا أن أحدا لم يتقبله لأننه ببساطة لم يكن ذكيا. ولا يمكن قول ذلك على رفيقه غير الودود، السيد "لوازنكو" "المفوض السياسي" في الجامعة. لم نعرف ماذا يعني ذلك ولكننا لم نتقبله. اهتم بنا الرفيق "لوزنكو" اهتماماً فريداً ولكن ليس بشكل فضولي. أعطينا نماذج لنقوم بملأها وكانت تشبه السيرة الذاتية إلى حد كبير. اهتمينا بقسمين فقط في الاستبيان: الأصول الإجتماعية وعدد الإختراعات التي قمت بها. حيّرنا السؤال الثاني بشكل كبير. وحاولت أن أشرح لمساعد لوازنكو أن أستاذ العلوم الإنسانية اوالمؤرخ على وجه التحديد لا يعدان الأبحاث "إختراعا". نظرت إليّ بذهول ولكنها علّقت على كلامي بنره يشوبها التسامح قائلة "آوه، يالا الخسارة، أيها الرفيق. لو لم يكن لك اختراعات فهذا ما يجب أن تدونه."

أمرنا السيد "لوازينكو" بتكوين جمعية تعاونية تضم كل العاملين الدائمين في الجامعة بداية من الأساتذة حتى الحجباء. وعندما لم يكن هناك طعام في الجمعية بعد بضعة أسابيع أمر المفوض بطرد الحجباء. وعندما أشرنا أن هذا الإجراء لا يتفق مع أخلاقنا الاجتماعية، أجاب لوازنكو بطريقة يبدو فيها فروغ الصبر "هذا لأن الكل هنا سواء. أليس كذلك؟ حسنا، نحن لسنا كذلك."

أما الأمر التالي كان هو التعيين الدائم والتدريجي للمزيد والمزيد من أقسام المواد الجديدة: الداروينية واللينينية والستالينية وهكذا دواليك. كان رؤساء هذه الأقسام جميعهم قادمين جدد من "كييف". وفي يوم انفصلت كلية الطب لتكوّن ما يسمى ب "معهد الطب" المستقل الذي قام فيما بعد بتشريح جثمان الأساتذة البولنديين في الجامعة. وفي الوقت نفسه، تم الاستغناء عن عن سلسلة كاملة من الأقسام واحد تلو الآخر على فترات محددة. وتضمنت هذه الأقسام الحقوق والعلوم الإنسانية. وخلال فترة قصيرة جدا، لم يتبق شيء في قسم الحقوق وكان عدد العاملين في قسمنا في التقلص يومياً.

ومع بداية الشتاء أتت لنا بعثة من موسكو تتمثل في عدد من الأساتذة. كانوا يتصرفون برزانة ووقار حتى أن بعضا منهم ضلل الأشخاص المتحزبين بتقاليد متحضّرة. زار القسم الخاص بالتاريخ الأستاذ "جالكين" وكان لي لقاء معه في حجرة العميد. مر تبادل الأفكار بيننا بصعوبات تقنية خطيرة عندما اتّضح أن المتحدّث بإسمي، وهو أستاذ في التاريخ الألماني، سوى اللغة الروسية. وحيث أنه أصر على سؤالي عن دراستي وتخصصي في الوقت الذي فشل فيه في فهم إجاباتي بأي لغة، حاولت بيأس استخدام بعض كلمات اللغة اللاتينية. وهنا أومأ قاطن موسكو/الروسي برأسه بقوة ولكن لم يرد باللغة اللاتينية. وعلى الرغم من ذلك، امتنع عن توجيه أية أسئلة أخرى. وأثناء هذا الحوار، دخل الأستاذ "كوريلوسيك"، أحد زملائي البولنديين. وعندما وجدني أخاطب قاطن موسكو/الروسي بلغة لاتينية غير جيدة، خرج بسرعة البرق وهو غير قادر على التغلب على فرحته. وفي النهاية أعلن السيد "جالكين" باللغة الروسية أن القسم كله، وخاصة علم الآثار وتاريخ الفن، يحتاج لإعادة تنظيم شاملة حيث أنه لا يوجد أية متخصصين في المتاحف ضمن طاقم العمل. وأضاف أنه سيأتي ويلقي نظرة على الدير في أسرع وقت ممكن. وكان هذا هو ختام الزيارة.

وعندما حان الوقت للعودة إلى بلادهم بعد عدة أيام، رجانا الأساتذة الروسيين وهم يودعوننا أن نتصل بهم في حالة وجود أية مصاعب مستقبلية. فاتضح لنا مباشرة بعد رحيلهم من أن يمكن أن تنشأ مثل هذه المصاعب. حتى عندما كانوا معنا، كان من السهل تبيّن التوتر بين الروسيين والأساتذة القادمين من كييف. فطالما ظل الروسيون في لاواو، تمكّن الأوكرانيون من فهم البولنديين بشكل تام. ومن ناحيتهم، أكّد الوافدون من موسكو

بشكل دائم أنهم لا يهتمون على الإطلاق بجنسية الأستاذ ولا باللغة التي يحاضر بها. فطالما ابتعد الزملاء القادمون من موسكو، ينسى هؤلاء الآتيون من كييف اللغة البولندية ويصبحون غير قادرين على فهم كلمة من تلك اللغة. وفي الوقت نفسه، تصاعدت حدة الضغط على أن تكون المحاضرات كلها باللغة الأوكرانية. كان هناك عدد قليل من الأساتذة والقراء، وأنا من ضمنهم، لم يواجهوا بطلب إلقاء المحاضرات باللغة الأوكرانية. ولكن المنح الدراسية أصبحت متاحة بالفعل للدراسات الأوكرانية. ومع ذلك، خضع الضعفاء منا، ولكن كنوع من التحدي لكل شيء واصل العديد التدريس باللغة البولندية.

وفي فبراير عام ١٩٤٠ ظهر رئيس جديد لقسم التاريخ وهو البروفيسور "براشينس". استقبلني في مكتب رئيس القسم وهو يرتدي قبعة من الفراء وحذاء طويل يحمل رائحة شحم الودك وطلب مني أن أعطي دورة تحمل عنوان "تكلف النهضة، النهضة تكلف". كانت غرابة العنوان تأتي على الأرجح من عدم تأكد رئيسي الجديد أي الكلمتين يجب أن تذكر أولا. وبعد ذلك علمت أن واحدة من طالباتي الأوكرانيات، بهدف حمايتي، قد أعلنت أن محاضرتي على درجة عالية من التخصص وحتى الآن، لا يوجد طلب باستبعاد أي مدرس يقوم بمنح دورة متخصصة مطلوبة من قبل الروسيين أنفسهم. يبدو أن الرفيق "براشينس" لا يعرف أبجدية اللغة اللاتينية. وعلى أية حال، فطوال فترة اعتلائة منصب رئيس القسم لم يقرأ أي شيء مكتوبا باللغة اللاتينية من الألف إلى الياء. فباعتباره مدرس اللينينية والستالينية، فهو لا يحتاج بالطبع إلى الحروف الرومانية على الإطلاق.

وعندما كان يستبعد أحد الأساتذة كانت كليته تختفي في نفس الوقت. أما الكتب التي تتناول الفلسفة غير المادية والكتب الأخرى التي لا تشير بعبارات متكلفة إلى جيراننا الشرقيين (وكان هناك الكثير من تلك الكتب) تذهب إلى (**هناك إشارة إلى ذلك المصطلح في فهرس الكتاب**) أو يتم نقلها على الفور إلى "المنظمة" ليتم إعدامها ككتب إباحية.

ولأني أستاذ جامعي كان تتوفر لي حماية ثنائية: حماية للشخص والأخرى للمسكن. هنا استطعت أن أرضي نفسي عندما قابلت النقيب "باولزينكو" من الجيش الروسي.

في ١٩ نوفمبر ١٩٣٩ جاء هذا النقيب إلى بيتي وشغل أحد الغرف. فقلت له أن أسرتي أتت لتعيش معي حيث أن منزلهم

قد دمر في القصف في شهر سبتمبر. وإلى جانب ذلك، وكموظف جامعي فمن حقي أن يكون لي ثلاث غرف حيث تعيش معي فتاة بالتبني (أندزيا) كما أمتلك مكتبة. ولكن كل هذا دون جدوى فقد استقر في المنزل واعتبر نفسه في بيته. وعندما أكون في المنزل يكون هادئا. أما عند خروجي يمارس شره. في أول ليلة أخذ يدور في حجرته كالمجنون وكنت أنا وأندزيا منتظرين ومسلحين بأكبر مقلاة. وأخيراً في الساعة الثانية بعد منتصف الليل أخذ يغير أماكن الأثاث فقد وضع فواصل بين باب حجرته وحجرتي. فمن الواضح أنه كان قلقا بشأن المستاجرين السوفيت لشقق عمال لاواو الذين انتقلوا إلى العالم الآخر أثناء الليل. وعلى الرغم من ذلك، فقد قام بهذه المناورة ليطمئن نفسه ومن الواضح ان أعصابه أيضا قد استرخت. فبعد فترة قصيرة سمعنا صوت شخيره العالي. فغفونا أيضا ونمنا نوما عميقا.

في صباح اليوم التالي عاد ليكمل ما صنع في المساء. فما عرفه من البواب عني جعله يقتحم الشقة بصرخة عالية وأمر "أندزيا" أن تسلّمه الأثاث الذهبي الذي أخفيه عنه. فقال أنه يعلم جيداً أن ملاك الأراضي البولنديين قبل الحرب يمتلكون مقاعد وطاولات ذهبية. فهو ليس غبيا حتى يصدق أنني أنني أعيش بمثل هذه الأثاث المستهلك (فالأثاث أمامه الآن كان أثاث إيطالي قديم وغير لامع). اقتحم حجرتي ونظر إلى أرفف الكتب والمرصوص عليها العديد من الكتب الإيطالية على وجه التحديد. وهو في قمة غضبه كشّر عن أنيابه وقال "مكتبة فاشية!". وصلت في هذه اللحظة إلى المنزل ودخلت الحجرة. صرخ باولزينكو بالروسية: "سألقي القبض عليك!."

أجبت بقوة وأنا رافعا رأسي " لا يحق لك هذا الآن فأنا أستاذ جامعي."

ثم سألني بنبرة أهدى بشكل ملحوظ متى سأنتهي من عملي اليومي. حددنا موعدا في الساعة الثالثة ظهرا. بطبيعة الحال لم أحضر. ففؤجئ في الموعد بإخوة "أندزيا" الثلاثة –فلاحون من نفس المنطقة التي نعيش فيها في البلدة ويعملون الآن في "لاواو". فعندما نظر إلي هؤلاء الشباب مفتولي العضلات، شحب وجهه عندما أكّدوا له بما لا يدعو للشك أنه إذا لمس شعره من رأس أختهم، فسينتقم ثلاثتهم منه. أخبرني أصغرهم في ذلك المساء أن باولزينكو كان يبدو كلوحة للنمر الكارتوني– وصف مناسب للغاية. وعلى مدار الأيام التالية، نقلنا كل الأشياء الثمينة من منزلنا إلى منزل من نثق بهم. هذا جعلني أدرك كم هو غير

مريح أن يكون لديك أملاكا على الرغم من أنني أدركت على الفور كم هو غير مريح ألا يكون لديك أملاك.

ثبت أن الحياة المشتركة مستحيلة تماما. كان "باولزينكو" يحاول أن يحطّم كل مالا ينتفع به. فرمى كل أدوات المطبخ المعقدة وتبنى موقفا عدوانيا تجاه أنابيب المياه. حذرتني "أنديز" من أن هناك شيئا خاطئا لأن "باولزينكو بدأ يغتسل في المرحاض". وفي اليوم التالي أخذ يجري ورائها بالمسدس في البيت واتهمها بالقيام بأعمال تخريبية. فالمشكلة، وفقا لأندزيا، أنه بعدما فتح الصنبور، توقفت المياه عن الانهمار قبل أن يكمل غسل شعره. لقد أصبح البيت مصدر ازعاج. فعندما كنت أخرج كنت لا أترك أندزيا وحيدة فالفتيات الصغيرات الجميلات كانوا في خطر متزايد. وعندما نعود للبيت كنا كل مرة نقابل كارثة جديدة. في النهاية قررت أن أذهب إلى مكتب المدعي العسكري العام وأن أبدأ الحرب ضد هذا المستأجر. بهت أصدقائي ونصحوني ألا أفعل ذلك حيث أني إن فعلت ذلك لن أخرج ثانية. لكنني لا أريد أن أنتظر حتى يقضي عليّ باولزينكو. ولذا ذهبت أنا وأندزيا والمستأجرون من الباطن إلى المكتب الكائن بشارع باتوري.

استقبلنا المدعي العسكري العام وسمعنا بإمعان. تحدّثت أندزيا، التي تتقن اللغة الأوكرانية، بعقل وجرأة. طلب منا المدعي العام أن نكتب شكوانا وأن نأتي في اليوم التالي. كتبت تقريرا كاملا وترجمه المستأجرون من الباطن إلى الأوكرانية. في اليوم التالي، جلس معنا المدعي العام مرة أخرى وطلب منا أن نأتي ثانية غدا. وفي اليوم الخامس ودّعني أصدقائي على اعتبار أنني سأختفي لفترة طويلة. فبعدما دونت تفاصيل دقيقة عنيّ بما في ذلك ممتلكاتي قبل الحرب، طلبوا منا الذهاب إلى المنزل وهناك سنتسلم الرد على مطلبنا. وبعد رجوعي من الجامعة في المساء واجهت موقفا جديدا. وجدت لافتة على الباب مكتوب عليها "هذه الشقة ملك لأستاذ جامعي ولا يمكن مصادرتها". كانت أندزيا والمستأجرين ينتظرون في الصالة، وعند رؤيتي، رووا الحكاية كلها، كل في نفس واحد. وقبل ذلك بوقت قصير، أتى نائب المدعي العسكري العام ومعه "باولزينكو" - وكان الأخير غير مسلح، مجردا من شاراته العسكرية، وبدلا من ارتداء قبعة من الفراء على رأسه، كان يرتدي خوذة محبوكة مثل تلك التي يرتديها الجندي الخاص. أمره النائب أن يجمع أغراضه وأخبر

النساء المذهولات أنه قد تم عقابه لأنه أساء للجيش الروسي وأن المالك يمكنه من الآن فصاعدا مواصلة أبحاثه العلمية في هدوء.

ولسوء الحظ، لم تتحقق هذه الأمنية الأخيرة. فلقد عكّرت الزيارات المتعددة صفو ذلك الهدوء. كانت هذه الزيارات من قبل المعارف والأغراب الذين احتل الجنود السوفيت منازلهم ويصرون على معرفة كيفية التخلص منهم.

كان بعض الزائرين يكذبون. ففي هذا الوقت كان الاحتلال العسكري لمدينة لاواو في نهايته وبدأ البوليس السري السوفيتي في تولي زمام السلطة. لقد تغيرت المدينة كل يوم عما قبله. في كل ساعة تجد المفوضين يسيرون في الشوارع مرتدين زي مدني يعلوه معطف بني من الجلد أو ميليشيات مرتدين قبعات زرقاء مدببة كضباط البحرية ويقومون باقتحام شقق هؤلاء المشتبه في كونهم ذوي "آراء معادية للثورة." كنت مصدر قلق بالنسبة لهم بصفة خاصة حيث أنني من ذوي الأملاك سيئي السمعة وأيضا بفضل الجامعة التي جعلتني أحظى بشيء مشابه للحصانة البرلمانية. وهذا ما جعلهم غاضبون على نحو مرعب .

كانوا يسألون بسخرية "ماذا كنت تعمل قبل الحرب؟"

والإجابة كانت "كما هو الحال الآن -أحاضر في الجامعة- كنت وقتها أستطيع مواصلة تأليف كتبي ولكن الفرق الآن هو أني لم أعد أستطيع حتى أن أعد محاضراتي بفضل بنادقكم التي تدق بابي كل صباح. تدخلون وتجلسون وتسألون نفس الأسئلة كل يوم وهذا مايجعلني عاجزة عن إكمال عملي. وعلى رأس كل هذا، يقال أن السوفيت يكنون اهتماما كبيرا للتعليم."

"هل أنت كونتيسة؟"

"لا دراية لي ببلادكم ولكن لا يوجد كونتيسة في بولندا."

"ماذا تعني بأنه لا يوجد كونتيسة في بولندا؟".

"الدستور لا يعترف بالألقاب."

وعندما ذكرت كلمة "الدستور" المقدّسة في كلامي، وقفوا دون أن يقولوا كلمة أخرى. أظهرت له بطاقتي الشخصية والأوراق فلم يجد فيهم أي ألقاب.

"بالفعل لا يوجد ألقاب، إذن ماذا كان يعمل أبوك؟"

"راعيا للفن" فارتسم الرعب على وجه السائل وقال "عليك أن تأتي معنا إلى مقر الشرطة السرية".

ذهبت معهم وتكرر الأمر كثيراً. إن مصطلح "راعيا للفن" أفادني كثيرا. فلم يكن أحدهم يعرف أي نوع من الكائنات هذا. وذات مرة كان هناك مفوض صائب. كان فلاح ضخم الجثة

مرتديا قبعة من الفراء. ابتسم ابتسامة عريضة وقال: "نحن نعلم أن لقب الكونتيسة يورث في العائلات – كميراث الأب للإبن."

"قد يكون هذا صحيحا، ولكن ليس في بولندا لأن الدستور لا يعترف بالألقاب." وهكذا استمر الأمر يدور في دائرة مفرغة. كانت الأشياء تتطور أيضا بسرعة على الصعيد السياسي. فحيث أن، وفقا للدستور، الدولة فقط هي التي تقرر هل ترغب في الانضمام أو تطلب الموافقة على إنضمامها للإتحاد السوفيتي، يجب أن تعلن أوكرانيا الغربية عن إرادة شعبها بعد وقت قصير من "تحريرها". تم الإعلان عن الاستفتاء الشعبي وبدأت الحملة. شجّع الراديو البولندي، الذي يبث من فرنسا، الشعب على التصويت بإسم الحكومة البولندية لأن الاستفتاء قبل توقيع معاهدة السلام سيكون باطلا، ولم ترغب حكومة الجمهورية البولندية في تعريض مواطنيها للخطر بفشل التصويت. كان شيئا غير سار ولكن معظم الشعب قام بالتصويت. وبفضل اسمي الذي كتب بشكل خاطئ في القائمة الانتخابية لم أقوم بالتصويت ولكن كان هذا حظا محضا.

في الحادية عشرة من مساء هذه الليلة، والتي ظلت اللجان الانتخابية فيها مفتوحة حتى منتصف الليل، دقت دورية من الميليشيا مدججة بالسلاح على الباب ووسط الكثير من الصياح سألني أحدهم لماذا لم يقم زوجي بالتصويت. فأجبت أنني لا أستطيع أن أجيب بدلا منه حيث أنني لا أملك سلطة عليه. تزايد سخط ضيوفي على زوجي. ظل الامر كذلك حتى فهموا أنني لا أستطيع أن أجبر زوج غير موجود في الحقيقة على التصويت. انفجروا ضاحكين وذهبوا.

وبعد فترة كان هناك استفتاء آخر. فبعد ظهور إرادة الشعب القوية، تفضّل الإتحاد السوفيتي بقبول انضمام أوكرانيا الغربية له، ومن ثم كان على العضو الجديد إنتخاب ممثليه. ظهرت صور المرشحين وسيرهم المطبوعة على حوائط المنازل. وكان من أبرز المرشحين من "لاواو" البروفيسور "ستدنسكيج" والذي، نتيجة لأبحاثه المتميزة في مجال الأدب الأوكراني، أسماه النمساويون الأستاذ المعجزة بسبب خدماته البارزة. وعلى الرغم من ذلك، في عام ١٩١٨، عندما انتصر العدو، بولندا، خفضت الدرجة العلمية للبروفيسور "ستدنسكيج" ليصبح أستاذا عاديا. وفي ذلك الوقت، تبنت الحكومة البولندية نفس النهج فكان علينا جميعا أن نذهب للتصويت. كنت أعرف أنه لا جدوى من المقاومة ولكن في الوقت نفسه يجب أن أعترف أن مثل هذا

الإجراء يترك شعورا بالإشمئزاز. كان التصويت سريا. قادنا رجل من الميلشيا أنا وأنديزا وراء ستارة حتى الجرار وراقبنا حتى صوتنا على البطاقات المعلقة. وبالتالي ظهرت إرادة الشعب حتى يمكن لنصوص الدستور أن تتحقق.

وفي غضون ذلك، أصبح الجو حولنا خانقا وظالما وأصبحت الأيام أقصر وأكثر قتامة. كما بدأ تكوّن صقيع الشتاء القاسي وزاد علينا حمل فقدان الحرية أكثر وأكثر. وكلما تراكمت جبال من الجليد القذر أمامنا في شوارع مدينة "لاواو" كلما غرقنا يوميا أكثر في أسرنا. تم القبض على المزيد والمزيد من الناس، معظمهم من الشباب حتى امتلأ سجن بريجيدكي بهم. وبغض النظر عن هذا، كان الأولاد يختفون ببساطة في مكان ما دون أي أثر. كان اول من اختفى هم الفتيان لاصغار الذين ألقي القبض عليهم بسبب غناء الأغاني الوطنية بالمدرسة. فقط اختفوا. بعد ذلك، وللمرة الأولى، بدأ تداول شائعة مشئومة: "لقد أخذوا إلى روسيا." كان الأمر كقصة سوبولويسكي في الجزء الثالث من عشية الأجداد. الفارق الوحيد هو ان هذه المرة اختفى عدد كبير من الأطفال والبالغون أيضا، فيما بعد، بدون أي أثر، وبغض النظر عن البطاقات البريدية المتفرقة التي يتم العثور عليها بجوار قضبان السكة الحديدية: "تم نقلنا إلى روسيا. برجاء تذكرنا بعد الحرب." وتوالت رسائل كهذه وبها صف من الإمضاءات. ولكنهم لم يلقوا القبض على مدرسين. ففي الأيام الأولى كان ليون كوزلوسكي وستانايزلو جرابسكي ولودويك دورزاك، النائب العام في المحاكمات الشيوعية، هم من اختفوا. بعد ذلك، كانت هناك هدنة. ولكن تم القبض على كثير من المفكرين وليس الضباط. وبعد الاستسلام، كتب كثير منهم أرسلوا خطابات من معسكرات السجون الروسية في كوزيلسك وستاروبيلسك. سعدنا أنهم في جماعات مما يعني فرصة أكبر في البقاء أحياء.

وكان من ضمن من تم القبض عليهم أناس مقربين إلينا. وفي يوم من أيام الأحد أخذني أحد المدرسين المساعدين معنا في القسم لنقل بعض الطعام لمستشفى شركات التأمين السابقة والتي تقوم الآن بعلاج المحاربين القدماء المصابين في الحرب. فسمح لنا الروسيون بزيارة المرضى وسجّلوا أسمائنا وتنقّلوا بين الأسرّة ليتنصتوا على ما نقول. كما أحضر عدد من سكان لاواو الفقراء والجائعين بعض المعونات التي يفتقدوها هم أنفسهم للجرحى. وكان من المعروف أنه سيتم نقل هؤلاء المرضى بعد شفائهم إلى مكان مجهول، ولكنهم دعهم في الوقت الراهن

يعرفون أنهم لازالوا في "لاواو". في أحد العنابر كان هناك باب يؤدي إلى حجرة صغيرة وكان المرضى وزائريهم ينظرون إلى هذا الباب بقلق ملحوظ كلما تم فتحه.

همس إليّ رفيقي قائلا "إنه لا يحتاج لشيء. لقد حصل على كل ما يحتاجه، لقد كان في حالة سيئة ولكنه الآن أفضل. سيأخذوه قريباً ولا أحد يستطيع فعل شيء." أدرك صديقي أني لا أملك أدنى فكرة عمن يتحدث إذ أضاف على الفور "هذا هو اللواء أندرز هناك."

وفي هذا الوقت كان المظهر الخارجي للمدينة قد تغير. فقد تبدلت أسماء الطرق البولندية بأسماء أوكرانية وتم إزالة اللافتات البولندية من على المحال والمباني التجارية. وسمح للملاك البولنديين، الذين جردوا من أملاكهم، بشغل غرفة واحدة في شققهم السابقة، كما صار الأمر كذلك بالنسبة لمالكي العمارات السابقين. جلسوا في منازلهم ينتظرون هل تم مصادرة أملاكهم – بضائعهم وأموالهم ومنازلهم وأعمالهم. أشاروا إلى أن الدستور يكفل لهم حق امتلاك هذه الأشياء. ثم جاء إليهم هذا الرد المفصّل: "نحن نطبق الدستور أينما يوجد نظام بالفعل. هنا، مهمتنا الأول هي استعادة النظام؛ وقتها فقط يمكن تطبيق الدستور." وبعد هذا الرد كان عليهم الإنتظار حتى يلعب القدر دوره.

أما بالنسبة للمهن الحرة، جنى لأطباء أفضل الثمار في البداية. تمت حماية منازلهم وذهب إليهم الروسيون لتلقي العلاج وخاصة الأطفال السوفيت الذين كانوا عادة في حالة خطرة. فحالات السل كانت كثيرة. حتى عندما يتحسنوا، كان الأطفال الروسيون لا تبدو عليهم علامات الطفولة بشكل غريب. فكانوا يجوبون الشوارع بشكل رسمي ووجوههم شاحبة، لا يضحكون ولا يركضون، أعينهم الكبيرة يملأوها حزن شديد واستسلام وإرهاق مزمن. كانوا يقفون يحملقون في نوافذ المحلات، فقط ينظرون، ولكن حتى عيونهم كانت حزينة.

كانت المحلات، في الواقع، فارغة. فلا يوجد سلع ليتم عرضها فاستخدم هذا المكان لتعليق صور لستالين. أما محلات السلع المستعملة، فكانت مزدحمة أكثر من ذي قبل. فيوجد بها سلع أفضل وأفضل للبيع. كانت "لاواو" تبيع تراثها وثقافتها ببساطة لتبقى على قيد الحياة وكان هذا أصعب شيء. فليس فقط المواد الغذائية ولكن كل أنواع السلع الاستهلاكية يمكن العثور عليها الآن فقط خارج المحال العادية. كان أول هذه المحلات هو محل

في ممر "ميكولاز" في قلب المدينة. كنت أذهب إلى هناك بإستمرار وأقضي وقتا طويلا أنظر حولي. كنت أشتري الأدوية والمحقنات والقطن الطبي وكل أنواع الضمادات. وكان أول شيء يجب أن يتم فعله، من وجهة نظري، هو الاحتفاظ بالأشياء حتى ذلك الربيع القادم، والذي سيكون "غنيا بالأحداث".

اشتريت هذه المقالات والتي من الواضح أنها سرقت من الصيدليات قبل أن تصبح ملكية حكومية – من التجار المستبعد وجود تلك الأشياء عندهم. هذا الكنز كنت أخفيه في بيتي أو عند أصدقائي، وظننت أنه من المحتمل أن أكون في حاجة إليه. من الواضح أن السرية هي جوهر الأمور من هذا النوع. شعرت بالغضب يوما عندما كنت في منزلي أفرز حزمة كبيرة من الضمادات على السجادة بمساعدة صديقتي جادويجا هورورديسكا، وتعمل نحاتة، عندما دخلت علينا صديقتها رينيا كوموروسكا التي أعرف أن زوجها كولونيل. كنت قلقة جدا أن يكون شخصا لا أعرفه جيدا قد رأي هذه الأشياء ولا يمكنه الاحتفاظ بهذا كسر.

وبعد أشهر قليلة، بدأت الميليشيات تهتم بشكل كبير بالمحلات الموجودة في هذا الممر. فقاموا لمرتين بإغلاق محال كل التجار الذين ألقوا القبض عليهمو لذا أصبحنا نذهب لمبنى "سكاربكوسيكي" في الحي اليهودي في "لاواو". وهناك وعلى مربع كبير مغطى بأكوام ضخمة من الثلوج الموحلة، كان يوجد كل أنواع البشر/أسراب من البشر –كل الأنواع وبجميع الهيئات، من الحثالة حتى طبقة الأغنياء المثقفين في مجتمع لاواو- يبيعون ويشترون كل شيء تقريبا حتى ولو لم يكن مطلوباً. كان هناك قطع من الأثاث وأجزاء من السيارات وقطع من الماكينات؛ كان يوجد سوق سوداء للدولارات واللوحات والبطاطين وملابس النوم والخواتم والوسائد، الجديدة والقديمة – وكان بعضها متسخا بدرجة مثيرة للدهشة، والبناطيل الرجالي الجديدة والمستعملة، بحالة جيدة أو ممزقة، بعضها مرتوقا وبعضها غير مرتوق؛ ففي الحقيقة ستجد كل أنواع الثياب التي تملأ خزانة ملابس سواء للرجال أم للنساء، بدءا من ملابس السهرة حتى الأرواب ذو شامبر الفستيانية الأنيقة، والمفاتيح والمفكات والأدوات الصينية سواء كانت مكسورة أو أصلية والأزرار والإبر الفضية والمقلدة وأدوات موسيقية وطبية وترجمات اتش جي ويلز لأفلام الرعب.

كل هذا البيع والشراء يتم وسط صخب وصراعات هائلة. ذهبت فقط إلى هناك لأحصل على ما أحتاجه من الضمادات اللازمة لمرفقي. وكانوا ينادونني ب "الدكتورة" ونصحوني أن أبيع للمرضى من هذه الأشياء العلاجية "القليلة جدا" لأنها ستنفد سريعاً. وفي الوقت نفسه، كان هناك تاجر آخر يبيع أصفادا جديدة من سلسلة كبيرة معلقة على كتفه، ورأيت بجانب أحد الأكشاك حلقة مطاطية صفراء (من النوع الذي يستخدمه المرضى) تعانق خصر مندولين. تذكّرت هذه "الحياة الساكنة" طوال هذه السنوات. نظرت حولي وملأني الرعب عند رؤية هذا الجزء من آسيا الذي نزل على لاواو. كان حدثا محزنا أن يلتهمنا الشرق. فنحن نغرق.

أصاب المرسوم السوفيتي الصادر يوم ٢١ ديسمبر ١٩٣٩، والذي يلغي العملات البولندية، كل المشروعات التجارية والاستثمارية الموجودة في الوقت الحالي بالشلل. فمن ساعة لأخرى نجد أنفسنا وجها لوجه مع الخراب – العدم. لقد كانت صدمة كبيرة للكل، صفعة هائلة لمعنويات المدينة. فكان الذين لم يعرفوا هذه الأخبار يذهبون للمحال التجارية كالمعتاد ويسألهم البائعون هل لديهم روبلات روسية حيث أن الزلوتي لم يعد له وجود. فيضطر العملاء المحتملون إلى الخروج وهم مذهولون وأيديهم خاوية. وآخرين يركبون الترام. عندما كانوا يريدون دفع الأجرة ولا يملكون العملة السوفيتية، كان السائق يوقف الترام ويضطر الركاب إلى الترجل. وكان الناس لا يفهمون هذا الأمر تماما والكل يتساءل "من أين يمكننا إستبدال عملاتنا بالروبل وبأي سعر؟"

"لا يوجد سعر، ولا يوجد مكان تذهب إليه لإستبدال العملات. فالزلوتي لم يعد عملة قانونية." فعدد قليل من البولنديين في هذا الوقت يملكون الروبل. هذا يحتاج لأن تعمل عند الروسيين. وبقدوم الكريسماس أصبح الوضع مأساويا. ثم بدأت الأمور تتحسن إلى حد ما بفضل السوق السوداء. بدأ اليهود يشترون الزلوتي -حيث أنهم يستخدمونها في الجانب الآخر تحت قيادة الألمان- واستبدل كم كبير من الزلوتي بعدد قليل جدا من الروبل.

لقد كان موسم الإجازة صعبا للغاية ليس فقط بسبب عدم وفرة الأموال ولكن الأسوء تمثّل في عدم توفّر المعلومات السياسية. إن الصمت السائد في كل مكان كان محزنا للغاية على الرغم من أن الكل متأكد من أن هذا الوضع لن يستمر كثيراً.

جاء الربيع ونحن نؤمن أن الدول المتحالفة والقوات في الشرق الأوسط سوف تهاجم الألمان ومن ثم ستغادر القوات البلشفية تلقائيا. إن البعض يقولون أن هذا سيستغرق وقتا أطول إلا أننا لم يساورنا الشك للحظة في النتيجة.

ولأن الأخبار لم تكن جيدة، بدأت التنبؤات المذهلة تتنقل عبر الأفواه. وما زاد الطين بلة هو أن البعض أخذ يكتبها ويحتفظ بها في بيته واللاتي عثر عليهم بعد ذلك أثناء تفتيش المنازل واستخدمت كأدلة إدانة شديدة. كان هناك نبوءة صحيحة منظومة مفضّلة تتحدث عن حرب مدتها أربع سنوات وهذا لا يعني، كما ادعى ناقلو الأخبار، أن الحرب في أوروبا (وخاصة الحرب التي بدأت في بولندا) ستستمر بالضرورة طوال هذه المدة لأن، كما تؤكد النبوءة، "الصليب القذر" والشاكوش سيتم تدميرهما و"ستمتد بولندا من البحر للبحر". أثناء الشتاء، كان هناك نبؤءة جذابة ترجع إلى القديس اندرزيج بوبولا تنص على أن الروسيين سيغادرون بولندا خلال الفترة من ٧-٩ يناير. وتم القبض على الأطفال الذين كانوا يرددون هذه النبوءة في المدارس. كما أغرقنا ويرنيهورا بإلهامات جديدة. فالصراع بين هذه النبوءات كان صعبا واستخدمهم الناس كعلاج وكعادة لم يكن من السهل على الاطلاق التخلص منها كما هو معروف.

إن الحرب بين روسيا وفنلندا أعطتنا أمل جديد وإيمان بوجود بعض الضعف المتأصل في القوات السوفيتية. ولكن فصل النهاية لهذه المرحلة والمتمثل في الاستسلام أطلق موجة عارمة من الإحباط. فالأخبار التي أتت عبر نهر سان، الذي يفصلنا عن "الجانب الألماني"، كانت مقلقة للغاية. فأعلن الراديو ترحيل أعداد متزايدة من البولنديين من بوميرانيا ومنطقة بوزنان وتسليمهم إلى الحكومة العامة وهو الإسم الذي يطلقه الألمان على ذلك الجزء من بولندا وحيث يمكن للبولنديين الإقامة فيه. ووفقا للراديو، تمت مطاردة عدد كبير من الأسر وكبار السن والنساء والأطفال والمسافرين في الجو قارص البرودة وبلا أية أمتعة وتم طردهم من من القرى والمدن البولندية. سافروا لمدة اسبوع أو أكثر ولم يتم حتى نقل جثث من لقوا حتفهم خلال الرحلة. سمعنا تلك الأخبار وشعرنا بالخوف ولكننا لم نصل لقمة الرعب حيث أنه من المستحيل أن يدرك شخص ما بشكل كامل ما لم يجرّبه بنفسه من قبل.

كان لدينا انطباع دائم بأن الغرب لا يعلمون شيئا عما يجري في بلدنا. وهذا كان له أثر سيء علينا. ولكن حدثت صدفة

أسعدتني كثيراً في هذا الوقت. لا أستطيع أن أتذكر اليوم الذي حدث فيه هذا الأمر بالتحديد وكل ما أتذكره أنني، في ليلة قارصة البرودة، كنت عائدة من إحدى اجتماعاتي المعتادة في "بيت الأساتذة" في شارع سبينسكي وكنت أهرع في شارع ديلجاوسو حينما وجدت، بالطبع، حاجزا من الثلج يفصل الرصيف عن الطريق الرئيسي. كنت أمر تحت مصباح في الشارع وكان يغمرني ضوءه عندما توقفت مزلجة في الطريق. رأيت شبحا مكسو بالفراء يقف على المزلجة وكان يلوح بيديه في محاولة للفت انتباهي. سرت ببطء، وأنا مندهش، خلال حواجز الثلج ومنها إلى الطريق الرئيسي. كان هذا الرجل هو الأستاذ "وكلاو ليدنيكي" الذي اعتذر باللغة الفرنسية عن عجزه عن ترك المزلجة لإلقاء التحية لأنه كان خائفا أن يفقد حقيبته. لقد كان مسافراً إلى "كراكوا" في هذه الليلة ومن هناك سيذهب إلى "بروكسل إذا شاء الرب" كما قالها بهدوء. لقد عبّرت له بشكل سريع عن سعادتي لذهابه إلى هناك حيث أنه أفضل من يخبر الغرب عن حقيقة أوضاعنا الداخلية. سألني عن خطتي فقلت أنني لازلت في الجامعة التي أنتمي إليها. بدأت المزلجة في التحرك فودعته قائلة "رحلة سعيدة" فأجاب عليّ من بعيد: "أتمنى لك إقامة سعيدة".

في هذه الأيام الكئيبة الرتيبة، كانت آخر ليلة في هذه السنة المأساوية زاخرة بالأحداث. فعندما عدت إلى منزلي بعد الظهر، وجدت موقفا صعبا. فأمام المنزل كان هناك صف طويل من الشاحنات -وعددهم بالضبط تسعة عشر شاحنة. كانت أحدهم تحمل الفحم الموجود عندنا في القبو. وبناء على تعليمات من جهة عليا، حضرت الميليشيا لـ "تأميم" كل الفحم من الحي الذي نسكن فيه- وهو الفحم الذي اشترته مجموعة المستأجرين قبل الحرب. ولقد أذهلني عدم وجود "أندزيا". وبعد مدة جاءت تجري باتجاهنا وهي تلهث. صرخت عند رؤيتي وهي مازالت بعيدة قائلة "لقد كنت في مكتب النائب العام. يقول أنهم لا يملكون الحق في أخذ الفحم الموجود عندنا!"

ذهبت لأبحث عن المالك القديم للبيت فوجدته جالسا في غرفته الوحيدة المتبقية خائفا من البواب الذي لن يسمح له بالخروج. وعندما رأينا أنه لم يعد لدينا شيء ليفقده - وكان الجو بالفعل قارص البرودة- أخذنا في التنقل بين شقق العقار مطرقا بقبضتيّ على كل باب وصرخت في النساء طالبة منهم الخروج. تذكّرت أنه عندما كان الخوف سائدا وقت الثورة الفرنسية كان

للنساء دور كبير في هذا فقررت أن أتخذهن قدوة. "أيها النساء، اخرجن إلى الشوارع فهذه ثورة!" وفي خلال دقائق، خرجت عشرات السيدات. وضّحت لهم أن النائب العام قال لأندزيا أن الميليشيا لا يملكون الحق في أخذ فحمنا ويجب علينا أن نحافظ عليه عن طريق التظاهر وعمل ضوضاء بأقصى حد. أبدت النساء استعداد للمشاركة فخرجت مع عدد كبير من النساء ومعنا ثلاثة أو أربعة رجال الذين كان يبدو عليهم الخوف ليس من الميليشيا ولكن منا. وبعدما أحدثنا صخب فظيع، اقتحمنا القبو الذي تجمع منه الميليشيا الفحم ويخرجونه إلى الشارع. وعندما رأونا (وعندما سمعونا) قام رجال الميليشيا المذعورين بمناشدتنا باللغة البولندية التي يفهمونها جيدا بالتزام الهدوء. وفي الوقت نفسه، كان هناك زوج من أطفال الشوارع في لاواو فقال أحدهم "يجب عليهم استدعاء بعض كتائب النساء وستتحرر بولنا على الفور!" ملأنا تعليقه الحماسي بالرغبة في القتال إلى الدرجة التي جعلت رجال الميليشيا يخرجون من القبو. وفي غضون ذلك، تجمّع حشد حولنا وخرج منه شخص روسي في زي عسكري. ألقينا أنفسنا عليه وأوضحنا له أن رجال الميليشيا يعتقدون أنهم يعيشون في بلد بلا قانون وأن هذا الفحم فحم شيوعي ملك لمستأجرينا "السوفيت". أسرع هذا البلشفي، وهو يتطلع إلى دوره في النزاع، إلى مقر الميليشيا وعندما عاد بعد عدة دقائق كان لا يوجد أي أثر للميليشيا أو شاحناتهم. وكان هناك ناقلاتان محملتان بالفحم قد قبل التظاهر. ولم يظهر أثر ما حدث إلا في نهاية شهر مارس حيث لم يكن هناك أي فحم على الإطلاق. وعلى الرغم من ذلك، عدنا إلى شققنا الدافئة في عشية العام الجديد لنسعد بأمجادنا بعد أن أنهكنا الصياح والصراخ.

لقد بدأ عام ١٩٤٠ بالنسبة لي ومعه لمحة أمل جديد واعد. ففي الثاني من يناير أقسمت يميناً عسكريا كأحد أعضاء اتحاد الكفاح المسلح. فلطالما تقت للإنضمام إلى منظمة عسكرية ولكن أجّلت القرار بسبب انتشار الجماعات السرية حولنا بكثرة كإنتشار عيش الغراب بعد المطر. وعلى الرغم من ذلك، فالكثير منها تحمل طابع حزبي عسكري معلن. كنت أريد التأكد من أن تكون الجماعة التي سأنضم لها منظمة عسكرية حقيقية تخضع لرئيس الأركان البولندي للقوات المسلحة في فرنسا. وعندما توفر كل هذا طلبت الانضمام وكوفئت على مجهوداتي أخيرا بأن أقسمت على الصليب أمام الكولونيل "ولدي سلوا زيبروسكي".

ومنذ هذا اليوم ولمدة سنتين ونصف فكل أفكاري ومشاعري مركّزة على هذا القسم. فأنا أؤمن أن من يشارك في المقاومة السرية حتى وإن لم تسند إليه مهام كبيرة سيعترف أن هذه التجربة أثرت فيه بشكل كبير بدلا من الجلوس والانتظار. كانت حركة المقاومة تمثل لنا الباعث الأول على الصبر والتحمل. فالخطر الدائم يولّد المناخ الذي يجعل البولنديين يخرجون أفضل ما عندهم. وفي الوقت نفسه، لم يقل أحدنا أن الشجاعة لا تستحق المكافأة في حد ذاتها. لقد كان كل منا يشعر بالإمتنان تجاه لحظات التمجيد الرائعة؛ وكذلك تجاه الصداقة التي يشعلها الحماس. ولكن كان هناك جانب من المؤامرة. فطبيعة الحال، أو هكذا يجب، فهو مشروع قصير الأجل. فبفضل المجهودات التمهيدية والتي تتطلب براعة وحذر، كان نجاح الحركة مضمونا والتي بدورها تثير الشجاعة. استمرت مقاومة البولنديين السرية –أو الجيش المحلي- لعدة أعوام! وفي الوقت نفسه، أخرجت أنشطتها أسوأ ما في بعض الشخصيات. كان الغرور –أحد الأخطار الكبيرة التي تفترس الانسان– دائما ما يجد أرضا خصبة حينما توجد فرصة أن يتباهى شخص ما بشيء لا يعرفه سواه. فالغرور، أو التفاخر، كان مسئولا عن العديد من مصائبنا. وإلى جانب هذا، كان هناك أخطار أخرى وتتضمن هؤلاء الذين يصدرون أحكاما طائشة، سواء كانت إيجابية أم سلبية. كانت هذه الأخطار متعددة في ظل الظروف السائدة، وخاصة بسبب غرامنا المفرط وتطرفنا في تعيين الأبطال والخونة. وفوق كل هذا فإن الشخصيات الضعيفة انفتلت وتعوّدت على الكذب المستمر والنفاق وانعدام الثقة المتبادل. كان الخطر كبيرا في الشباب الصغير الذين تعوّدوا أيضا على مهن غير منتظمة وتبديد العديد من الأسابيع فقط في الانتظار. فتخلّصوا من عبء الواجب المنتظم والمجهود المنضبط واستمرارية العمل: كل يتّبع مبادئ شخصيته بشأن اختيار طريق الحياة الذي يتجنب به أن يقع في المحظور.

ومن المؤكد أن المتآمرين من هذا النوع في المستقبل سيتحدثون كثيرا عن أنفسهم بدرجة أكبر من هؤلاء الذين قضوا سنوات يهيمون على وجوههم – بلا اسما حقيقيا ولا سقفا فوق رؤوسهم ومطاردين ليل نهار بعدو أو أكثر، بلا طعام وربما بلا ثياب ويعيشون في الغابات أو في قبو قذر ولكن يقومون بأعمال بطولية جريئة تستحق أن تسجل في ملحمة لهومر.

وفي هذه الأيام لم تكن لدي فكرة عن الأشياء من هذا النوع. فكل ما أعلمه هو أنهم قبلوني وأنه سوف تسند إليّ مهام. في البداية، لم يكن هناك أي عمل تقريبا. كنت أدوّن نشرات الأخبار في الراديو وكل عدة أيام، يتقابل الضباط في بيتي من أجل الاحاطات والمشاورات والنقاشات مع المجموعات الأخرى. ومن ضمن كل من قابلتهم، كان هناك رجل لا تفارق ذهني وقلبي صورته. لم يكن رجل عسكري محنك إلا أنه الأقوى وأكثرهم صلابة؛ كانت شجاعته الأبلغ والأحرص في نفس الوقت. إنه قس الأبرشية بكنيسة "القديسة ماري ماكدلين والأب ولد زميز سينسكي". عهدت له ذات مرة برد فعل خاص بي وكان قوي جدا لدرجة أنني لم أستطع فهمه على الاطلاق.

وحضر إحدى الاجتماعات التي كانت تعقد في شقتي رائد طويل اسمه كورنيل، وهو اسمه الكودي. ومن أول نظرة إليه وجدت ملامحه بها لمحة عنف حادة ممتزجة بخوف واضح. وجدت من الصعب حتى مجرد مصافحته. وبالرجوع بالذاكرة إلى الخلف بعد ذلك بسنوات، نجد أن الأيام الأولى لمقاومتنا كانت كافية لتبيض الرؤوس. كنا نعقد اجتماعتنا بانتظام في نفس المكان، في شقة أحد الأشخاص المعرضين للخطر بسبب الأصل العائلي – كانت الشقة بدون باب خلفي للمطبخ ودائما تحت رقابة السلطات (حقيقة أوصلتها بالطبع إلى رؤسائي). ما زاد الأمر سوءا أن الكولونيل ويلاديسلو زيبروسكي، قائد منطقتنا واسكه الكودي "زوك" أي "الخنفساء" قد استقر لمدة قصيرة في شقتي. ولكن ظلت الاجتماعات تعقد في مكانها. وعند تذكر كيف سارت الأمور، أستطيع أن أستنتج أننا كنا محظوظين للغاية. ويمكن الاكتفاء بهذا القول!

بدأنا الآن نهتم بجوانب سياسية معينة خاصة بوضعنا. فلقد منح الدستور السوفيتي جمهوريات الإتحاد السوفيتي المتعددة قدرا لا بأس من الحكم الذاتي. فموسكو، على الأقل اسميا، احتفظت لنفسها بحق إدارة الشئون الخارجية والأمور العسكرية و"تأمين الثورة". وظلت الأمور الأخرى في أيدي "الحكومات السوفيتية" المختلفة – وفي حالتنا تكون "كييف"، العاصمة الأوكرانية، في المتصرفة في تلك الأمور. فدائما وفي كل خطوة كنا نشعر أنه في حياتنا اليومية كانت كييف هي التي تحكمنا وليس موسكو؛ أننا لا نتعامل مع روسيا بل مع مشاكل القرن السابع عشر المأساوية، مع ميراث التمرد في أوكرانيا الذي قاده القوزاق هيتمان بوجدان تشيميلنسكي وفي الشرق (بعد الملك ويلادسلو

الرابع) كانت أراضينا تغمرها موجة من الهمجيين البدائيين غير المتجانسين اجتماعيا يحاربوننا تحت راية الشعارات الاجتماعية المشتقة إلى حد كبير من عقدة النقص وكراهية ثقافة البلاد الأصلية التي لا يتمي إليها الغزاة. ولأن هذه الثقافة بولندية، فيجب تدمير كل ما هو بولندي.

وبقدر ما يخص الحياة اليومية، كان يجب أن نتعامل في أكثر الأحيان مع القومية الأوكرانية البسيطة والجافة أكثر من تعاملنا مع الشيوعية أو الإمبريالية الروسية التي "لم تتدخل في الأمور التافهة".

ومن جهة أخرى فإن الإمبريالية التي تأتي من موسكو كانت تعدنا -بشكل رئيسي في الراديو وأحيانا بلغة واضحة جدا- أنه ما زال هناك وقت لتقوم روسيا بغزو كل الأراضي البولندية وأن تختفي الحدود "التي تسبب الآلام لكم الآن". فروسيا أيضا كانت تملك ثقافة عظيمة وعلوم قيمة قبل الحرب. كل هذا قد تم إغراقه في بحر من الدماء. فبعض مجالات العلوم، على النقيض من مجالات الثقافة، قد تم التكيف معها بنجاح ولكن بدون التراث لا يمكن أن يكون هناك ثقافة، وهذا ما يعلمه سكان موسكو جيداً ولهذا كانوا يقابلون المثقفين باحترام شريطة أن يكونوا على يقين ألا تتعارض نتائج أبحاث هؤلاء المثقفين أبدا ولا في أي مكان مع مفهومهم عن الصراع الطبقي وفلسفتهم المادية والمبادئ الروسية الإمبريالية.

شاهدنا في الجامعة الجدال بين "كييف" و"موسكو" بشأن اسم الجامعة وهو أمر رمزي ولكنه مهم. فلقد اشتعل الخلاف بسبب كلمة. طلبت كييف من موسكو أن توافق على الإسم التالي: "الجامعة الأوكرانية في لاواو، تكريما لإيفان فرانكو". وافقت موسكو ولكن شطبت كلمة "الأوكرانية". فموسكو، على ما يبدو، لم يكن لديها اعتراض على إهداء الجامعة لشاعر أوكراني، ولكن لا يجب نعت مركز التعليم نفسه بالجنسية. بعد ذلك ظهرت إشعارات وإعلانات مكتوب عليها "جامعة لاواو تكريما لإيفان فرانكو". وعلى الرغم من ذلك، علمنا أن الأوكرانيين لم يهزموا وأن هذا العنوان "المبتور" لا زال يؤرقهم. أرجع هذا الأمر ثانية إلى موسكو، بتأييد قوي من بعض الرفقاء ذوي السلطة. وفي النهاية، وفي يوم لطيف، ظهرت لوحتي اعلانات كبيرتان باللون القرمزي على مدخل الجامعة مدونا على إحداهما باللغة الروسية والأخرى (في مكان آخر مختلف عن الأول) باللغة

الأوكرانية العنوان التالي: انتصرت كييف، الجامعة الأوكرانية في لاواو تكريما لإيفان فرانكو..

ومع ذلك فإن كييف لديها مشاكل أخرى خاصة بها وأولها الدعم الثابت للسكان الأوكرانيين المحليين بما فيهم مثقفيها. وبعد فترة قصيرة أصبح من الواضح أن الفجوة بين شعبنا (الذين كانوا يطلقون على أنفسهم لقب "روسيني" حتى الحرب العالمية الأولى) وشعب كييف واسعة جدا. فالمسافة الطويلة من زابوريز حتى روسيا الحمراء بالإضافة إلى علاقات جوار مع الثقافة الغربية استمرت سبعمائة عام لا يمكن محوها بسهولة. فلقد جاء إلينا بيأس من عاشوا لسنوات في مناخ الحضارة البولندية – على الرغم من عداوتهم السياسية لنا– فقط ليعترفوا أن أوكرانيا التي أمسكت بزمام السلطة همجية بشكل بشع ومختلفة تماما. ملأتنا تلك الحوارات بأجرأ آمال تجاه التوافق والتفاهم المستقبلي.

وإلى جانب هذا، كنا نخدع أنفسنا بالصعوبات الداخلية السوفيتية الأخرى. فبعض ضباط الجيش الأحمر المثقفين، وخاصة روسيي المولد والنشأة، لم يخفوا سرا عن المضيفين الذي كانوا يقيمون معهم بشأن كراهيتهم الشديدة تجاه البوليس السري السوفيتي وأساليبه. ويجد الإشارة بصفة خاصة إلى لاسامية البوليس السري السوفيتي تجاه اليهود الذين كانوا يشكلون الأغلبية العددية في هذا النظام. بدا لنا أن هناك شقوقا جذرية بالفعل في الصرح الروسي.

لقد فوجئنا بالتزايد اليومي في عدد ودقة المعلومات التي تصل إلينا عن المواطنين المطلوب التحري عنهم: عن أصولهم الاجتماعية وأعمالهم. كان الاستثناء الوحيد هم اللاجئين "من الناحية الأخرى" الذين كان يجب عليهم تسجيل بياناتهم ولكن بعد ذلك تركوا على الفور ليعيشون دون مشاكل. وعلى أي حال، كانت أعدادهم تتضائل. في شهر نوفمبر وصلت روسيا وألمانيا إلى نوع من الاتفاق الذي ظل ساريا فقط لبضعة أيام، وكان ينص على السماح لعدد كبير من اللاجئين بعبور نهر سان باوندري بصفة شرعية.

كل سكان حيينا قبل الحرب –باستثناء كبار السن والأطفال– مضطرين للعمل .كان العمل هو الضمان الوحيد ليحتفظ المرء بحق الحياة والإقامة والطعام – والهواء والماء أيضا. أما من لايعمل فكان يعد من أعداء الثورة. وطبقاً للمادة ١١٨ من الدستور فإن كل مواطن من حقه أن يعمل وأن يتقاضى أجراً

يتوافق مع حجم ونوع العمل الذي يقوم به. فالمجتمع قد يوافق تماما وبدون تحفظات على تلك المبادئ الأساسية. إذا تعرض من لا يعمل للهلاك وإذا كانت الدولة وحدها هي من تمنح العمل، فإن الوحيد الذي يملك الحق في الحياة هو من تراه الدولة (أي الحزب) مناسبا لتعطيه وظيفة. بمعنى آخر إذا لم يقبله الحزب فلن يعمل وسيكون معرضا للموت. بالنسبة لنا، كانت تلك المعلومات بمثابة صدمة كبيرة.

في كل مكان وفي كل وقت كانت السلطات تتحكم في الحياة الخاصة - والتي تخصص لكل فرد خليته المشرعة. فكل احتكاك مع السلطات الرسمية -وهو وضع لا يمكن تفاديه- يستتبع نتائج أخرى. لقد كان المواطنون مطاردين باستمرار وعليهم أن يدلي برأيه في نظام الحكم والنظام الاجتماعي المتغيّر والأوضاع الجديدة؛ كان المواطن دائما مضغوطا ليقول ما إذا كان النظام السوفيتي يقدم حلولا عادلة للمشاكل الاجتماعية أم لا، هل تعجبه الاصلاحات المقدّمة أم لا -وكان هذا هو السؤال المألوف- هل يشعر بالتآلف مع الروسيين وهل أنت سعيد بوجودهم أم لا. كانت الغجابات المراوغة كثيرة وكانت كل كلمة تخضع لفحص شديد الدقة.

وفي نفس الوقت كانت مشاكل التعليم تتفاقم. أعيد فتح المدارس بسرعة بعد الغزو السوفيتي وتم وضع منهج جديد. وقد حددت ساعات عديدة لدراسة اللغة الأوكرانية وطبق هذا أيضا في الجامعات. لم تكن اللغة الروسية تدرس. أما دراسة اللغة البولندية فأصبحت مقصورة على القراءة والكتابة وأصبحت دراسة الدين محرمة تماما. وأدخل بدلاً منها أحاديث عن الجنة السوفيتية ورعاية "ستالين" الأب العزيز وأفضل تأمين اجتماعي وقسوة ملاك الأراضي البولنديين واضطهادهم للعمال. وأثارت هذه الدعايا اهتماما كبيرا لدى الآباء والأمهات إذ أن الأطفال يستجيبون لها إما بشكل سيء أو بشكل جيد حتى أصبح عدد المقبوض عليهم يتزايد يوميا.

وبقدر اهتمام الأدب والتاريخ البولندي (والتعليمات الدينية بالمثل) فلقد تعلّم الأطفال في وقت الحرب هذه المواد بلا شك بدرجة أكبر من هؤلاء في الجيل السابق لهم. تم تدريس المواد المحرمة في المنازل بشغف لم يشهد من قبل. كان تدفق تاريخ بولندا ودينها على عقولهم الصغيرة ككيان سرمدي متفقا مع التراث، تماما كتوافق سيلان الدم بشدة مع التراث.

يجب الاعتراف بأنه، بغض النظر عن منع دراسة الدين في المدارس، لم يكن هناك، على عكس ما هو متوقع، اضطهاد ديني بالمعني الحرفي للكلمة. كان الكهنة يخضعون لرقابة صارمة ولكن لم يتم القبض على رجل دين إلا لأسباب سياسية قوية. فلقد تعاملت السلطات مع الحياة الدينية بوسائل أخرى. فلقد فرضت ضرائب ضخمة على الكنائس كنوع من العوائق. لقد كانت تلك التطورات تصل إليّ من الحي الذي أسكن فيه. وفي قرية شلوبي البولندية بالقرب من كومارنو، كنا قد انتهينا للتو من بناء كنيسة جديدة كبيرة عندما اندلعت الحرب. وفي هذا الصدد، فرضت السلطات السوفيتية ضريبة كبيرة على القرية والتي جنت الكثير من المال أثناء الحرب ودفعت هذه الضريبة على الفور. ولأنهم غير سعداء بذلك، تنافس الفلاحون مع بعضهم للإسراع في إنهاء المبنى ودفعوا الأموال لتجهيز وفرش الكنيسة من الداخل.

وذات يوم كنت أمر في شارع سيكستوسكا عندما سمعت صيحة عالية خلفي "يحيا المسيح" لقد كان صوت أحد الفلاحين وكان يحمل كيسا هائلا على كتفيه. قال لي وهو يغمز بعينيه غمزة مبشرة "أراهنك أنك لا تعلمين ما بداخل هذا الكيس، سيدتي".

فأجبت "ليس لدى أدنى فكرة" "ولكن الفضول يقتلني".

أجاب بلهجة انتصار "إنه القديس أنتوني المبارك. لقد اشتريته للتو!" "إني أسألك سيدتي، إنهم أغبياء! بلهاء! فبمجرد أن مروا بجانب المبنى، صرخوا في وجهنا وقالوا علينا مجانين. مالا يعلمونه أن من لا يؤمن بوجود الرب هم المخبولين والمغفلين!"

يبدو أن بعض البلاشفة يشاركونه الرأي، فيرون أنهم يتسللون إلى الكنيسة في الصباح الباكر في حين أن الظلام ما زال سائدا. وبعد الاعتراف يذنوبهم يذهبون لتاول العشاء على طاولة المسيح. ويقال أنه في يوم ما كان أحد الكهنه يوزّع الرقائق المقدّسة عدما توقف فجأة وظهر عليه التردد عندما رأى أحد الجنود السوفيت راكعا أمامه. ويبدو أن الجندي قد فهم مشكلة الكاهن فرفع رأسه وقال لاهثا "أعطني يا الله"وعلى هذا الأساس منحه الكاهن ما يطلب.

لقد اعتاد الفلاحون زيارتي من آن لآخر في بيتي وجلب الأخبار معهم. ولكن الأمور كانت تبدو سيئة. فإن الغرض الأساسى من زياراتهم هو جمع المعلومات عن الشئون العامة. كان يريدون مني أن أخبرهم كم من الوقت سينتظرون. "متى

سنستعيد بولندا الجديدة؟". لقد قسّمت الأراضي الزراعية عليهم ولكنهم غير راضيين عن هذا التقسيم فالأجزاء المخصصة لكل فرد صغيره جدا. علاوة على ذلك، فحقيقة أنهم غير مضطرين أن يدفعوا مقابل تلك الأراضي ملأتهم بعدم الثقة في هؤلاء من يقوموا بتوزيع ما لا يمتلكون. فعلى الأقل عندما يتحدثون معي، كانوا يؤكدون أنهم يعتبرون الظروف الحالية مؤقتة. كما أنهم شعروا بالقلق عندما أدركوا أنني شخصيا لست في عجلة على الإطلاق لأشهد عودة نهائية للظروف السابقة: فهي مسئولية كبيرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فهناك استياء كبير منذ فترة وسط قطاع كبير من المجتمع تجاه ما يسمى بملاك الأراضي الرئيسيين. وعندما عادوا لقريتهم قالوا للناس في كومارنو: "هي تحيا حياة جيدة بدوننا وتتقاضى أجر كبير من الجامعة وتمتعت أخيرا بقدر من راحة البال. فهي ليست في عجلة لتعود إلينا وهذا شيء سيء". وعلى الرغم من ذلك، بدأ الناس يضطربون عندما بدأ الحديث عن عمل مزارع مجمعة.

إن موقف ملاك المزارع على وجه التحديد كان صعبا إذ أن المواقع التي تأثرت كانت هي القرى البولندية التقليدية: تشلوبي وبوكزالي وتوليجلوي ومنشآت كازيميريز العتيقة.

حتى قبل الحرب كان هناك دائما نزاعات عنيفة بين هذه القري التى يعي سكانها جنسيتهم جيدا ويتحدثون بولندية قديمة إلى حد ما ولكنها ساحرة وبها لمحة من الأوكرانية.وفي الوقت الراهن، كانت تربيتهم جيدة جدا ولكن الحياة لم تكن سهلة بالنسبة لهم. ففى يوم جاء أحد الفلاحين من قرية مجاورة وهي كاليكو كولونيا لزيارتي. كانت تلك مستعمرة جديدة ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، حينما قام والدي بتوزيع مزرعة كاليكو القديمة. كان من حصلوا على حصص الأرض فلاحون بولنديون فقط من القرى المجاورة. لم يكن هناك غرباء على الإطلاق. كان ضيفي قلقا ومكتئبا لدرجة كبيرة. وبعد حديث طويل بيننا عن الأمور العادية، قال فجأة " لقد جئت إلى هنا اليوم لأن هناك شئ جديد يجري حولنا، ولكني لا أعرف بالضبط ما هو".

"ما هو؟ تفضّل بالكلام."

"إنهم يجعلوننا نقوم بالتسجيل."

"من؟"

"نحن، كلنا، أي كل من اشتري أرض زراعية بعد الحرب الأخيرة –كل قرية كاليكو– كولونيا."

"ومن الذي يقوم بعمل هذا التسجيل؟"
"الروسيون الذين أتو إلينا. ماذا نفعل؟"
"افعلوا ما بوسعكم كي لا يقومون بعمل قوائم مفصلة."
"وماذا عن الأوكرانيين الذين يتجسسون علينا دائما ويعدّون كل روح بشرية ويفحصون كل طفل؟ نأمل من الله ألا يكون هناك ترحيل آخر إلى روسيا. فهذا ما يتحدث عنه الأوكرانيون."
"إنهم فقط يحاولون إخافتكم. فهذه الفكرة غير واردة!"
ثم رحل في صباح يوم من أيام شهر يناير، رحل باكراً حيث لا يزال الظلام حالك. وفي الحادي عشر من فبراير، وكان يوما مظلما أيضا، جاء إلى منزلي فلاح من قرية "بوكزالي" وفاجئني أنا وأندزيا وبدا تماما كالمجنون. كان يصرخ ويبكي وصاح قائلا "لقد ذهبوا!" لقد كانت درجة الحرارة ثلاثة تحت الصفر وحاولت أن أعيده إلى صوابه بمسادة مشروب دافئ الذي جرعه دفعة واحدة ثم جلس. سمعت منه كيف أن الجنود قاموا أثناء الليل وفي خلال مدة قصيرة جدا بجمع كل سكان كاليكو -كولونيا- أي كل العائلات من القرى البولندية المجاورة الذين استقروا في المزارع بعد الحرب العالمية الأولى. وبعد خروج تلك العائلات بنصف ساعة، والصباح لم يأت بعد، تحرك الأوكرانيون ودخلوا تلك المنازل. وتم السماح للمرحّلين البولنديين بأخذ كل ما أمكنهم أن يختطفوه في الدقيقة الأخيرة وهو عبارة عن قليل من الطعام والوسائد أو الأغطية. وفقا لتقرير زائرنا، لم يكن لديهم أكثر من ساعة ليرحلوا.
"إلى أين أخذوهم؟"
"بالقطار"
"القطار. إلى أين؟"
"القطار لازال واقفا في المحطة المحلية، ولكن الجنود لايسمحون لأحد بالاقتراب منه."
وخلال تبادلنا للمعلومات، كان تفكيري منحصرا في أنه من غير الممكن أن يكونوا يقومون فقط بعزل كاليكو - كولونيا. هناك شيء أسوأ في الطريق.
سألته "هل أخذوا أحد من قرية "بوكزالي؟"
"كلا. ولم يأخذوا أحدا منا في قرية تشلوبي."
غادر منزلي بعد ساعة ووعدني بأن يأتي عندما يكون هناك أي جديد.
وفي الظهيرة، جاء زائر آخر، لم أكن أعرفه شخصيا، ولكنه كان متهيجا مضطربا كالرجل الأول، على الرغم من أن هذا الاضطراب

قد أخذ شكلا آخر. هذه المرة لم يكن فلاحا ولكنه مهندس من لاواو. لم يصرخ ولم يبك، ولكن تحدث بسرعة جدا قائلا عبارات مبتورة وكان من الصعب ملاحقته في الكلام. وبالإضافة إلى ذلك، قطع حديثه المتكرر بطلب صريح بأن أساعده. وبعد حين تذكرت أنه صهر حارس غابة الذي اختطف وزوجته وطفلهما ذو الشهرين من غابات كومارنو أثناء الليل. قال المهندس أن القطار لازال يقف في محطة كومارنو، وأن حارس الغابة تمكّن من تسليم الرضيع لوالدة زوجته التي استطاعت الاقتراب من الحافلة ولكن رآها جندي روسي وجعل الجدة تعيد الرضيع مرة أخرى لوالدته. ومن نفس المهندس، علمت أنه يوجد قطارات أخرى واقفة في المحطات القليلة بين "لاواو" و"كومرانو" ويحرسها الجنود الذين يمكن سماع أصواتهم وهو يغنون.

وفي الظهيرة جاء زائر ثالث - هذه المرة فلاح عجوز من قرية تشلوبي. لم يقل شئ تقريبا ولكن جلس في المطبخ مقبضا يديه. وبعد مدة قصيرة عندما شعر بالدفء أخبرني -وهو يتمعن في كل كلمة- أنه يعلم بالضبط من هم الأوكرانيين الذين قاموا بعمل قوائم بأسماء من لقبوهم بـ "المستعمرين" للروسيين وأنه لن يترك أيا منهم ليهرب وهو على قيد الحياة بمجرد تحرر بولندا. وبعد إلقاء هذا التصريح، خرج دون أن يضيف حتى كلمة وداع. وحينها أدركت القوة الجامحة وراء الرغبة في الانتقام وأننا سنكون ساذجين حالمين لو تصورنا أنه، بعد هذا الاصلاح الرهيب، سيكون من الممكن للمجتمعين أن يتعايشا سويا أو حتى يتشاركا في رصيف.

وفي اليوم التالي، الثاني عشر من فبراير، اجتاح الذعر مدينة لاواو. ظهر العديد والعديد من القطارات في كل محطات لاواو. وكانت هناك صفوف طويلة من عربات الماشية تنتظر على المسارات. كان الناس يغنون ترانيما وكان أكثرها ترديدا هو "جورزكي زال" حيث كان هذا هو موسم الصوم الكبير. كان الجنود يحرسون القطارات. وفي الوقت نفسه، كان السكان المحليون وآخرون من المناطق المحيطة يتدفقون على المحطات. إذا كانت العربة يحرسها كيرجهيز أو كالموك، فلم يكن بالوسع فعل أى شيء. وإذا كان الجندي روسي، وكان ذلك في أكثر الأحيان، فكان لا يهتم بالحراسة بل أحيانا يأخذ على عاتقه توزيع الطعام والماء والحليب أو الدواء، ويدخله عن طريق النافذة الصغيرة ذات القضبان الموجودة عاليا.

كان الشتاء مرعبا. كانت أيام الشتاء قارصة البرودة المتتالية مليئة باليأس مثل تتابع أيام الجو اللطيف في سبتمبر ١٩٣٩. تزداد القطارات تزداد واحد تلو الأخر ولا يتم فتح الأبواب. كان يسمح لشاغلي القطار بالتخلص فقط من الجثث – وفي بعض الأحيان لا يتم السماح حتى بذلك. لقد كانت الجثث تحمل خارج القطار ليلاً وكان من بينها كثير من الأطفال الذين ماتوا من البرد. وعلى النقيض مما حدث في كاليكو، فلم يتمكن الكثير من المرحّلين حتى من أن يأخذوا معهم وسادة أو سجادة. في بعض القرى، إذا عين أوكراني سوفيتي محلي لذلك، فيحرموا من أخذ أي شيء على الإطلاق. كانت القطارات تأتي من مناطق تقع غرب وشمال لاواو، وكانت أخبار ما يحدث انتشرت عبر المقاطعات والأحياء إلى جميع أنحاء القطاع الروسي المحتل. تم ترحيل البولنديين من القرى المجاورة الذين قاموا بشراء الأراضي بعد عام ١٩١٨ على أنهم عناصر أجنبية زرعتهم الحكومة البولندية في ذلك الحين في تلك المنطقة. وبعيدا عن تلك العائلات، قاموا بطرد كل حراس الغابات المهرة فقط من المنطقة. وعلى جانبي كل محطات السكك الحديدية بلاواو، كانت هناك صفوف من عربات الماشية، حوالي ثمانون شخصا في كل عربة. مات أشخاص وولد أشخاص. وظل الجو باردا. وأخيراً بدأت القطارات الأولى في الحركة في إتجاه الشرق. ودائما، وبلا استثناء، أثناء لحظة الرحيل الموحشة الأخيرة، كان يتم ترديد نفس الأغنية أو الأغنيتين: "روتا" و"بوز، كوز بولسك".

وفي هذه الأيام (لا أتذكر التاريخ بالتحديد) استقبلت واحدا من أهم من زارني. إن الزائر هذه المرة هو الأب "تيدا يوزفيد روايز" الرجل الذي يأتي من وقت لآخر ليتحدث عن المساعدات. وعندما فتحت له الباب أدهشتني تعبيرات وجهه: السلام النفسي والمرح، كان وجهه مشرقا وكأنه يتمتع بسعادة داخلية على العكس من المعاناه التى نحياها.

"لقد جئت لأودعك."

"إلى أين ستذهب يا أبي؟"

"لا أعلم."

جلس ثم أخرج زجاجة صغيرة من الكريستال من جيبه.

قال مبتسما "شئ بسيط من منزلى." ثم أخرج من جيبه الآخر كتيب صغير مطبوعا بلغة العامة. الآن فهمت .

أعلم أن بعض رجال الدين يتسللون في عربات الماشية المتجهة إلى الشرق. وعلى الرغم من كل ما يقوم به الحرس

ليمنعونهم من العبور إلا أن بعضهم قد استطاع العبور بالفعل. لقد أخبرني ضيفي أن أباه الروحي قد أعطاه الآذن بالرحيل وأنه يأمل أن يتسلل إلى واحدة من عربات الماشية في خلال اليومين القادمين وطلب مني الدعاء له بالنجاح. ثم ودّعني مبتسما ورحل. كانت عيناه تلمعان. وعندما أغلقت الباب خلفه شعرت أن قدرا من بهائه لا زال موجودا. وبعد ساعات قليلة دق الباب واذا بعامل لا أعرفه يقف بالخارج. لم يلق عليّ التحية ولم يدخل. كل ما قاله "الأب فيدرويز رحل. نجح في العبور." ثم مشى بعيدا وما قلت له إلا "شكرا!".

هذه الأحداث كانت تقع في شرق بولندا خلال الفترة من ١٠ الى ١٣ فبراير . وبعد عشرة أيام أو أكثر وصلت معلومات للقيادة المحلية -فرع المقاومة الذي أنتمي إليه- أن حوالي مليون فلاح بولندي قد تم ترحيلهم. وفي وقت لاحق وجدنا هذا الرقم دقيقا إلى حد ما.

كل ما نملك أن نفعله هو الصمود، ولكنه أصبح شيئا صعبا للغاية. فالربيع -الذي طال الاشتياق إليه- كان يقترب سريعا، ولكن الأمور السياسية لم تتغير. كنا نواسي بعضنا البعض بأن نقول أن الراديو لا يستطيع نقل ما يحدث حقا في وقت كانت تعد فيه التجهيزات للقيام بهجوم عام. كان البرد يزداد قسوة وكان عدد المقبوض عليهم يتزايد. وبشكل معتاد، كان هناك تقارير عن طرق التعذيب المستخدمة للإجبار على الإعتراف والتي (بعيدا عن التعدي بالضرب لدرجة إسالة الدماء، وهكذا دواليك) كانت في بعض الأحيان على غرار الممارسات الشرقية كوضع المسامير تحت أظافر اليد. وأحياناً كان ممن يعذبون المسجونين يهود. فقد كان هناك عدد كبير من اليهود يعملون لحساب البوليس السري السوفيتي مع الأعضاء الشيوعيين لطبقة العمال اليهود والتي ساندت البلاشفة منذ البداية. وعلى الرغم من ذلك، يمكنني بسرور أن أؤكد أن هناك يهودا من نوع آخر. فلقد تربيت على كراهية أعداء السامية والتي ظلت متأصلة في سلوكي.

وفي يوم جاء إليَّ رجل غريب واعتذر عن عدم ذكر اسمه لأنه كان يهوديا وكان هذا هو سبب زيارته لي. توسّل إليّ أن أخفي كل ما هو قيّم في الشقة وإلا سأخسر كل شيء. فقال إنهم سيتعاملون مع كل البولنديين وبصفة خاصة، بالطبع، مع "أعداء الثورة السابقين". أنهى حديثه قائلا أنه جاء كيهودي لأنه، على الرغم من أنه لا يعرفني شخصيا، ولكنه شعر أنه يجب عليه أن

يفعل هذا تجاه من دافع في الجامعة عن التعدي على اليهود بالضرب. ثم ذهب وتلاه إثنين. قالا نفس الكلام. حتى أن أحدهما عرض عليَّ مال.

واصل المجتمع البولندي انتظاره وكان هناك وقت فراغ كبير وكان يمر علينا ثقيلا. لم يكن هناك ما يمكن فعله في الجامعة. أصبحت المحاضرات فقيرة لدرجة لا تستحق الاعداد لها وكان الأبحاث غير واردة كما كانت عقلية الطلاب لم تكن على المستوى المرغوب. كان غياب الابتكار الهائل يصيب، ليس فقط الجامعة، ولكن لاواو بأكملها. كان الكل -ليس فقط البولنديين- ولكن الأوكرانيون أيضا بالإضافة إلى البلاشفة اللاجئين معينين نظريا ولكن أحدا منهم لا يعمل في الحقيقة. كان المناخ خاملا بالإضافة إلى وجود لامبالاة بلا حدود تجاه العمل الذي أصبح الكل لا يؤمنون به. وفي هذا الوقت بدأت تدريس اللغة الإنجليزية لأحد أساتذتي. كان تلميذي ماهرا فبعد شهرين فقط استطعنا القراءة ووقع في يدي كتابا أعتقد أنه مناسب: "تاريخ الحرية" للورد أكتون. شككت في أن يكون هذا الكتاب قد تمت قرائته من قبل بمثل هذه الإثارة والفهم العميقين عن وقتنا الحالي حيث فقدنا أثمن ما نمتلك -موضوع الكتاب الجليل. كانت قراءة هذا الكتاب بمثابة مظاهرة- نوع الاعتراض الوحيد المتاح أمامنا، مظاهرة الروح ضد كل ما يجري حولنا.

وفي نفس الوقت وصلتني أخبار كثيرة من "كومارنو". فلقد تم القبض على السيد "كورال ديدك" المسئول عن الغابات وهو أحد الأصدقاء المقربين لعائلتي لأكثر من ثلاثين عاما. لقد كان عليه أن يدفع حياته ثمنا لتعلقه بعمله حيث أنه رفض ترك كومارنو على الرغم من توسلاتي المخلصة. لم يضع الروسيون الوقت وقاموا بترحيله إلى مناطق مقفرة من روسيا ولقى مصرعه في مكان ما. وتم ترحيل عائلته إلى كازخستان بعد القبض عليه.

لقد سمعت أيضاً أن البوليس السري السوفيتي في "لاواو" قد أرسل طلبا للسلطات المحلية في "كومارنو" بشأن علاقاتي قبل الحرب مع سكان المنطقة. منحتني لجنة المجلس القومية شهادة تقدير وأرسلت نسخة منها إلى الجامعة. تشاءمت من ذلك إلا أننا بعد فترة وجيزة انشغلنا بأمور أكثر أهمية. وجاء عيد القيامة وانقضى وجاءت معه فترة رثاء صعبة في الكنيسة وانتهت بترنيمة البعث المجيدة "ويزولي نام ديزن دزيس ناستال" (جاءنا اليوم يوما سعيدا). انتهت الإجازة في نهاية مارس. وفي العاشر من إبريل تعرضت أوروبا لمصيبة كبيرة زلزلت أرجاءها. فقد احتل

هتلر الدانمارك وهاجم النرويج. لقد استيقظنا على كابوس. وفي النهاية بدا لنا وكأن –في الوقت الذي تحررت فيه سلاسل الجبال من قيودها الشتوية الثلجية وبدأت ثانية في الاهتزاز– هذا الطوفان من الأحداث يعد بالتحرر من القيود الكريهة التي تقيدنا. جلسنا كالأصنام بجانب الراديو ولا نفكر في أي شيء آخر. فبدت كل الأمور الشخصية غير السارة، حتى المخاطر، غير مهمة. على أي حال اعتقدنا أن "الأمر لا يمكن أن يستمر طويلاً الآن!"

لم يكن ليقلقني أن أعلم من "أندزيا" أنه في اليومين الماضيين جاء ضابط روسي إلى منزلي ليسأل عليّ. قالت أندزيا أنه أنه كان يرتدي قبعة زرقاء مدببة. وفي النهاية وجدني في المنزل. كان روسيا حقا، ولكنه لم يكن غليظا – بل كان مهذبا في الحقيقة، طويل القامة وأشقر الشعر. قدّم نفسه على أنه الرائد "بيدجاجيف". جلس وأخبرني بهدوء وأدب أنه سينتقل ليعيش في منزلي. فأخبرته أنني لدي بالفعل مستأجرين من الباطن ولأنني أعمل في الجامعة فشقتي معفية من المصادرة.

أشرت إلى اللافتة المعلّقة على الباب الأمامي لهذا الغرض والتي لازالت في مكانها منذ هزيمة باوليسيزنكو. استمع الرائد لكل هذا وبعدها قال بهدوء "أنت لم تعد في الجامعة." ثم ناولني خطابا من محفظته. كان خطابا صغيرا جدا وموجها إلى بيدجاجيف من الجامعة يخبره بأنه تم عزلي عن منصبي في الجامعة. فأخبرته أنه إلى أن يتم إخطاري رسمياً بهذا الأمر فأنا لاأزال أعمل في الجامعة. والأكثر من ذلك هو أنني كنت أحتاج إلى الذهاب مرة واحدة إلى الجامعة حيث يجب أن ألقي محاضرة. فأجاب الرائد بشكل مهذب أنه يتفهم ذلك جيدا وأنني سأستلم تأكيد رسمياً.

ذهبت إلى الجامعة. لم أجد أحدا يعلم بالأمر في السكرتارية. لذا استمرت محاضراتي كما هي. وفي مدخل القاعة، اعترضت إمرأة لا أعرفها طريقي وطلبت أن تحدثني قليلا على انفراد. ذهبنا إلى ممر جانبي وهناك أخبرتني أنه تم اكتشاف تسرب للمعلومات من الفرع المحلي لجمعية الكفاح المسلح وأنه من المحتمل أن يكون هناك خيانة وأنه تم إلقاء القبض على فردين في القسم الخاص بي. أرسل هذه السيدة مهندس يقطن في المبنى الذي به شقتي لتحذرني. وهنا تذكرت أنني وجدت إسمها على باب شقة الدور الأرضي. وقالت لي أنه يجب أن أرحل دون حتى أن أعود إلى شقتي. صدقتها ولكن لم يكن مسموحا لي أن أتحدث معها إلا إذا تم الإذن لي بذلك. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أعلم أن

هذا المهندس، على الرغم من أنه جدير تماما بالثقة، إلا أنه يميل إلى الإفراط في الكلام ولا أعتقد أن ما أخبرتني به دقيقا بدرجة كافية. أخبرتها أنني لا أعلم شيئا عن هذا الأمر ويجب أن أكمل محاضراتي. دخلت إلى القاعة وبدأت الحديث عن منحوتات دوناتيلو. وفي نفس اليوم سلمني مندوب خاص ما يعرف بـ "جواز سفر من الفئة الأولى" بصفة مدرس في الجامعة ومواطنة سوفيتية ممن لديهم ثقلهم لدى الحكومة. أعلم أن هذا الجواز، الذي نادرا ما يمنح لأحد، يعطي حماية "مطلقة" من الترحيل وأن هذه هي الطريقة السوفيتية لبيان أن درجتي الأكاديمية لها أهميه عندهم أكثر من أصولي الاجتماعية المخزية .

وفي صباح اليوم التالي، العاشر من إبريل، استقبلت خطاباً مماثلاً للذي رأيته مع الضابط بيدجاجيف يعفني من عملي بالجامعة وموجها إلى الجامعة نفسها. ذهب الأستاذ "بودلاشا" رئيس القسم فيما بعد ليقابل مارسزنكو "رئيس الجامعة" والذي أخبره أن من واجبه ألا يشغل نفسه بالأساتذة ولكن يجب علية تعليم مدرسي المستقبل من أبناء العاملين.

لقد نصحني الأصدقاء ألا أمكث في البيت لبضعة أيام لأنني، بعد فقداني لوظيفتي، أصبحت "مستأجرة" عادية وما هو أسوأ أن رائدا في البوليس السري السوفيتي يراقب شقتي. ولكنني لم أبالي بهذه النصيحة ولكني أدركت أن التبجح في مثل هذه الحالة غير مقبول. لذا قضيت الليلة في بيت "ويسا هور دسكا" على الأريكة. لقد ظللنا نتحدث لساعات ونحن قلقون من العدد الهائل للمقبوض عليهم في الأيام السابقة. ففي حالات كثيرة، تم القبض على رب الأسرة خاصة الأطباء وملاك الأراضى. علمنا أن بعضا منهم لازالو في سجن بريجيدكي في "لاواو".

لقد كان اليوم التالي، الثاني عشر من إبريل، يوماً عادياً. في الظهيرة، أعطيت درس اللغة الإنجليزية المعتاد في مكتبة منزلي وبعدها غادرت المنزل. وبعد العشاء في شقة صديقتي، أخذتي أحد معارفي إلى المكان الذي سأقضي فيه ليلتي. وحوالي الساعة العاشرة، مررت من أمام منزلي ثم ذهبت لأنام على الأريكة في أي مكان آخر. لم ننعم بنوم هادئ. لقد كانت الطرقات مزدحمة بالسيارات وكانت سيارات الأجرة تتدفق طوال الليل. وعند الفجر أيقظنا البواب قائلا أنه بين عشية وضحاها، تم ترحيل نصف مدينة "لاواو". ذهبنا إلى النافذة. فعلى ضوء الفجر الخافت رأيت سيارات نقل كبيرة مليئة بالسكان تمر من أمامنا. لقد رأيت المسافرين في ثياب قيمة فأتذكر النساء وهن يرتدين

أحجبة الحداد ويجلسن في العربات كالتماثيل يحرسهن ميليشيات وجنود الجيش الأحمر الذين يقفون على الطرق. وبينما نحن نشاهد ذلك، جاء أحد معارفي الذي أحضرني إلى هنا في الليلة الماضية بتعبير غريب على وجهه وأعطاني حزمة صغيرة بصمت. فتحتها ووجدت بها بعض مستلزمات التزين والملابس الداخلية الخاصة بي. "أرسلت لك أندزيا هذه الأشياء وتقول إتك لن تستطعين العودة إلى الشقة فهم ينتظروك بالداخل هناك" يبدو أنهم وصلوا في المساء وكانوا بالفعل في منزلي عندما مررنا من أمام البيت بعد العشاء. حضر أكثرهم خلال الليل مدججون بالسلاح. فخلاصة الأمر أنه كان هناك ثمانية منهم في المنزل. لقد حاولوا إخافة انديز لتدلهم على مكاني باستخدام المدافع الرشاشة ولكنها أصرت بعناد على أنها لا تعلم. خرجوا في النهاية عند الفجر ولكنهم ظلوا يراقبون المنزل من الشارع. وفي الوقت نفسه، خرجت أندزيا ولكن بدلا من أن تأتي إليَّ سارت في الطريق المعاكس لتضلل الحراس. ثم ركضت إلى أصدقائي وطلبت منهم أن يحذروني.

وفي غضون ذلك وصلتنا أنباء من أنحاء متعددة من المدينة. وفي الظهيرة، علمنا أن من تم القبض عليهم أودعوا الآن في القطارات المألوفة التي تنتظر في محطات المدينة. وهذه المرة كان من تم القبض عليهم هم فقط سكان مدينة "لاواو": عائلات الضباط والضباط المتقاعدون والأطباء وملاك الأراضي. كانت تلك المجموعات الأربعة قد تم القضاء عليها آنذاك. علاوة على ذلك، من ضمن المجموعات الأخرى كانت العائلات التي على تم القبض على عائلها قبل ذلك بأيام. أما "الهاربين" –هؤلاء اللاجئين من الغرب، الجزء الألماني المحتل من بولندا– فلم يتم القبض على أحد. وبالنسبة لملاك الأراضي، فأول من تم القبض عليهم كانوا ممن تسلّم السوفيت شهادات تقدير عنهم من سكان ممتلكاتهم السابقة. فملاك الأراضي، الذين ليسوا فقط مصاصي دماء ويدّعوا الضمير الاجتماعي، يمكنهم أن يكذبوا على الدعاية وبالتالي يعتبروا عدوا لدودا للثورة.

مرة أخرى، هرع سكان المدينة والضواحي إلى محطات السكك الحديدية؛ ومرة أخرى، دفعوا كل ما استطاعوا دفعه إلى داخل عربات المرحّلين؛ ومرة أخرى، تم تهريب الكهنة إلى خارج البلاد.

لقد تم بيع ممتلكات المرحّلين فورا وكان من المفترض أن ترسل الأموال إلى الملاك السابقين لتلك الممتلكات. أعرف بعض

الحالات التي حدث فيها ذلك بالفعل. فمن اليوم الأول، تم الإستيلاء على منزلي من قبل الرائد "بيدجاجيف" الذي حرق بعضا من أثاث منزلي لأن أحداً لم يرغب في شرائه كما سرق البواب بعضا منه. ضاعت مذكراتي، وأهم من كل شيء، محتويات مكتبتي المرجعية (ولن أتحدث عن الأشياء الأخرى تماما كالتذكارات الشخصية للموتى). أعلم أن الآلاف (ربما الملايين) من الناس في أوروبا قد مروا بنفس التجربة في السنوات الأخيرة، إلا أنه لا عزاء إذ أنه يزيد الأمور سوءا. فكلما زاد عدد الأشخاص ممن سلب منهم ماضيهم، كلما زاد خطر انحدار التراث والاستمرارية الروحية – أي الثقافة.

وفي هذا الوقت كان عليَّ أن أختبئ إذ لا يمكنني أن أظل مع أصدقائي حيث أنني مطلوب القبض عليَّ. لقد أخذني المعارف، والذين لا تحكمهم واجبات الصداقة تجاهي، لبيوتهم وقضيت ثلاثة أسابيع في حزن لا يوصف. فمعرفتي بأنني دائما ما أعرّض القائمين على حمايتي للخطر كان يمثل عبئا ثقيلا عليّ. لقد كنت أتوقع قدوم فرد من أفراد البوليس السري السوفيتي مع كل دقة باب. كنت أرتعش من أجل حماية مضيفيني ولكني لا أعلم ماذا أفعل. فلم يكن أمامي أي فرصة للتسلل إلى المنطقة الألمانية المحتلة فمن المستحيل أن أعمل تحت قيادة "هتلر" ومن ناحية أخرى، فكانت مهمتي هنا هو أن أنتظر قدوم "لحظة البعث" التي تسمح لي بعبور الحدود بأمان، أولا إلى إيطاليا وبعد ذلك إلى الحكومة البولندية في فرنسا ودول الأنجلوساكسون.

لقد ظننت في هذا الوقت أن الغرب لا يعلم فعلا ما الذي يحدث في بولندا. فهو يفتقر إلى المعلومات حيث أن الراديو لا ينقل سوى أخبار الدمار الذي يسببه الإحتلال الألماني!

ولأنني موضوعية، كان عبور الحدود الممتدة عبر جبال الكاربات إلى المجر أو رومانيا شيئا مستحيلا في ذلك الوقت فاختزلت المجموعات الأخيرة إلى رجل واحد وأصبح هناك دوريات صارمة على الحدود الآن فلم يحاول الحراس المخاطرة بهذا الأمر. واليوم، وأنا أكتب هذه الكلمات، شكرت الرب الذي جعل هذه الخطط غير المعقولة مستحيلة مما سمح لي أن أعمل لمدة عامين آخرين في بولندا.وكل هذا يعني أنه عليَّ أن أنتظر وهذا أسوأ ما في الأمر. حاولت قدر الإمكان أن أحسن استغلال الوقت عن طريق التجهيز للعمل خارج البلاد. وفي الوقت الراهن، كان المهم هو الخطوة الأولى: روما.

لقد اتصلت بالأب "ولدميراز سينسيكي" وطلبت منه اللقاء قبل أن أرحل؛ فلأنني قررت الذهاب إلى روما فإني أرغب في أخذ أية رسائل معي وأود الحصول على بعض النصائح بشأن ما سوف أقوله للفاتيكان. وفي يوم أرسل لي الأب "سينسيكي" أنه سيكون في مكتب البريد الرئيسي في الخامسة مساءا في لاواو ومن هناك ستأخذه ويسيا هورودتيسكا ليقابلني. لقد جهزت بعض الأسئلة ليجيب عليَّ بشأنها وجلست أنتظر بفروغ الصبرالرجل الذي أثق به تماما. لقد كنت على ثقة أن محادثة الوداع هذه، التي تعني الكثير بالنسبة لي لأسباب شخصية، ستمدني بمبادي توجيهية مهمة للعمل في مجال المعلومات والذي كنت أعد نفسي له. أصبحت الساعة السادسة ولم يأت أحد بعد. وفي حوالي الساعة السابعة جاءت ويسيا أخيرا – وحدها. نظرت إليها نظرة واحدة وقلت: "تم القبض على سينسكي."

"نعم."

كانت الأنباء التي تحملها هي أن الكاهن قد اختطف من بيت الكهنة في عصر ذلك اليوم وهو يرتدي ثوب الكهنة، تماما كما كان يتمنى. لقد قال لي أكثر من مرة: "من المحتمل أن يأتوا إلي في يوم من الأيام، لهذا دعيهم يأخذونني في ثياب القديس. لقد كان من الضروري في هذا الوقت أن يرتدي القسيسين ثياب عادية حتى لا يتم القبض عليهم. ولكن ليس لدي رغبة في الرحيل إلى مجاهل روسيا متخفيا."

إن القبض عليه قد سبب شعورا بالإكتئاب لكل سكان "لاواو" إذ أن صدمة الترحيلات الأخيرة كانت قد انقضت. لقد قضوا شهور ينامون وهم واضعين الطعام وملابس التزلج في أسرتهم. كان منهم من شعر أنه يريد أن يتم ترحيله فهو عاجزون عن الصبر أكثر من ذلك. على الرغم من كل شئ، كنت مصممة على الحصول على الإرشاد عن طريق محاولة مقابلة مع البابا. أرسلت طلب لمقابلة المطران تواردوسكي قبل رحيلي إلى روما. واستجابة لطلبي، حدد لي يوما لأقابله خلال قداس السابعة صباحا بالدير حيث يقطن بعد طرده ن قصره. بعد القداس، كان عليّ أن أتبعه بعد خروجه من الدير إلى غرفته. ولهذا خرجت في ثياب مختلفة تماما عن ملابسي العادية -لقد وضعت وشاحا على رقبتي وارتديت نظارة على أنفي وأمسكت بزجاجة فودكا في سلة صغيرة تحت ذراعي- وذهبت إلى الدير. حضرت القداس وتبعته عندما خرج. طلب مني أن أنتظر لبضع دقائق في ردهة صغيرة ولهذا كان لدى وقت لإزالة كل هذه الأشياء الغريبة قبل

مقابلته. وبمجرد أن جلسنا، أخبرته أنني ذاهبة إلى روما ولدي مقابلة مع البابا هناك. فماذا تنصحني أن أقول له؟

لقد سمعني بإمعان وعندما انتهيت تبسم لي وقال: "أخبري الأب العظيم أن كل شئ هنا على مايرام". أخبريه أن رجال الدين كلهم -وأنا أقصد هذا حرفيا إذ أن هناك بعض العناصر القليلة الضعيفة سقطت في البداية وجاء ارتدادهم لمصلحتنات- أخبريه لأن كل رجال الدين في وضع جيد جدا الآن. أخبريه أن عددا من الكهنة قد نجحوا في السفر إلى مجاهل روسيا مع من تم ترحيلهم وأن الآخرون -ربما كلهم- ينتظرون ترحيلهم أو أيا كان ما ينتظرنا في سبيل عدم انتشار الدعاية التي كانت تروج في المدارس ضد الدين؛ فالناس وأولهم النخبة المثقفة التي كانت دائما بعيدة يهرعون إلينا الآن. فعدد كبير من الناس يأتون لتناول العشاء المقدّس بدليل الزيادة غير المعتادة في الطلب على الاستضافة. أخبري الأب العظيم أنني وكل رجال الدين المؤمنين في الأبرشية يرسلون إليه عاطفتهم غير المحدودة، ومن أجل الكرسي المندوبي، فنحن على أتم استعداد للتضحية بآخر قطرة من دمائنا إذا دعت الحاجة لذلك. ولكن لا تنسي أن تؤكدي له أننا جميعا بخير."

نظرت واستمعت إليه. كنت قد سمعت أن هذا الكاهن العجوز رجلا متواضعا وغير حاد الشخصية! وفي هذه اللحظة فهمت كيف يمكن لقوة الفكرة أن ترتقي عاليا بمحتواها فوق كل معاناة وقلق ومخاوف البشر -بل قد ترتقي فوق سلسلة من الأعمال البطولية- إلى فلك من السعادة الغامرة حيث ما يكمن هناك فقط ما هو حقيقي وجوهري. وعندما انتهى من حديثه، بارك الرحلة التي سوف أقوم بها وأمكنني رؤية عمق عاطفته حين يودع من قد يكون حلقة الاتصال الأخيرة بينه وبين روما. وبنبرة مختلفة مرحة قال لي: "والآن بدلي ثيابك هنا بجانبي!" لقد أعجبه وشاحي ولكن حينما رأى زجاجة الفودكا بارزة من السلة أشرق وجهه كالأطفال. ثم خرجت وأنا أشعر بضآلة شديدة.

لقد جاء الربيع الذي انتظرناه طويلاً ولكن الحرية لم تأتي معه بل كان هناك الأخبار المروعة بأن الحلفاء كانوا يقومون بإخلاء النرويج. فلم ينته الأمر بعد! كم من الوقت يمكن أن يستمر هذا الوضع؟ في هذا الوقت كان عليَّ أن أبدل مكان إقامتي مرة أخرى والانتقال مع بعض المعارف الآخرين. فلم يعد ممكناً أن أبقي في الشقة السابقة حيث أن النافذة الوحيدة في

غرفتي تطل على ساحة صغيرة وكان هناك رجل من رجال الميليشيا يقطن في المقابل. فعلى الرغم من أن مصدر التهوية الوحيد الذي أملكه هو هن طريق أبواب المدفأة الصغيرة إلا أن رجل الميليشيا بدأ في الاهتمام بي. كانت نوافذ غرفتي الجديدة تطل على قطعة أرض مقفرة حيث يوجد شجرة بتولا كبيرة وقديمة والتي كانت فروعها قد بدأت في ذلك الوقت مغطاة بأوراق خضراء قليلة. لم يكن لدي أدنى شك -وقلت ذلك لكل الناس- أنني سأعود لأحرر لاوو قبل أن تكسو الأوراق الخضراء فروع هذه الشجرة. بالنسبة لي، كان التفكير في الرحيل صعبا للغاية. لكن هذه المرة، كان عليَّ أن أرحل. كان الطريق عبر الجبال لا يزال مستحيلا إلا أننا علمنا أن العبور إلى المجر عن طريق زاكوبان كان أسهل بكثير. لذا كنت مضطرا لتدبر شيء لم أحلم به مطلقا وهو "العبور إلى هتلر" ثم الذهاب إلى المجر. في ذلك الوقت، كان هناك قطار ثاني معدا لعودة دفعة من "الهاربين"، وهم من سافروا إلى الشرق بعد هجوم سبتمبر "ليكونوا آمنين". قام سوفيتي ولجنة ألمانية بعمل هذه الترتيبات. ساعدني الأصدقاء، وبدون أدنى مسئولية عليّ، اقترح أحد المعارف شيئا شعرت أنني مضطرا لقبوله بقلب مثقل. فلم يكن هناك حلا آخر. فكان معه كل أوراقه وكان مسافرا لكاركوا وعرض عليّ أن أرافقه. في البداية، كنت سأسافر فقط على أنني زوجة هذا الرجل وبالتالي يجب عليّ أن أوقع على عقد زواج روسي بيني وبينه - أو ما يسمى "خمسة روبل" (العملة الرسمية). وعندما اتضح بعد ذلك أنه يمكنني السفر معه على أنني شقيقته، تنفسنا الصعداء. وتم تزييف أوراقا خاصة بي تحمل هذه الصفة. لقد نجح أستاذ كيمياء في الجامعة، الذي يعمل ليلا في القسم الخاص به، في محو اسمي من بطاقة هويتي الخضراء دون تلاشي اللون وكتب في خانة اللقب "أخي".

كانت لحظة الفراق والرحيل تقترب. على الرغم من أنني أعلم أنني أمثل عبء ثقيل على كل من حولي، شعرت أنني هاربة. وبعيدا عن هذا، كنت مقيدة بسبب معرفتي أنني أمثل خطرا على رجل لا أعرفه جيداً والذي يطارده السوفيت بالفعل. لقد تركت أقرب أصدقائي وخادمتي المخلصة أندزيا. ولمعلومات كل فرد، فهؤلاء الناس قد يتجهو لقلب آسيا أو إلى أي مكان قد تحرفهم إليه الهمجية. فأنا حقا أتجه إلى المجهول ولكن على الأقل أتجه إلى الغرب، ومهما أصبحت، فإنني أهرب. كان يمكن أن يكون الفراق أقل ألما ولكنني كنت أعرف في ذلك الوقت أنني

مطاردة ليس بسبب أصولي العائلية ولكن بسبب "الخيانة" في جمعية الكفاح المسلح، فكان "كورنيل" الرائد طويل القامة الذي طالما وجدته بغيضا هو من خاننا. واليوم، وفي لحظة كتابتي لهذه الكلمات، كان هناك ثلاثة أشخاص فقط من مجموعة لاواو كلها على قيد الحياة: الأب "سينسكي" وجان جورسكي وأنا.

لقد جاءت لحظة الرحيل المؤلمة في مساء الثالث من مايو. كان ليلة صافية دافئة من أيام الربيع. أخذتنا سيارة من سيارات الأجرة عبر المدينة العزيزة عليّ؛ حتى هذا اليوم، أتذكر الشبح الباهت لكنيسة البرناردين في ضوء القمر. لقد ذهبنا إلى موقف سيارات وركبنا سيارة نقل، والتي من المقرر أن تتحرك قبل الفجر، لتأخذنا جميعا إلى "بريمسل". كنا متأخرين عن موعدنا فالسماء كانت قد بدأت تضيء بالفعل عندما تركنا لاواو. رأينا قبة كنيسة القديس جورج وأبراج كنيسة القديسة اليزابيث. كنا حوالي عشرين شخصا ولم ينطق أحدنا بكلمة واحدة. مررنا بقلعة جاجيالونيان والطريق المستقيم. كان هناك علامة إرشادية مكتوب عليها "إلى كومارنو". تجاوزنا هذا الطريق وفجأة، ولأول مرة، لم أعد أدري أين نحن. فقدت كل العلاقات الشخصية. فسأبدأ الآن الذهاب إلى العالم الواسع.

كانت "بريمسل" تعج بكثير ممن أعرفهم. فأخذ الناس يهرعون إليّ وهم يطلقون صيحة فرحة حيث كانت أنباء مقتلي قد وصلتهم منذ فترة بأنني انزلقت إلى مزراب من أنبوب تصريف حينما هربت من شقتي ولقيت حتفي بطلة نارية على "الحدود الخضراء". جاءت هذه الصيحات والمضايقات المتعددة، بالطبع، من العديد من الأشخاص السياسيين "غير الأرثوذكس" ممن رحلوا إلى بريمسل، وبالنسبة لكل الأطراف المعنية كانت اللقاءات غير مريحة.

وفي هذا اليوم قابلت أسقف بريمسل المساعد، الأب تومكا الذي أعرفه جيداً. قلت لنفسي أنه ربما لديه بعض الأخبار التي يريد نقلها إلى الأسقف العادي في الجانب الألماني. استقبلني الأسقف توماكا باهتمام أبوي حقيقي.

"ماذا تفعلين هنا؟"

أجبته "أحاول أن أهرب يا سيدي"

أعطاني الكثير من الأخبار لكي أنقلها إلى الأسقف باردا. وفي النهاية، في اليوم الثالث، كان علينا أن نخضع لتفتيش روسي أخير. كان تفتيشا شاملا على غير العادة. فتمت مصادرة المجوهرات وجزءا كبيرا من العملات البولندية (الزلوتي) الذي التقطه

الحراس بجشع على الرغم من أنه منذ بضعة أشهر (منذ شهر ديسمبر على وجه التحديد) تم منع تداول الزلوتي في القطاع الروسي. ومع ذلك، فشلوا في العثور على كم كبير من المال مختبئة في بطانة حقيبتي الجلدية، كما فشلوا في العثور على اللآلئ التي قمت بخياطتها في ياقة معطفي.

ثم حان وقت فحص أوراقنا الشخصية. إن أوراقي لم تلفت كثيرا من الانتباه، ربما لأن أوراق "أخي" كانت مثالية. بعد ذلك قسمنا إلى مجموعات في كل مجموعة أربعة أفراد وطلب منا عبورالجسر. وأثناء مرورنا أمام الحراس الروسيين كانوا يهتفون "سنراكم في كاراكوا". إنهم كباقي جنود الجيش الأحمر: متسخين ولا يحلقون ذقونهم ويرتدون ملابس موحّدة تفتقر إلى الجودة. وعند منتصف الجسر رأينا مجموعة من الجنود الألمان: رجال قويّ البنية ويبدون شديدي الوسامة وهم يرتدون حللهم المهندمة النظيفة، ومعهم ممرضات الصليب الأحمر اللاتي يرتدين ثيابهن البيضاء. وسمع أكثر من فرد فينا يعلق. "أيما كان، هذه هي أوروبا."

الفصل الثاني
كراكوا
مايو ١٩٤٠ - يونيو ١٩٤١

لقد عبرنا الجسر ووقفنا على الجزء البولندي المحتل من قبل الألمان. لقد كان الجنود الألمان حولنا في كل مكان. وبعد برهة، جاءت الأوامر بأن نسير. تجولنا في "بريمسل الألمانية" كل أربعة أفراد جنبا إلى جنب. وعلى الرغم من عيوننا المنهكة غير القادرة على فك رموز المخطوطات السيريلية، كانت فرحة حقيقية لنا أن نقرأ ملحوظات مكتوبة باللغة البولندية على اللافتات. وقفت مجموعات صغيرة غير بعيدة من الناس تحملق فينا. ومن وقت لآخر كانت السيدات يلوّحن بأوشحتهن باتجاهنا. لم يجرأن بالطبع على الاقتراب منا وكان الخوف متبدي في ملامحهن. تم اصطحابنا إلى ثكنات التي كانت قذراتها الرهيبة هي ملمحها الرئيسي. لم يكن هناك أماكن للجلوس وكان الاغتسال صعبا بصورة لا يمكن تخيلها. قضينا أول ليلتين جالسين على حقائبنا.

أخيراً تم استدعاء النساء والأطفال بمتعلقاتهم. ومرة أخرى، كان علينا أن نشكل مجموعات صغيرة كل مجموعة تنقسم إلى أربعة أفراد وسرنا حتى وصلنا إلى دورة المياه. وهناك أمرتنا سيدات يرتدين مآزر أن نخلع ملابسنا تماما وأن نضع متعلقاتنا في أكياس عليها أرقام. ونفس هذا الأرقام تم حفرها على بطاقة صغيرة وأمرنا أن نعلّقها حول أعناقنا. كان رقمي هو سبعة وخميسن. أتذكره جيدا حيث أنني نجحت في إخفاء البطاقة وتهريبها معي. لقد احتفظت بها لسنوات. لقد أردت أن يكون لديّ شيئا يثبت، بعد الحرب، أنني أمرت، وأنا عارية تماما، أن

أسير برقم حول عنقي. كنت تافهة شديدة الحساسية في هذه الأيام!

بعد ذلك، أمرونا أن نقف ثانية في طابور في غرفة الاستحمام ولكن هذه المرة بشكل ثنائي، وتمت مطاردتنا تحت الدش وسط صيحات تقول "إلى الخارج مع الجرذان". ومن هناك، وبنفس المرافقة، جعلونا نسير مرفوعين الأيدي في ممر ضيق يؤدي إلى قاعة أخرى حيث يقف رجلان يرتديان معاطف بيضاء. وفي الجهة المقابلة كان يقف عدد من الصبية الذين يبلغون من العمر إحدى عشر أو اثنى عشر عاما والذين تم اختيارهم من وسطنا بعناية لغرض الإذلال. ثم تحركنا ولكن هذه المرة واحد تلو الآخر.وقام الرجال ذوي المعاطف البيضاء بالتحديق في أفواهنا وإن لم تكن إحدانا رافعة ذراعيها عاليا كان الباحثون يجبرونها على ذلك بعنف حتى يتمكنوا من فحص أباطنا، فمن الواضح أنهم كانوا يبحثون عن الذهب أو المجوهرات. ولقد وجدوا كميات كبيرة.

وبعد انتهاء ذلك الذي يسمونه "التعقيم" –الشامل بدليل الغنيمة التي حصلوا عليها- انتقل التفتيش لحقائبنا ومتعلقاتنا الأخرى. ثم جاءت الأوامر بأن نرتدي ملابسنا ثانية وطاردونا في الساحة. فقدت إحدى النساء الوعي. اقتربت منها ممرضة من الصليب الأحمر الألماني مطلقة صيحة عالية لدرجة أن المرأة أفاقت على الفور. وبعد ذلك، أمرنا بتكوين مجموعات رباعية وأخذونا إلى ثكنات أكثر نظافة حيث كان المكان يتسع للنوم على القش.

وفي مساء اليوم الرابع تم نقلنا إلى محطة القطار لنتجه إلى "كراكوا". وعندما بدأ القطار يتحرك أخيرا صرخ الجميع صرخة فرحة قائلين "أخيراً". لقد نام الكثيرون على الفور بسبب الإرهاق الهائل بينما وقف الآخرون يتأملون ظلام الربيع الدافئ حين تختفي الأضواء ببطء من وراء نهر سان والتلال الجميلة محيطية الشكل والمنطقة الشرقية.

وفي صباح الثامن من مايو، ١٩٤٠ وصلنا إلى "كراكوا". كانت مدينة تضيئها الشمس والحركة. لا يوجد دمار. كان هناك الكثير من الألمان في الشوارع. فأفضل المحال والمطاعم مكتوب عليها "للألمان فقط". وعلى الرغم من كل شيء، كان مضمون الحياة اليومية الخارجية في "كراكوا" أفضل بمئات المرات عن "لاوا" وكان هناك تغييرات أقل على الساحة. معظم معارفي لازالوا يسكنون في بيوتهم ولا زالوا يدعون أصدقائهم لتناول الطعام

(حتي ولو كانت وجبات رخيصة) الذي كان يقدّم دائما على أطباق خزفية كما كان هناك ملاعق وشوك مصنوعة من الفضة. كان هذا مثيرا للدهشة بالنسبة لنا بعد "مزاد التصفية" المأساوي للبضائع والممتلكات في لاواو. الآن فقط أدركنا المغزى الكامل لذلك المرسوم السوفيتي الذي يمنع تداول الزلوتي البولندي. فالجزء المحتل في بولندا من قبل الألمان قد تجنب هذه الكارثة الاقتصادية، وأهم من أي شيء، لم يمر بمرحلة التحول الكامل لأسلوب الحياة الآسيوية ولم يترك أعراف أوروبية متأصلة محددة.

لازلت أتذكر كم كنت مندهشة في الأيام القليلة الأولى لي حين عدت إلى منزلي ووجدت بطاقة الزيارة الخاصة بالسيد "ستانلسو كوترزيبا". قلت لنفسي كم هو غريب أن هؤلاء الناس لا زالوا يحتاجون إلى مثل هذه الجماليات العتيقة! فبعد مرور شهر قمت بإعداد بطاقات الزيارة الخاصة بي. ولكن في بداية الأمر وجدنا هذا الاستمرار السطحي لأسلوب حياة قديم شيئا مؤلما ومزعجا. فكل أفكارنا كانت مركزة على لاواو. من أيضا تم تهجيره؟ كنا نعيد هذا السؤال المفزع بيننا ونعيده كل صباح على الناس، من نعرفهم ومن لا نعرفهم، الذين رأيناهم في محطة القطار عندما يصل قطار من برمسل.

لقد كنت دوماً أشكو لأصدقائي أنني أتحمل بصعوبة حقيقة أنني آمنة نسبيا في حين أن الناس في وطني قد يتجهون في أية لحظة إلى قلب آسيا. في البداية، لم أستطع أن أعلم لما كان قلقي يسعد مستضيفيني كثيرا...

"من الواضح أنك وافدة جديدة لأنك لازلت تشعرين أنك آمنة. هذا من حسن حظك. فسيتوارى هذا الشعور سريعا."

كان أكثر ما يؤلمني بعد وصولي هو شيء لم أستطع في الواقع الحديث عنه: حقيقة أنني تركت لاواو في ظروف منعتني من الاتصال بقائد كاراكوا لجمعية الكفاح المسلّح. وبالتالي قليس لدي أمل في استكمال مجهوداتي لتحقيق حلمي بأن يتم إرسالي كمندوب إلى المجر وإيطاليا وما وراءهما.

وعلى الرغم من ذلك، فبعد أربعة أيام من وصولي زارتني ماريا كرزاكزاونوويكز (واسمها الكودي دزيدزيا) من لاواو. أربكني هذا الاتصال من شخص أكاد لا أعرفه. جلست ماريا ثم قالت: "أنت أحد أعضاء جمعية الكفاح المسلّح." أدهشني ذلك أكثر. "هناك شخص جاء من لاوا يدعوك لحلف اليمين. فقائدنا

يعرف كل شيء عنك وسينتظرك غداً في الساعة الثانية والنصف." ثم أعطتني العنوان وأخبرتني بدقة كيف أدق الباب.

وحينما ذهبت في اليوم التالي كان الباب مفتوحا بواسطة دزيدزيا ورينيا كوموروسكا والتي جاءت لزيارتي يوما في لاواو عندما كنت أقوم بلف الضمادات. جلس الاثنان معي خلال الحوار الذي أجراه معي رجل في متوسط العمر قصير القامة وذو بشرة داكنة، والذي نظر إليّ بإمعان من خلال عينيه الضيقتين.

سألني عن أخبار لاواو وكان يريد تفاصيل عن الخيانة وسألني عن عملي. ثم أخبرني أنه لا يوجد شيء لأفعله في "كراكوا" في ذلك الوقت. لقد تحدثت عن أمنيتي للسفر إلى الخارج وبذلت كل ما بوسعي لأبرر دوافعي. كان الرد هو الموافقة الفورية ووعد بإرسالي سريعا إلى "المجر" كمندوب في خلال اسبوعين. وفي اليوم التالي قالت لي دزيدزيا أنني كنت أتحدث مع قائد مقاطعة تادوسز كوموروسكي وهو أيضا زوج رينيا.

كان عليّ الإستعداد للرحلة ولكن في الوقت نفسه – يجب أن أنتظر. لقد أمرني القائد أن أبدأ التدريب من أجل رحلتي الطويلة عبر الجبال. ولذا بدأت الركض حول كاراكوا والأحياء المجاورة لساعات يوميا. ظن المعارف الذي كنت أصادفهم أن أعصابي قد انهارت نتيجة ضغوط الحياة في ظل الاحتلال البلشفي إذ أنني كنت دائما أركض بسرعة فائقة مع أنها، من المفترض، "نزهة".

كما ذهبت لرؤية رئيس أساقفة المتروبولية في "كراكو"، الأمير سابيها، الذي كنت أعرفه طيلة حياتي وهو كذلك يعرفني. لقد استقبلني بترحاب شديد وقال لي وهو يغمز بعينيه: "هناك قصة يتناقلها الناس عنك - شيئا له علاقة بالرصاص ووجود شيوعي / بلشفي في شقتك. أعلم أنه لا يمكنك سرد التفاصيل ولكن أود كثيرا أن أعرف صحة ما تناقله الناس." قلت لنفسي أنه من المؤكد أنه يشير إلى باوليسزنكو الذي قام بغسل شعره في المرحاض. أكدت له أن ما سمعه يوافق الحقيقة إذا كان ما يشير إليه هو مشكلة غسيل الشعر. فكان رئيس الأساقفة مستمتعا للغاية.

ثم انتقل الحديث إلى أمور أخرى. وبعدما طلبت منه كتم سري، أخبرته أنني على وشك عبور "الحدود الخضراء" ومنها إلى المجر وروما. سألته ماذا ينبغي أن أقول عندما أصل إلى هناك.

بدت لمحة من الحزن العميق على ملامح الأسقف الوسيمة والتي لم ألمحها من قبل.

"أخبرهم أنهم يجب أن يعلموا البابا أن عدم حديثه عما يحدث في بولندا كان له آثاراً خطيرة بالنسبة لنمو المشاعر المعادية لروما في بلدنا. نحن نفعل ما بوسعنا، ولكن ليس لدينا حيلة في مواجهة الحقيقة -لأنها حقيقة- أنه خلال هذه الكارثة الرهيبة التي حلت بنا لم يخاطب البابا الشعب البولندي. ثانيا، أخبرهم أن يطلبوا من السفير لابابوي في برلين، السيد أورسينجو، ألا يقوم بزيارة داخاو، وتحديدا الكهنة المعتقلين التابعين لنا. فزيارته تسبب مرارة كبيرة لأنه، بعبارة لطيفة، ليس نزيها ولكن تعوزه اللباقة." وعندما سلمت عليه، طلب مني رئيس الأساقفة أن أزوره مرة أخرى قبل رحيلي مباشرة.

وبعيدا عن هذا، فعلت ما بوسعي لأعرف قدر الإمكان ما يحدث في المنطقة التي تحتلها ألمانيا والمقاطعات الغربية من بولندا والتي تم دمجها مع ألمانيا. لقد كانت القطارات الطويلة تصل مليئة بالبولنديين المشردين من تلك المناطق. ولأن الجو أصبح أكثر دفئا الآن، قلت وسائل النقل. علمت أن الألمان كانوا يقومون بعمليات الترحيل الجماعي فقط عندما يكون الجو شديد البرودة. تأكدت حقيقة هذه الملحوظة بشدة في الشتاء التالي. وفي الوقت نفسه، في الثالث من مايو، تم القبض على عدد كبير من سكان المدينة في الشوارع. كان هذا اليوم محددا لهذه العملية حيث لم يكن هناك أي مظاهرات. فتم احتجاز عددا كبيرا من الشباب في الشوارع والبارات والمقاهي ومحطة القطار. ثم سمعت كلمة لم أسمعها من قبل؛ كلمة جاءت لتنطبع في مفردات كل شخص - وهي (الدورية / جولة المتابعة).

ومنذ تلك اللحظة، دخلت تلك الكلمة بعمق في حياتنا ووعينا لدرجة أنا أحدنا لم يتخيل يوما دون أن تقال فيه. كنا دائما ما نسأل هذا السؤال: إلى أين سيأخذونهم؟ وكانت الإجابة: "إلى السخرة في ألمانيا، خاصة المحاجر أو معسكرات الاعتقال.في ذلك الوقت، كان وجود معسكرات الاعتقال الألمانية معروفا لنا إلى حد كبير بسبب ما يسمى بـ "العملية الخاصة بكراكوا"، قضية أساتذة جامعة جاجيلونيان سيئي السمعة والتي علمت حقيقتها في النهاية. في شهر مايو، عندما حضرات إلى إلى كراكوا، تم الإفراج عن الأساتذة كبيري السن الذين لم يلقوا حتفهم في المعسكر. أما صغيري السن، حتى سن الأربعين، فكانوا لازالو محتجزين في داخاو. ثم عادوا بعد ذلك، واحد تلو الآخر. وفي

الوقت نفسه، كان يقام قداس خاص كل خميس في كنيسة القديسة آنا أمام لوحة قديس كنتي، القديس جان. وخلال القداس، كانت الأمهات والزوجات تصلي إلى الله أن يعيد لهن أبنائهن وأزواجهن. وبالنسبة لي، أدركت أن الأحداث تتصاعد لدرجة أن الكلمات التي تتلوها أثناء الصلاة آلاف المرات في حياتك تلتصق بحلقك. وفي هذه الحالةو كانت الكلمات هي: "كما سامحنا من تعدوا علينا..."

وفي هذا الوقت استلمت خطابا يطلب مني مزيدا من الصبر. فهناك شخص آخر مطلوب من قبل الألمان سيذهب كمندوب هذه المرة. وحيث أنني لا أخضع لأي تهديد فوري، كان يجب عليّ أن أنتظر إلى الموسم القادم.

وفي الخارج كانت الأمور تتطور سريعاً. لقد انهزمت هولندا وبلجيكا ودخلت إيطاليا الحرب. أما فرنسا فكانت في خطر داهم. كنا جميعا نؤمن ضمنيا بفرنسا وكان لدينا إيمان راسخ وإعجاب وشعور أننا قد تربينا لنشعر أن ذكريات البطولة الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى (والتي لا تزال حية في أذهان كبار السن) تساندنا. وفي بداية شهر يونيو، فمن أجل الاحتفال باستسلام فرنسا، كانت أرجاس كل كنيسة في كراكوا تدق – وكان أعلاها على الإطلاق هو جرس كنيسة زيجمنت العظيم. كانت هذه علامة مميزة على الاحترام تقوم بها أعلى السلطات الألمانية. أما أهل مدينة "كراكوا"، فيقومون في هذا اليوم الحار بإغلاق نوافذهم وسد آذانهم لأنهم لا يريدون سماع هذه الأجراس. وبعد ظهر ذلك اليوم، كنت أستمع إلى الراديو. كان هذا هو الشيء القانوني الوحيد الذي كنت أفعله في ذلك الوقت، ولكنني كنت عزمت على أن أفعل هذا بشكل منتظم. كان تشرشل يلقي خطابا في ذلك اليوم على ال بي بي سي. وبعد بضعة جمل تغير صوته: "الأخبار في فرنسا سيئة للغاية... ولكن يجب ألا ننسى رجال فرنسا البواسل. حيث أن البطل الوحيد الآن هو السلاح، فسنفعل ما بوسعنا للدفاع عن جزيرتنا وسنكافح حتى تزال لعنة هتلر من على جبين الرجال."

كانت كاراكوا الآن تغرق بالأعلام. فحول ساحة السوق تم وضع أعمدة بيضاء ضخمة، بين كل عمود وآخر متر ونصف، وترفرف منها أعلاما حمراء قانية يبلغ طولها أمتارا ومطرزا عليها دائرة بيضاء والتي بداخلها يمكن رؤية ذلك الرمز الأسود الغريب – رمز الشر. كان من المفترض أن تمثل تلك الكتائب من الصليب المعقوف بهجة المدينة الألمانية القديمة التي يعود لها أصل

مدينة كراكوف. وفي تلك الليلة في كاراكوا، تم تسجيل ستين حالة انتحار.

ومع ذلك، فمن بين هؤلاء الذين أرادوا الاستمرار في الحياة والكفاح على الرغم من كل شيء، لم يعد الكثير يؤمنون بالنصر- حتى هؤلاء الذين منحوا النصر (كهدية من المولى ومصدر للقوة) لم يسوارهم الشك للحظة في هزيمة ألمانيا في النهاية، حتى هؤلاء الذين عرفوا منذ ذلك اليوم أن النهاية بعيدة جدا الآن وأن الحرب قد تستمر لعام آخر، وربما لعامين.

أصبح مصير أوروبا الآن مرتبطا بمصير انجلترا. كانت كلمات تشرشل "سنعمل ما بوسعنا للدفاع عن جزيرتنا" – مرعبة، فكانت إشارة واضحة للخطر الذي يواجه جزيرة الحرية الآن.

وفي هذا الوقت، نما بداخلنا جميعا شعور متأصل والذي لعب دورا كبيرا في تفكيرنا وقلوبنا لسنوات عديدة. كان لهذا الحب مكونات متعددة: الوعي بدور انجلترا الأساسي في الثقافة الأوروبية؛ انجلترا هي الآن الحصن الأخير لهذه الثقافة، انجلترا هي القوة الخلاقة في روحية البولنديين. وكان هناك خيبة أمل هائلة بسبب انهيار فرنسا –فرنسا التي تطلعنا إليها كثيراً. أعدنا توجيه هذا حب فرنسا المحبط بشكل مكثف إلى انجلترا– قويا، واعيا، معتدلا بلا حدود ويكاد يكون غير معروف لنا. تشبثنا بهذا الأمل بكل ما أوتينا من قوة وثقة. فمعرفة أن حليفتنا الكبرى قد تجد نفسها خلال فترة قصيرة معرضة للخطر أثار مشاعرنا ورغبتنا غير الأنانية في التضحية بأرواحنا من أجل بناء أوروبا الجديدة والتي تتضمن دولة بولندية جديدة وقوية.

لقد كان هناك القليل من الناس يعترفون أن شعب بريطانيا شعبا عمليا للغاية وأصبحوا يحبون البولنديين الآن فقط إذ أنهم في حاجة إلى دمائنا – فهم يكرهون إراقة دمائهم. ولكنهم قالوا أن شعورهم تجاهنا سيتغير فيما بعد. فالأشخاص الذين يعبرون عن مثل هذه الآراء يتمتعون بالبرود.

إن الوضع السياسي الحالي – الاحتلال الكامل لبلجيكا وهولندا وفرنسا ومن قبل ألمان كان له تأثير هائل على المقاومة السرية في بولندا. لقد أصبح الاتصال بالحكومه البولنديه فى لندن صعبا للغاية كما أصبح إرسال المندوبين إلى الخارج معقدا بشكل كبير بعدما دخلت إيطاليا الحرب. ومنذ ذلك الحين أصبحنا ببساطة مطوقين. بالنسبة لي، لم يكن لديّ خيار سوى الذهاب للمجر أو يوغسلافيا. لذا طلبت من القائد ألا يرسلنى للخارج حيث أن خطتى لم تعد عملية. ومع وجود أمل ضئيل في

المشاركة في أي نشاط سري، بدأت أحاول أن أكون نافعة من خلال القيام بأعمال خيرية مشروعة. فتقدمت للصليب الأحمر البولندي لاعمل به وبعد طول انتظار تم السماح لي ببدء العمل على أساس مؤقت.

وفي هذا الوقت، وبناء على اقتراحي، بدأت في عمل سجل بالمرحّلين من المنطقة التى تحتلها روسيا فى بولندا إلى قلب روسيا. إن الزحام يتزايد كل يوم أمام مكتبى. كان هناك مجموعات كبيرة من الناس ممن لهم علاقة بالضباط المحتجزين في المعسكرات في كوزيلسك وستاروبيلسك، والذين كانوا لازالوا يستطيعون إرسال خطابات من أماكن تواجدهم. كما كان هناك أهالى من تم ترحيلهم والذين تلقوا بعض المعلومات من أعماق آسيا وأحضروا بطاقات بريدية لأطلع عليها، حيثو كانوا يعتقدون خطأ أن المسجلين في الصليب الاحمر سيتم ترحيلهم فورا من روسيا إلى أمريكا أو الهند أو كندا. توسّلوا إليّ أن أؤدي المهمة التي كلفتني بها أمريكا بأقصى سرعة ممكنة. فمعظم الأخبار التي وصلت من المرحّلين جاءت من مزارع كرهيز فى كازخستان حيث علم أهالى الضباط وملاك الأراضي البولنديين أن المحتجزين هناك يعيشون في حظائر الأغنام. لقد قالوا أنهم يجلبون الماء بواسطة دلو كل صباح ويحملونها لمسافة ثلاث كيلومترات عبر السهول. وبعد ذلك، وبمساعدة ربقة، كانوا يحاصرون الثيران التي ترعى طوال الليل في السهول ويستخدمونهم في الحرث. هذه الأعمال تفعلها النساء اللاتي -عادة بحكم الطبيعة- لم يدربن على العمل البدني. لقد أرسلت إحداهن قائلة "في الوقت الراهن أقرأ كتاب رائع بعنوان **(دانتي لم ير شيئاً)** "بينما عبرت أخرى عن خوفها من الموت قبل رؤية أولادها قائلة: "أصلي من أجل الموت ليكون هناك تسلسل منطقي..."

لقد أرسل واحد من رعاة الغابات في "كومارنو" أن أولاده بخير وأنه يعمل في جبال الأورال. وعلى الرغم من أنني ابتعدت عن أراضي عائلتي، وصلتني أخبارا قليلة عن الفلاحين في كاليكو - كولونيا الذين كانوا يرسلون خطابات من مناطق مختلفة في آسيا. لقد كانت الكروت التي ترسل من هناك تحمل نفس المحتوى.

وعلى حائط مكتبنا كانت هناك خريطة كبيرة لروسيا والتي حددنا عليها الأماكن المتعددة، أو على أي حال المناطق التي ترسل منها الخطابات بواسطة أعلام صغيرة والتي كان أكثرها في كازخستان ومنطقة ألتاج. شعرنا بالخجل أننا كنا أكثر أمنا مقارنة

بهؤلاء الناس. فالألمان لا يستطيعون إرسالنا إلى أبعد من قلب ألمانيا، لسبب بسيط وهو أنهم لا يملكون أي مكان في آسيا. اتضح سريعا بعد ذلك أنهم لا يحتاجون إلى نقل أفراد إلى أبعد من قلب ألمانيا، في الجزء الأول من الطريق الذي يؤدي عادة إلى ما هو أبعد من كالزخستان بكثير.

وفي الأيام شديدة الحرارة من صيف عام ١٩٤٠، انتشرت الشائعات في كاراكوا أن هناك استعدادات هائلة على حدود سيليسيان. فتم انشاء ثكنات كبيرة أو مجموعة من المباني محاطة تماما بأسلاك شائكة وكل شيء مدرج تحت بند الأسرار العليا. فحتى وإن ظهرت تلك الاستعدادات للجميع، فلا أحد يفهم مغزى ذلك إذ أن الألمان كانوا يبنون أوزويتز.

بالنسبة لي، لقد مرَّ الصيف بعدد من المهام المتفرقة التابعة للصليب الأحمر والتي يتخللها قليل من المهام التافهة من قبل جمعية الكفاح المسلح.ما كان يضايقني هو أنه لم يتم اسناد مهمة ذات أهمية كبيرة لي. كان رئيسي المباشر في الصليب الأحمر هو نفسه رئيسي في حركة المقاومة السرية. كان المقدّم آدم زيبستا، طبيب الأمراض العصبية والرجل الذي يتمتع بطاقة هائلة وذكاء حاد، يمتلك سجلا مميزا من الخدمات في حملة شهر سبتمبر والتي كان له دور فيها في الدفاع عن زاموسك. كان يتعامل معي دائما بقدر هائل من التحفظ الذي كان من الواضح أنه السبب وراء غير فعاليتي في المقاومة. وهذا ما أثار غيظي.

وفي يوم نجحت في الحصول على معلومة هامة جداً وأخبرته بها في الحال. لقد أنصت إليّ باهتمام وأجاب بلهجة تشوبها لمحة من الغضب وهو ما أدهشني:

"لقد جلبت لي معلومة هامة جداً تمثل خطراً شديداً عليكي، لقد كنت دائما متحاملا عليك."

فأجبت بلهجة مماثلة: "لم تخفها عني أبدا أيها الكولونيل."

وقف وبدأ يسير بخطوات ثابتة على الأرض.

"وما السبب في هذا في إعتقادك؟"

"لأنك لم تعطني أبدا أي مهام حقيقية ولن يكون سبب ذلك هو أنني أخذلتك. يمكن أن يكون السبب في هذا هو شيء أنا غير مسئولة عنه – ومن المرجح أنه أصولي الاجتماعية."

"هذا صحيح."

لقد فهمت الآن. فالبلاد تنزف ولا زال هذا العبث يخلق حواجزا بين البولنديين الذين يدافعون عن حرية بلادهم.

"إذا كنت غير معجب بأصولي الاجتماعية، أيها الكولونيل، فلما لم تسألني أبدا عن رأيي فيها؟ وإذا كان اسمي هو سبب المشكلة -والذي لم يكن اختياري أيضا- فأعتقد أن هذا يزيد من التزاماتي تجاه بولندا. إذا كان الإسم مشهورا، فهذا لأن أصحاب هذا الإسم قد دافعوا عن بلادهم -بشكل ليس سيئا على الإطلاق- حينما كانوا يتولون مناصب قيادية! فلقد كافحت عائلتي في كل الأوقات التي احتاجتها فيها بولندا: منذ معركة جرونوالد حتى حصار فيينا. هذا هو تاريخ عائلتي! واليوم، ولأنني لا أرغب في إلحاق العار بأسلافي، فلدي الحق لأطلب الفرصة لأضحي بحياتي في سبيل مهمة مجدية. فهل هذا الوقت مناسب لأي تفرقة طبقية؟"

في تلك اللحظة، كان يجب أن أقطع حديثي. فآدم سزيبيستا كان واقفا أمامي وأمسك بيدي (ليس برفق) وبدأ يقبّلهما بسرعة. ومنذ ذلك الحين أصبح واحدا من أفضل أصدقائي.

لقد أصبحت أخبار العالم أكثر خطورة؛ اشتعلت معركة بريطانيا أكثر وكانت الدعاية الألمانية تعد بنهاية قريبة للحر. اتفقت الأمة كلها مع الطيارين البولنديين ليكون لهم دورا مباشرا في تلك المحنة الرهيبة. لقد كان حبنا لبريطانيا يتزايد كل ساعة. كان حبا ممتزجا بالإيمان والأمل والاهتمام المطلق مع الخوف من المستقبل وحسد من قدرة انجلترا على الكفاح بشكل صريح من أجل بقاءها وبقاء أوروبا.

تذكرت القداس البابوي في الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٠ الذي أجراه رئيس الأساقفة سابيها في كنيسة "ماریاسكي". كنا على وعي تام بحقيقة أنه خلال الذكرى السنوية لمعجزة فيستولا، قام رئيس الأساقفة بالصلاة على نهر التايمز. وقام كل سكان كاراكوا بالصلاة معه. وحين خطا سابيها خارج الكنيسة، قابلته الجموع المنتظرة التي لم تجد مكانا للجلوس داخل الكنيسة بتصفيق حاد. كان الألمان متلهفون ويتسائلون عن المغزي الحقيقي لذلك الهياج، فعرفوا أنها عادة بولندية؛ أن يقوم الناس بالصياح عند رؤية الأسقف.

وبعد بضعة أيام، وقعت حادثة والتصقت بذاكرتي بعد ذلك. كان عليّ الذهاب إلى رئيس الأساقفة وأن أطلب منه، بإسم وبأمر من الضابط تادوسز كوموروسكي، الذي يقود فرع المقاومة في لاواو -في ذلك الوقت- أن يقوم في يوم الأحد الموافق الأول من سبتمبر، الذكرى السنوية الأولى لاندلاع الحرب، في كل كنائس كاراكوا، بالسماح للمؤمنين بالمشاركة في غناء الترنيمة الوطنية

"بوز، كوذ، بولسك". فكوموروسكي لا يطلب من رجال الدين الدعم المساندة الفعالة، ولكنه لا يريد أن يحدث أي شيء إلا بعد معرفة وموافقة "المضيف" في تلك الكنائس أولا.

ذهبت إلى رئيس الأساقفة. وحيث أنني ذهبت إلى شارع فرانسيزكانسا كثيرا لأداء بعض المهام المتعلّقة بالصليب الأحمر، لم يلفت حضوري في ساعة الزوار أي انتباه خاص في غرفة الانتظار، ولم يندهش رئيس الأساقفة نفسه عند رؤيتي. استقبلني بلطفه ودفئه المعتادين وسألني ما الذي أتيت بشأنه. قلت ببطء وهدوء: "هذه المرة، فأنا لست موجودة هنا بمبادرة شخصية مني، ولكن بالأمر." وعلى الرغم من أن رد فعله هو الصمت إلا أنه لم يكن صمتا هادئا إذ أشرقت ملامحه النبيلة المعبرة وبرقت عيناه الضيقتين وارتسمت ابتسامة مرحة طفولية على شفتيه الجميلتين. فالرجل الذي كان جالسا أمامي، مستندا على الطاولة وينتظر بشغف سماع ما سأقوله، كان في تلك اللحظة سابيها الذي سيناسبه درعا عسكريا أكثر من ثياب الأسقف البنفسجية. لذا أخبرته عن سبب قدومي إلى هنا. أنصت إليّ بإمعان ثم أعاد حرفيا ما قلته، كما لو أنه من الأفضل تذكره. وفي الوقت نفسه، ارتسم الاهتمام على ملامحه. وفي النهاية، طلب مني أن آتي بعد يومين وستكون إجابته جاهزة. كنت على وشك الانصراف ولكنه أوقفني.

"والآن، لقد أديت مهمتك. أريد أن أسألك، وسيبقى هذا سرا بيننا، ماذا ستفعلين لو كنت مكاني؟ أود أن أعرف. هل ستوافقي على هذا أم لا؟"

أجبته دون أن أفكر: "أبدا. الحمد للرب، فالآن لا يوجد حاجة لرفع المعنويات، وسيستغل الألمان أية مظاهرة للقيام بمزيد من الاعتقالات والترحيلات والقتل أيضا. فواجبنا هو تقديم حياتنا للكفاح إذا دعت الحاجة لذلك، ولكن ليس لأغنية!"

"شكراً لكي. سأنتظرك بعد غد."

عدت كما هو مقررا وكانت إجابة رئيس الأساقفة سلبية. وقبل أن أغادر المكان، كنت أريد الاتفاق معه على الموضوع الذي تناقشنا فيه. ومع أخذ هذا في الاعتبار، أعطيته بعض التفاصيل عن عملي في الصليب الأحمر وبدا مستمتعا للغاية.

"من الذي سيسألنا عما كنا نتحدث فيه؟"

فاجئني سؤاله الممتع فأجبت "الألمان بالطبع، عندما يتم القبض عليّ."

وبعد بضعة أيام، سألت راينيا عن رد فعل زوجها عندما علم برفض رئيس الأساقفة. "لقد تنهد وقال أنه كان يعتمد على حكمة رئيس الأساقفة." وقتها فقط اعترف لزوجته أن لديه مشاكل مع الشباب الذين كانوا مصممين بشدة على القيام بمظاهرة، ولكنه معترض على هذا. فلقد أوضح لهم أنهم لابد أن يلتزموا بقرار رئيس الأساقفة.

سابـيها، زعـيمنا الأخـلاقي في تـلك الأيام، لم يكن بأي حال من الأحوال متورطا في حركة المقاومة السرية. على العكس، ابتعد أفراد حركة المقاومة عمدا عن رئيس الأساقفة لحمايته من الخطر. هذا الحذر كان له تأثير سلبي طفيف. فكان الأمير "سابيها" يائسا جراء ما يظنه في "خمول" أفراد هذه الحركة. فكان دائما ما يتذمر قائلا: "أين هم في وقت كهذا؟ يجلسون في هدوء في قصور مزارعهم – هذا كل ما الأمر!"

إنه لم يكن يعلم أن، عمليا، كل بيت وقصر في المزارع، حيث لا يزال مالكوها يقطنوها، كان محصنا كالقلعة. وبعها أصبح واعيا بتلك الحقيقة.

وبعد ذلك كان الأمر يزداد خطراً وكان القلق وصل إلى ذروته في نفوس العامة. فقد كانت هناك إمرأة أخذت طفلها للتنزه في الحديقة وفقدت وعيها على الفور حين قابلت أحد المعارف الذي أخبرها أن بريطانيا قد استسلمت.

وفي أثناء هذه الشهور المضطربة زرت وارسو لأول مرة منذ انلاع الحرب. لقد أرسلت كمندوب لتوصيل رسالة إلى حركة المقاومة السرية في وارسو. وعلى الرغم من أن اتصالاتي بهم مرت بسرعة البرق، فهذه الزيارة جعلتني أعود مغمورة بقدر هائل من الشجاعة والمرونة مقارنة بوجودي في كاراكوا. إن شعب وارسو متفائل – ليس فقط لديهم أمل بل هم على ثقة ويقين من ذلك النجاح الكبير الذي يستحق شرف الكفاح من أجله. شعرت بالرضا عندما رأيت عددا قليلا من الألمان في شوارع وارسو أكثر من كاراكوا، وبالمثل قليلا من المباني المكتوب عليها "للألمان فقط". وعلى الرغم من ذلك، فنطاق الدمار في المدينة نفسها أصابني بالاكتئاب. فمع أن الأنقاض والحطام قد تمت ازالتها بسرعة إلا أن أنني لم أستطع استيعاب اختفاء شوارع بأكملها مثل سويتوكرزيسكا وفوخ. كما أنني لم أستطع استيعاب حقيقة أن جواهر العاصمة المعمارية مثل قصر راسزينسكي في كراكوسكي برزدميسي أو قصر زامويسكي في سيناتورسكا قي اختفت. والأسوا من ذلك أنه لم يعد هناك وجود للقلعة الملكية.

قلت لنفسي أنه لا توجد مدينة قد عانت لهذه الدرجة المفزعة. تضمنت الرحلة إلى وارسو رحلتي بالقطار لأول مرة منذ اندلاع الحرب.كانت ثلاثة عشر عربة من عربات القطار محجوزة للألمان من ضمن الستة عشر عربة. كانت تلك العربات الثلاثة عشرة عادة خالية أو كان هناك مسافر واحد في المقصورة، أمّا العربات المخصصة للبولنديين فكانت غرف للوقوف فقط، طوال الليل – على قدم واحدة ويتم تبديلها حيث لم تكن هناك مساحة للوقوف على القدمين معا. وللمرة الأولى أيضا، صفعني المحصل التذاكر الألماني بسبب وقوفي نتيجة للزحام في مدخل إحدى العربات المخصصة للألمان.

وفي هذه الأيام، لم يكن لدي عمل أو مهام كثيرة لذا أكملت دراسة اللغة الإنجليزية إلى جانب دراسة الأدب الخاص بحليفتنا. لقد كنت أقضي أفضل الأوقات في تلك الشهور الكئيبة في مكتبة رومان دايبوسكي، العالم باللغة الإنجليزية الذي يدرس لنا والذي لم يدخر وسعا في توفير كل كنوز اللغة الإنجليزية لي. أتذكر كم كنت متأثرة حينما كنت أقرأ قصيدة للشاعر "أرثر جلوف" والتي ترجمها دايبوسكي بنفسه إلى البولندية. وصلت تلك القصيدة إلى جمعية الكفاح المسلّح وقامت صحافة المقاومة السرية بطبعها وأعجبت الكثيرين. وفي نفس الوقت قرأت رائعة ايميلي برونت، ورأيت تلقائية وحدة موضوعها وأسلوبها الصريح القوي غير المصقول. كانت قصيدتها "لست جبانة..." تصاحبني في رحلاتي الطويلة الصعبة.

إن الساعات التي كنت أقضيها في مكتبة دايبوسكي كانت من أفضل الأوقات على مدار الست أعوام التي استمرت فيها الحرب، فلقد كانت القراءة تتخللها أحاديث عن الثقافات الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية واليونانية والإيطالية وقبلهم الثقافة البولندية. للمرة الأولى منذ انلاع الحرب، بدأت الإنسانية تجذبني مرة أخرى في شخص واحد من أبرز ممثليها البولنديين. كانت تلك الأحاديث مصدرا هائلا يمدني بالقوة في المستقبل. وفي الوقت نفسه، كان السيد "دايبوسكي" يعد نفسه ذهنيا للمهام المسئولة التي تنتظره عقب الحرب، وذلك خلال مسعاه لتنوير شعوب الأنجلوساكسون بشأن من هم الألمان وما هي علاقاتهم بنا وبثقافتنا.

قال: "إنه من الصعب جداً فعل هذا لأنني، بحكم معرفتي لهم، أشك في قدرتهم على فهم ما يحدث هنا. فالناس الذين تربوا على مفهوم كرامة الإنسان ينظرون إلى الحرب على أنها

محاولة شرفية للقوة ولا يؤمنون أنه من الممكن أن تتحول أمة كاملة إلى الهمجية." وبالتأكيد أصبح من الصعب جداً علينا أن نفهم هذه الأمة.

لقد قلت للسيد "دايبوسكي" ذات مرة أن هناك في الريف حيث يتواجد بعضا من أقاربي ما يسمى بـ تروهاندر وهو موظف كل مهامه هي إدارة الممتلكات والذي يقوم هو وزوجته (كقانون) بجمع الأشياء من المنازل كالساعات القديمة وغيرها. وكان لهذا الرجل ولد يسمى "هيلمت" الذي كان يلعب مع صغار ابن عمي. لقد سمح أبناء عمي بذلك لأنهم لا يريدون أن يجعلوا أبنائهم يكرهون طفلا آخر. ولكن في يوم توقف الأطفال عن اللعب معاً مع أنهم كانوا قد تعودوا على بعضهم البعض حتى ذلك الوقت. وعند سؤالهم عن السبب، لم يرغب الأطفال في إخبار آبائهم بشيء. وبعد فترة طويلة صرّحت أكبر البنات سنا بالحقيقة لأمها: "يا أمي لا نستطيع أن نلعب مع هيلمت ثانية" "لماذا؟" "لقد أخبرنا هيلمت أنه كان يتمنى أن يكون كبيرا حتى يستطيع أن يكون طيارا ليطلق القذائف على بيتنا". تأملت أنا ودايبوسكي الغرائز المتأصلة في تلك الأمة.

لقد قضينا الليل نناقش يوم دمّر تمثال "ميسكيويز". لقد كنا نشعر بالألم ليس بسبب فقدان هذا التذكار الجميل (فسنشيد أفضل منه بعد الحرب) ولكن بسبب هذا الدليل البليغ على طبيعة الألمان. رفع "دايبوسكي" يده بحزن وأشار إلى الروائع الأدبية الألمانية على رفوف مكتبته.

"هل أنت متأكد أن هذا قد حدث؟ فلم أخرج اليوم."

لقد قلت له أني ذهبت إلى ساحة السوق مرتين منذ الصباح – المرة الأولى حينما كانوا يستعدون من أجل تلك المهمة، المرة الثانية منذ وقت قليل. تجمّعت الجماهير حول الطوق الذي أقامته الشرطة. كانت النساء تبكي بصوت عال. ومن آن لآخر كانت الشرطة تطارد الناس كما اعتدت بالضرب وألقت القبض على عدد من المصورين. وعن طريق الصدفة، فذلك الفعل، مثل العديد من الأفعال التي قام بها المحتلون، لم يحقق الهدف المرجو منه. فخلال يومين، كانت العشرات من صور اسقاط التمثال منتشرة في كاراكاوا. وكان الصبية في سوكيننيس (مبنى الأقمشة) يذهبون إلى الناس ويستعيدون ثقتهم ويبيعون بطاقات بريدية بعنوان "اسقاط ميسكيويز" بثمن باهظ نوعا ما. وبالطبع اشتريت واحدة وكنت مستمتعة للغاية وأنا أعرضها على الزوار الأجانب بعد الحرب. وبعد يومين آخرين، ترك التمثال، ذو

الرأس المهشمة، ملقي علي الأرض في ساحة السوق. وتم القبض على عدد قليل من النساء لقيامهن بنثر الزهور على بقايا التمثال.

لقد اهتزت "كراكوا" حتى النخاع. فللمرة الأولى، استشاط البسطاء غضبا بعد أن كانوا مبهورين بالألمان. إن خادمة صديقتي دزيدزيا لم تكن متعلمة لكنها ظلت تبكي لثلاث ليال على الرغم من أنه من الصعب تصديق أن "الارتجال" أو "بانّ تادوسز" كان جزءا من أمتعتها الروحية. عندما سألتها دزيدزيا عن سبب حزنها قالت: "إنني أشعر بقدر هائل من الإهانة." فتدمير النصب التذكاري لمعركة جرونوالد مباشرة بعد أحتلال كاراكوا كان على الأقل مفهوما إذ أنه معاديا للألمان. كما مرت حادثة إزالة النصب التذكاري لكوسكوسكو من قلعة واول مرور الكرام حيث أن تلك القلعة يتعذر الوصول إليها. فلقد أصبحت غريبة بعدما تمت احاطتها بحواجز بروسية مقلّمة باللونين الأسود والأبيض وتمت حراستها بواسطة حراس يحملون الحراب. يجب أن أعترف أن "غياب" قلعة واول كان يرمز بشدة إلى غياب أغلى ما نمتلكه: الاستقلال. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تمثال كوسكوسكو لم يكن موجودا هناك لفترة طويلة ولا يمثل جزءا لا يتجزأ من كاراكوا على عكس تمثال ميكيويكس في ساحة السوق.

لأجيال كثيرة، تعودنا على مفهوم معين والذي كان هذا الشاعر يرمز إليه، بغض النظر عن الجنسية – المفهوم الذي يعنيه الأدب والثقافة بوجه عام: جسد كامل من الأفكار والتي، بعد عام واحد فقط من احتلال العدو، لم نكن في عجلة للتخلص منها. في ذلك اليوم، بعد عودتي من ساحة السوق حيث كان تمثال ميكيويس المهشم ملقى أرضا، سرت في شارع سلاوكاوسكا. ووقعت عيناي على لافتة برونزية مزينة بالأكاليل ومكتوب عليها "جويث يعيش في هذا المنزل". وبمجرد قرائتها، تسائلت كيف لم يفكر بولندي في تحطيمها أو على الأقل إزالتها على الرغم من كل الجرائم غير المسبوقة التي قام بها شعب جويث في العالم. كانت الفكرة أننا لم نكن في حرب مع جويث. تذكّرت زيارة ميكيويس لجويث في ويمار والريشة الذهبية التي تلقاها كهدية. وبعد تمرغ تلك الأيام في الوحل، هل ستستطيع الإنسانية الإرتقاء بنفسها لتلك المراتب العليا؟

وفي هذه الليلة قلت للسيد دايوسكي وأنا أشعر بالرعب أنني لا أستطيع التخلص من فكرة أن أية قوة محتلة قادرة على مثل هذا الاستغلال أقل خطرا على البولنديين مقارنة بتلك القوة في

لاواو التي وضعت أكاليلا من الزهور عند قدمي ميكيويكس. لم يكن مقدرا لتبادلي وجهات النظر مع السيد ديبوسكي أن يستمر طويلا. كان من الصعب التخلي عن تلك الدروس التي كانت تعني لي الكثير. فعلى الرغم من الالتزامات الجديدة، حاولت مواصلة تلك الدروس. وأخيرا، وعندما جاء شهر ديسمبر، لم يعد يمكنني الاستمرار لأنني ببساطة لم يكن لدي وقت.

ومنذ شهر أكتوبر أصبحت لدي واجبات جديدة. فحينها كان أسرى الحرب البولنديين قد بدأوا يعودون من ألمانيا: "الرتب الأخرى" وعدد صغير من من الضباط الذين أعاقتهم حالاتهم الصحية من استمرارهم في أداء الخدمة العسكرية. وحتى ذلك الحين، كانوا يصلون كأفراد أو في مجموعات صغيرة حتى بداية أكتوبر جاءت شاحنة تقل خمسمائة ضحية من ضحايا مرض السل إلي كراكوا وتم إيداعهم بداخل كلية البسوع في شارع كوبرنيكس. وتم إعلام الصليب الأحمر البولندي أن هؤلاء الجنود يعانون من سوء التغذية بشكل سيء. لقد أخذت أنا ورينيا كوموروسكا وبعض الشابات الأخريات كل ما يمكن أن يفيدهم من الصليب الأحمر البولندي وهرعنا إلى شارع كوبرنيكس. وكان قد تم الاعتراف بوفد الصليب الأحمر من قبل العسكرية الألمانية. سرنا في ممر طويل ونحن نحمل السلال الخاصة بنا وتمت قيادتنا إلى قاعة كبيرة حيث وقعت عيوننا على منظر غير متوقع. فإلى جانب الجرحى الراقدين على الأسرّة، كان هناك عدد كبير من الضباط الذين كانوا لازالو يستطيعون السير. وعندما وقعت عيونهم علينا، قاموا ليرحبوا بأول سيدات بولنديات يرونهم منذ عام. لقد كانوا في ثياب عسكرية ويرتدون الأوسمة وشارات الجدارة – فكل شيء فيهم كان يدعو للذهول. كنا نكاد لا نعرف كيف نخفي مشاعرنا فكانت سلال الطعام الضخمة هي وسيلة الإنقاذ من ذلك الحرج. فميلنا ونحن نقوم بتفريغ تلك السلال جعلنا نحني لهم بشدة.

ثم ذهبنا إلي الحجرات الأصغر حيث يرقد من هم في حالة خطرة والذين مات منهم اثنين في أول يوم وهناك قلة أخرى في انتظار الموت. لقد كان زوجاتهم وخطيباتهم يجلسون بجانب بعضا منهم ينظرون إليهم والخوف في أعينهم، نظرة حب لمن عاد للتو وعلى وشك الرحيل ثانية، لكن هذه المرة إلى الأبد. وكان من ضمن مجموعة أخرى من دافع عن شبة جزيرة هيل، الملازم ثاني مهندس ليخ ستيلماشوسكي. كانت زوجته صغيرة السن تجلس بجانبه. لقد فقد هذا المريض صوته ويستطيع بالكاد

التنفس وكان يحدّق في زوجته بعينيه الزرقاوين. كان من الواضح أنه يستجمع قواه ليقول شيئا. وفي النهاية التقط أنفاسه ونطق بالكاد أربعة كلمات مسموعة "أديت واجبي تجاه بولندا."

لقد مات هذا الرجل في اليوم التالي وتم السماح لدزينة أو نحو ذلك من زملائه بحضور جنازته. وقام الحراس الألمان بمصاحبة الموكب الذي يجب علينا الاعتراف بأنه مر بشكل حصيف ومراعيا لشعور الآخرين. وعندما خرج الموكب الجنائزي، رفع المارة قبعاتهم وهطلت الزهور من النوافذ المطلة على الطريق وصرخت النساء في الترام: "يسوع، مريم!" لا أتذكر أنني شعرت بالفخر في صحبة جماعة مثلما شعرت به في هذا اليوم وأنا أسير في كاراكوا مع هؤلاء المرضى الفقراء العاجزين. وعند مدخل مقابر راكويس كان موكبنا كبير العدد والتحق بنا الكثير من الناس داخل المقابر. وفي الكنيسة، قام زملاء ستيلماشوسكي بتكوين الحراسة الشرفية حول الجثمان. كان الصمت سائدا. وبين الحين والآخر كنا نسمع سعلا جافا مرهقا.

وعندما خرجوا من الكنيسة، أزاح كبار السن المرضى حاملي النعش برفق وحملوه بأنفسهم. وأثناء سيرهم، قلت لنفسي أنه من المجدي وجود بعض الممرضات. فعند سقوط أحد المرضى، ستكون الاسعافات الأولية متوفرة. مشينا في الطريق المؤدي إلى المقابر الجديدة في يوم خريفي بولندي رائعا ومشمسا. واحتاج أحد الموجودين إلى الاسعافات في الطريق -ليس من ضمن المرضى ولكنها كانت ممرضة والتي فقدت وعيها من شدة التأثر. كان هناك عددا كبيرا من الزهور التي تتمشى مع الألوان القومية البولندية- الأحمر والأبيض. وحينما حان الوقت لينزل الجسمان إلى مثواه الأخير، تذكرت الكلمات التي كتبت عند دفن حالة أخرى توفت في المستشفى:

على الأقل، فرب السماوات لا يمكن الوصول إليه
يبعث بصاعقته على الشجعان
بحق تلك العظام ندعوك:
أن تشرق الشمس ونن ذاهبون إلى القبر
وأن تدع ضوء النهار يغمر أبواب السماء الواسعة
ليرى ويعرف الكل متى لقينا حتفنا!

كان هناك المزيد من حالات الوفاة والدفن بعد ذلك، على الرغم من أنهم لم يكونوا كالمرة الأولى. فمرة واحدة كانت كافية للألمان. وبعد بضعة أيام تم الإفراج عن المسجونين. فأصبح

الجنود المرضى مدنيين. أما من كانوا أصحاء بدرجة تسمح لهم بالسفر فتم نقلهم إلى أماكن متعددة من القطاع الذي يحتله الألمان. ولم يكن لزاما عليهم ارتداء الملابس العسكرية ولكن لو لم يكن لديهم ثيابا مدنية فيمكنهم ارتداء الملابس العسكرية بدون الشارات أو الأوسمة. لكن من الصعب تفسير هذا الشرط الأخير فلم يستطع الرجال فهمه. فعلى الرغم من أن عملية نزع الشارات والأوسمة القاسية كانت تطبق بالفعل، جاء إلينا المرضى الذي ينتظرهم الموت وطلبوا أن يتم وضع تلك الأشياء في حقيبة، "حيث سنحتاج إليهم قريبا". كانوا قد بدأوا أخيرا في توخي بعض الحذر. ففي الأيام الأولى، كانوا يقولون ما يشاءون بصوت عال. وكان يجب أن يوضح لهم بأي ثمن أنهم محاطون بجواسيس؛ كانت ممرضات المستشفى، لسوء الحظ، أوكرانيات؛ فلم يكن مكان نظام حكم الاحتلال الألماني معسكرا لأسرى الحرب ولم يكن الجستابو (البوليس السري الألماني) كالويهرماخت (الجيش الألماني). كانوا يشعرون برعب هائل. قال رقيب ألماني "لو كان الأمر كذلك، معسكر لأسرى الحرب، فسنصبح إذا عبيدا."

وأخيراً تم إخلاء سبيل الكل عدا الذين في حالة خطرة أو من جاءوا مقاطعتنا على الجانب البعيد لطريق ريبنتروب مولوتوف فظلوا في كاراكوا. كانوا عادة آباءا لأسر تم ترحيلها إلى أعماق روسيا. وبالنسبة لهم أو الراقدون في الأسرة، فكان علينا توفير الرعاية التمريضية والتغذية المنتظمة لهم، والتي لم تكن صعبة في تلك الفترة حيث أن سلوك الشعب تجاههم هو الكرم غير الأناني.

وكان من بين الكرماء الآباء اليسوعيون الذين سمحوا للسيدات الألمانيات باستخدام المطابخ الخاصة بهؤلاء الكهنة. أما نساءنا، ويبلغ عددهن الإجمالي الإنجيلي اثنتا عشر، اشتركن في إعداد الطعام للمرضى. أما الأمر الأصعب فكان حماية هؤلاء العاجزين من المضايقات والاستنكارات المتعددة من قبل الأطباء والممرضات الأوكرانيين الذين امتلئت بهم المستشفى. كانت زعيمتهم المادية والمعنوية هي الممرضة جوزيفا، الأم الأسمى في النظام الباسيلي. كان وجهها النحيل المبتسم دائما وعيناها الضيقتين النصف مغلقتين وفمها الواسع ذو الشفاه الرفيعة جدا ورداؤها الأسود يثير الرجفة في أوصالنا. بعد زياراتها، كنا نكتشف دائما اختفاء أشياء شخصية؛ وطعام أيضا وربما معدات المستشفى أو البطاطين أو ملائات. بعض من تلك الأشياء تظهر بعد فترة لكن هذا كان بالنسبة لمتعلقات الجنود الأوكرانيين، أما الطعام

فكان يتم التفضل به للكهنة الروسيين أثناء حفلات الاستقبال التي يتم عملها في القاعة الخاصة بـ "الأخت الصغيرة". كانت تلك السامرية الساحرة تصب كراهيتها الخاصة عليّ. كان هذا في حد ذاته شرفا أكثر من كونه مشكلة لأنه جعلني أتحدث باستمرار مع السلطات الألمانية بشأن استنكاراتها العديدة لي. ولحسن الحظ، لم أجني شيئا من كل هذا. وفي الوقت نفسه، لم يفلح الكفاح من أجل القليل من النظافة في المستشفى.

وفي شهر ديسمبر وصلت شاحنة تقل عددا كبيرا من المرضى. لم يوفّر الألمان طعاما أو مكانا للإقامة. فتم إيداع المرضى ثانية في مستشفى يسوع التي ازدحمت بهم. قام الجنود الألمان بإلقائهم ببساطة على الأسرّة. لقد كان المرضى في حالة ضعف شديدة. أغرقت الدموع وجه أحدهم عندما تم إعطائه قليلا من اللبن، فأخذ يردد "ولكنه لبن بولندي!" بينما أفلتت أصابعه، التي لا تستطيع حمل الكوب، فوقع بين طيات مئزرتي. وفي الوقت نفسه، في سرير طوابق مجاور بدأ رجل يموت. أغلقت عيناه وكان هناك غرغرة في حلقه ونطق بعض الكلمات: "على الأقل... لقد جئت إلى هنا... وأنا أموت... في بولندا..."

حضر قديس يسوعي صغير مكرس الذي يفتقر على نحو مقلق إلى المناعة ضد هذا الوباء المتزايد من القتلى والذي تحرّك وسطهم بهدوء وتلي الشعائر الأخيرة بجانب كل سرير واحد تلو الآخر: "ربي، أوصل روح عبدك كما أوصلت روح نوح من الفيضان، والأطفال من الفرن الناري ودانيال من بين فكي الأسد." على الرغم من أن كل مناسبة مماثلة تحتاج إلى تحرك سريع ودقيق، إلا أنني في كل مرة أستمع فيها إلى تلك الشعائر تقفز صورة المقابر الرومانية أمام عيني. فالمحتوى اللفظي هو نفسه الذي قيل أثناء الصلاة على مقابر أول مسيحيين دفنوا هناك. فعلى مدار الألفي سنة الماضية، كانت الكنيسة ترافق المخلصين إلى بوابات الخلود في نفس هذا الطريق...

أما هؤلاء ذوي الحالات الأقل خطورة فظلوا منتظرين في الممر حتى أتي الألمان ليجمعونهم في المساء. وفّر الألمان لهم مكانا للإقامة ببساطة عن طريق الاستيلاء على آخر مبني للصليب الأحمر البولندي الذي سيتم بناءه -وهو عبارة عن مستشفي مجهزة حديثا ولكن لم يكتمل بنائها، على طريق برادنيك سزروني. فهذا هو المكان الذي أرسلوا إليه من لازال يستطيع الوقوف- إلي بيت بلا أية وسيلة للتدفئة وبلا إضاءة. لكننا استطعنا نقل مراجل الحساء الساخن لهم بمساعدة بعضا

من سيارات النقل التابعة للألمان بعد توضيح الأمر للسائقين بغطرسة أنه يجب نقلنا إلى هناك على الفور. كنا نعلم جيدا أن السؤال المهذب كان سيتم رفضه بشكل قاطع. وكانت النتيجة مرضية للغاية. فانتظرنا السائقون خارج المستشفى وقادونا بالأوعية الفارغة. وجائت حقيقة أنني أتحدث لغتين إحداهما الألمانية مفيدة للغاية في تلك المناسبة.

ظهرت مشكلة أخرى في مستشفى برادنيك. كان رد فعل عدد من الجنود المتواضعين الأصحاء نسبيا اتجاه كل هذا هو غناء أناشيد وطنية لكن هذا الأمر كان ممنوعا بشدة، وخاصة أنشودة بوز، كوز، بولسك". كان يجب أن يوضح لهم أنهم يعرضون أنفسهم للخطر بدون داعي. استمعوا على مضض ووعدوا في النهاية "بأن يعبّروا عن أنفسهم في قداس يوم الأحد". وبالفعل، غنوا كل ترنيماتنا الدينية فقط في القداس. ولكن بعد انتهاء القداس، وقفوا وقفة رجل واحد بما يدعو للاهتمام ولم يشك أحد فيما سوف يحدث – فجأة: "سيرديسزنا ماتكو"... على الأقل كان اللحن هو نفس اللحن.

وفي النهاية، رحل هؤلاء الرجال أيضا. كان هناك عقبة واحدة أخيرة في محطة القطار حيث أحاط بنا الألمان الذين لم يرفعوا عيونهم أبدا من علينا. حينما كان الكل بالخارج، قفز بعض المرضى الأصحاء نسبيا من سيارة النقل ووقفوا أمامي في مجموعة صغيرة، والتي أعلن قائدها الأكبر سنا بصوت عال جدا: "يود الضباط غير المكلفون / المتقاعدون ورجال الجيش البولندي أن يتقدموا بخالص الشكر للصليب الأحمر البولندي والممرضات، ويأملون في أن يقابلوهم مرة أخرى قريبا وهم يقومون بعمل أفضل."

وبعد رحيلهم، تمكّنت ثانية من الذهاب إلى مستشفى يسوع والتي، حتى ذلك الحين، كنت اذهب إليها ليلا فقط في طريق عودتي من مستشفى برادنيك. وفي الوقت نفسه، كانت رينيا مسئولة عن العمل هناك. كان هناك سببا خاصا لكي أهرع إلى هناك ثانية. فلقد كان هناك صديق ينتظرني. فمن كانوا على وشك الرحيل، وخاصة هؤلاء الشباب الذين سيتركون تلك الحياة، عادة ما يكوّنوا علاقات قوية مع واحد ممن حولهم، وخاصة مع شخص كبير في السن إذ أنه يمثل دعما لهم، فهم يتمسكون بهذا الشخص بكل قوتهم مثلما يتمسكوا بالحياة حينما تهرب منهم. وفي بعض الأحيان، وعلي فراش الموت، تكون الصداقات التي تم تكوينها شديدة العمق والقوة.

كان الجندي الذي بكى عند وصوله عندما أعطيته كوب اللبن، برونيزلو كوزلوسكيو قد مات بعدها بفترة قصيرة حيث تضائلت قوته المنهكة يوما بعد يوم. فلم يعد يستطيع رفع رأسه ولكن انتباهه العقلي (كما هي عادة حالة المرضى هناك) كانت تبدو أفضل مما كانت. كان يريدني أن اجلس بجانبه كل مساء. تحدث كثيرا وأرهق نفسه بالحكي. ولكن الارهاق البدني لم يعد مشكلة ولذا لم أقاطعه. كانت حياة هذا الفلاح القادم من بلدة تريزميسزنو والتي امتدت لثلاثة وعشرين عاما قد استعرضت أمامه وتباهى بها أمامي من خلال حكاياته عن منزل عائلته وجيرانه حتى الأطعمة التي كانت والدته تصنعها له. لقد قص عليّ كل هذا بالتفصيل. لكنه كان إلى جانب هذا يعرض آرائه في أمور هامة. فمن المؤكد أنه متعطش جدا للمعلومات الخاصة بالمواد التي لا يمكن أن يكون قد قام بدراستها في المدرسة الحكومية. تحدث بحماس عن المكتبة العامة في تريزميسزنو حيث قرأ كل شيء. شعرت ذات مرة أنه يريد أن يعرف شيئا عني إلا أنه خجله منعه من أن يسألني. لذا أخبرته أنني كنت أعيش في منطقة حول "لاواو" ودرست في الجامعة قبل الحرب. وعندئذ تغير وجهه وتوقف فجأة عن منادتي بلقب "ممرضة".

"تخيلي فقط. لقد كنت تعلمين كيف تدرسين في الجامعة والآن تقدمين مشروبا لرجل مثلي!" ومنذ ذلك حين صار يعاملني باحترام. ومن جانبي، فكّرت مليا، للمرة الألف في حياتي، في أن جعل التعليم متاحا لكل من يطلبه، بدون تفريق بين المستويات، هو واحد من أعلى المثل الإنسانية.

كان دائما ما يتحدث عن الماضي: "أحببت... ظننت". تذكّر أن لويس الرابع عشر قال يوم توفي :"عندما كنت ملكا." كان هذا الجندي الصغير واعيا جدا بقرب موته، وكذلك أنا. لم أكن ضد ذكره للموت. لقد كانت لديه أمنية واحدة، واحدة فقط: أن يعيش حتى قدوم يوم رأس السنة. لقد كان يقول كل مساء: "لقد كنت أنتظر زيارتك اليوم والآن يتبقى أربعة أيام، ثلاثة، يومان... من المحتمل أننا لا زلنا قادرين على قضم الرقاق المقدّس معا. أعلم أنني ضعيف جدا بالفعل ولكني أعتقد أن أستطيع أن أفعل ذلك." وفي يوم ٢٢ ديسمبر كانت حالته قد ازدادت سوءا لذا اتصلت بالمستشفى في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ولكنني تأخرت جدا. لقد مات ليلا. يبدو أنه في اللحظة الأخيرة قد ثار ضد الموت ومات وهو يقول: "أريد أن أحيا!" وفي ذلك الصباح –وفي المستشفى الممتلئة بالمرضى، وهو

العمل الذي انجذبت إليه- بدا كل شيء فارغا وغير مجدي بشكل مرعب، ولكن لم يكن هناك وقت للحزن.

جاء عيد رأس السنة وجاءت معه معركة من معارك هومر ضد الألمان وذلك بسبب طلب الإذن بعمل احتفال مشترك. هرعت إلى القيادات المتعددة وأوضحت أن هذه ربما تكون المرة الأخيرة التي يحتفل فيها هؤلاء الجنود بهذا العيد الرسمي في حياتهم ومن الصعب أن نمنعهم الاحتفال به.

"كل ما يرجونه هو السماح لهم بأداء الصلاة بشكل جماعي."

"ولكنهم سيبدأون في الصلاة من أجل تحرر بولندا."

" أعدك بألا يفعلوا ذلك بصوت مرتفع."

وعند هذه النقطة، انفجر الرجل الذي كنت أتحدث إليه، وهو نقيب سابق في الجيش النمساوي، ضاحكا.

"حسنا، سأعطيكي الإذن بالاحتفال، ولكن ما في قلوبكم وتصلون من أجله لا يخصني في شيء."

ثم احتفلنا برأس السنة وبعدها، حضر هؤلاء ممن يتمتعون بصحة جيدة قداس منتصف الليل وغنوا ترانيمه. لقد كان حقيقة أفضل عيد رأس السنة قضيته منذ الحرب. وبعد الإجازة، تم دفن كوزلوسكي. وعندما كان أحد مرضانا يموت، كانت الممرضة التي ظلت بجانبه حتى النهاية تسير وراء النعش وتضع علي قبره وردة حمراء وأخرى بيضاء. وفي هذه المرة، كان هو دوري ثانية. فأثناء تلك العاصفة الثلجية المريعة، مشيت وراء النعش، وحيدة، وكنت أفكر في المرضى الآخرين المتعددين الذين كنت مسئولة عنهم في تلك اللحظة.

وفي هذه الأيام كانت مهمتي في مستشفي يسوع قد ازدادت حين أسندت إليّ مهمة رعاية الجنود الجرحى في العنابر الأخرى لمستشفى القديس لازارس. لقد كانت تقابلنا مشاكل عديدة هناك. ففي هذا المجال، كان عليّ الاتصال بالمدير الطبي الدكتور "فسكيدر" من "برلين". طلب مني أن أذهب له في وقت مبكر حيث أنه يكون دائماً سكرانا / ثملاً في آخر النهار وفي تلك الحالة يكون من الصعب الحديث معه. فأيا كان ما تقول فإنه سيصر – أينما يذهب– على أن يحيه الكل وأن يقوم الكل (بما في ذلك السيدات) بالانحناء له أولا. لقد ذهبت إلي مكتبة في الساعة التاسعة والنصف صباحا، وعندما وصلت رأيت أنني تأخرت كثيرا. فصاحب المقام الرفيع ذو الجسم الضئيل كملك إيطاليا السابق فيكتور ايمانويل حيّاني باحترام مضحك وطلب مني الجلوس – وهو شيء نادر عند الألمان. فقلت له أنني أريد إذنا

مكتوبا لزيارة المرضى العسكريين وتوزيع الطعام عليهم. قاطعني بسيل من الكلمات لدرجة أنه كان ينتظرني منذ فترة طويلة ليخبرني بشئ مهم وهو أنه مستعد للتوقيع على أي شئ أريده – أي شئ ولكن في حالة واحدة: من الآن فصاعدا يجب أن ينحني له كل الموظفين البولنديين في الصليب الأحمر عند رؤيته. لقد استمعت في صمت لقد أعاد كلامه عدة مرات عندما كان يوقع– بيد مرتعشة بشكل واضح – علي تصاريح الدخول التي نحتاجها والتي وضعتها أمامه.

وفي النهاية، بدأ صمتي يزعجه. لقد سألني عدة مرات بصوت عال على نحو متزايد هل فهمته أم لا ولما أمثل خيبة أمل بالنسبة له في الوقت الذي، من جانبه، كان يضع ثقته في. أضاف بحزن قائلا: "وأنا الذي كنت أظن أن الكونتيسة يجب أن تكون شخصية مثقفة". قاومت بشجاعة كي أحافظ على ثبات تعبيرات وجهي وجلست كالتمثال. وفي النهاية، حرّضته تلك المواجهة مع جان دارك عجوزة على إثارة غضبه وهو مخمور.

صاح "على الأقل أخبريني في أي شهر ولدتي!"

"أغسطس."

"هذا طبيعي! ويلزم أن يكون هنذا قبل الحادي والعشرين من أغسطس؟"

أجبت والذهول يعتريني "لقد ولدت في الحادي عشر من أغسطس."

صرخ بغضب "أعتقد أنني فهمت الآن. فيمكن أن تدرجي مع من ولدوا في نهاية الشهر - مواليد برج العذراء. لكنك من برج الأسد! يجب أن تكوني كذلك!" صرخ بتلك الكلمات وهو يضرب الطاولة بيده عدة مرات. لقد أردته فقط أن يعلم أني أملك هذا الأسد في معطفي المسلّح الذي يقذف لهبا. لم أعلم إلى أي مدى سيأخذنا هذا الموقف. فلقد كنت خائفة أن يستعيد تصاريح الدخول التي كانت بالفعل في حقيبة يدي. ولكنه، لسبب غير معلوم، أصبح أكثر هدوءاً معربا عن سعادته بأننا تفاهمنا سويا وتوصلنا إلى اتفاق (حتى الصراع التالي من أجل حرية بولندا). هكذا انتهى الأمر. بعد ذلك، لم نواجه أي مشاكل في دخول أي عنبر من عنابر المستشفى.

على العكس، فلقد استأنفت مشاكلنا مع الممرضة جوزيفا أضعافا مضاعفة. كانت كراهيتها لنا ولعملنا إلى حد مفهومة. لقد كان من بين المرضى التابعين لنا الكثير من الأوكرانيين وحيث أننا مسئولون عن كل جنود القوات البولندية الذين عهدوا إلى

عنايتنا، فكنا طبيعيا نعامل الأوكرانيين بنفس الطريقة التي نعامل بها البولنديين. ولكن هذا آثار جنون الممرضة "جوزيفا"، وبالتحديد عندما أصبحت العلاقات بيننا وبين هؤلاء الجنود على ما يرام. لذا ذهبت إلي الألمان الذين يكنون لها كل تقدير واحترام (فهي تصنع لهم كعكا عالي الجودة) واتهمونا، نحن الممرضات البولنديات، كذبا بأننا نظل في المستشفى أثناء الليل ونتسلل من المستشفى في الصباح من الباب الخلفي. وفي اللحظة التي تم استدعائي فيها إلى مكتب مدير المستشفى، قام نائبه، وهو ينتمي لبروسيا (فدكتور فيشيدر نفسه كان يبدو غير واعي تماما في ذلك اليوم) ومعه رئيسة الممرضات (وهي طباخة سابقة) بإخباري أن هناك شكاوى ضد الصليب الأحمر البولندي. شعرت بالغضب والقلق حيث أنني كنت دائما أخاف أن يقوم الألمان بطردنا من المستشفى وترك جنودنا المرضى بلا رعاية. تقمصت دور مغنية الأوبرا الأولى المهانة وتساءلت عن نوعية الشكاوى. كانت الإجابة هي أن نوعية الشكاوى "أخلاقية". اعتراني الذهول. كنت أعلم أن الألمان سيغضبون لو انفجرت ضاحكة ببساطة. لذا تظاهرت بمزيد من الاستياء، لأنني لم أكن أستطيع التفكير في فعل شيء آخر. صرحت بكلام منمق يستحق القول في موقف أفضل أنني الوحيدة التي تظل في المستشفى ليلاً وأنني اعتدت طوال حياتي على استخدام الباب الأمامي الرئيسي. ولأن صوتي كان عالياً، بدأ الألمان يتحدثون إليّ في هدوء ملحوظ. ومرة أخرى، انتهي الأمر علي ذلك.

كان هناك الكثير من العمل في المستشفى وكان الكثير منه مطلوب بشكل غير عادي. كانت مرافقة المرضى الدائمة حتى يتمسكوا بالحياة وحقيقة أنه لا يوجد من يتعافى من مرضانا كانت تصيبنا بالاكتئاب.

في تلك الفترة اقتربنا بشدة من بعضنا البعض. فرانيا كانت الأقرب لي في ذلك الوقت ولكن اليوم، بعد كل تلك السنين، لازلت أتذكر الكثير من الزملاء الآخرين المقربين لي. ستاسيا كانت إحداهم، وكانت طاهية ممتازة وحققت موهبتها في الطهي سعادة غامرة للعديد من الفقراء؛ مانيوزيا كانت رقيقة للغاية ودقيقة جدا؛ واندا كانت قوية، فظة، أمّا صريحة وواقعية مثل كل من في المناطق المحيطة بنا. وكان هناك كريستينا لادوميرسكا، ناكرة لذاتها تماما، ساحرة، صغيرة، مرحة، ويعشقها كافة المرضى. كانت تريد أن يصبح عملها في بولندا مهما عن زوجها الضابط الـتي تتـحدث عـنه بـفخر – والـذي كانت سمعته جيدة في

انجلترا كلها.

كانت الأحوال تتدهور. ففي كل مناطق كاراكوا كان الناس يطردون منازلهم. وكانت كل الشقق الفخمة (تماما ككل حانة ومطعم محترم) قد تم تخصيصها بالفعل للألمان. قام المزيد والمزيد من الألمان بإحضار أسرهم للعيش في "كراكوا". إن الأطفال الألمان كانوا يعاملون البولنديين تحديدا بوقاحة. وعلى الرغم من أنه كان هناك عربات من الترام محجوزة للألمان، واصل المسافرون الألمان الجلوس في الترامات القليلة التي لازالت متاحة للبولنديين. كانت النساء الألمانيات يتسائلن بصوت مرتفع "متي سيتم وقف هذه المهزلة ويمنع البولنديين من ركوب القطار؟" في الحقيقة، كانت المساحة المتاحة أمام البولنديين كانت تلك الواقعة بين الحي اليهودي السابق، القذر بدرجة لا يصدقها عقل، ومحطة القطار المتجة لكازيميرز. وفي هذا الوقت كان اليهود الموجودون في كل المدن البولندية متجمعين في معازل محاطة بجدار عالي. وعلى الرغم من الرعب الذي نعيش فيه، وعلى الرغم من عدم قدرتنا على الاعتراف بأن أحدا يمكنه تصور وتنفيذ مثل هذه الخطة، فلا يوجد ضمننا -حتى أكثرنا تشاؤما- من يجرأ للحظة على الشك في أن الألمان، من خلال حجز اليهود في أماكن ضيقة وعزلهم عن العالم، يتصرفون كأنهم يعدون لشيء ما.

كان بقاء البولنديين أيضا يزداد صعوبة. فبقوة أكثر وعند كل خطوة كان يتأكد أننا نحن البولنديين دون مستتوى البشر. كانت المقاومة الأخلاقية تزداد بوضوح في وجه كل هذا؛ ماديا، كنا نشعر أننا لا حول لنا ولا قوة في أيدي الحاكم العام الألماني هانز فرانك الذي يعيش في قلعة واول، والذي تتنافس أفعاله مع أفعال من سبقوه الذين تولوا هذا المنصب الرهيب على أرض بولندا. رأيته مرة واحدة فقط. كنت ذاهبة إلي السوق القريب من شارع براسكا حينما خرجت خمسة سيارات ومجموعة من الدراجات النارية وهي تتحرك بأقصى سرعة من شارع فرانسيزكانسكا وتوقفوا أمام بارتي - هاوس (مقر الحزب النازي). قفز رجال الحزب النازي وهم يحملون القربينات من سياراتهم، وبسرعة البرق، شكّلوا كوردونا مزدوجا من الرصيف حتى الباب الرئيسي. وفي نفس الوقت، جاء رجل يرتدي الزي العسكري أسود السعر والعينين وهو يسير بسرعة. وكان هناك زوج من المساعدين يكادون يركضون وراءه حتى يلحقوا به. لو لم أتعرّف على وجهه -فصورته كانت في كل مكان- لكنت عرفت من هو

من خلال الخوف الهائل الذي لم يفعل شيء ليخفيه، فكان يحدّق شمالا ويمينا خلال كل خطوة يخطوها حتى اختفى وراء الباب الذي أغلق على الفور. من المحتمل أن يكون ألبا قد شعر براحة أكثر في بروكسل. ولكن ألبا كان إنسانا عاديا أكثر مما يمكن قوله على الحاكم فرانك. فالأباطرة الرومان كانوا يسلكون ضربا من الجنون ولكنهم كانوا يفعلون ذلك على نطاق واسع مثل كلوديس وكاراكالا. فرجلنا المجنون هذا استولى على تحفا فنية (تحفة ليوناردو التي يملكها آل سزارتوريسكي والمعلّقة في قصره). أعاد بناء كريسندورف، مقر بوتوسكيس (كرزيسزويس بوتوسكيخ) ليكون منزلا له. ولكن، فوق كل هذا، ألقى هذا الرجل المسمى فرانك خطبا قال فيها أنه لن ينسى.

وفي الذكرى السنوية الأولى للحكومة العامة، أعلن على الملأ أن "الأرض ستختفي من الوجود قبل أن أن يتوقف علم الصليب المعقوف عن الرفرفة فوق هذه المدينة." وفي يوم افتتاح المبنى الجديد لمكتبة جاجيلونيان، والذي استكمل مباشرة قبل اندلاع الحرب، أعلن أن المكتبة ألمانية حيث أن من صنعوا التاريخ هم فقط من يسمح لهم بدخول المكتبة وأن الإنجليز قد يبنون أوكارا للأفيون في المستعمرات التي يحتلوها. هذه التصريحات وغيرها كان من الممكن أن تثير المرح لو لم يصاحبها سكب دمائنا أنهارا.

عرفت أن في تلك الأيام كان هناك حصة محسوبة بدقة – أي عدد محدد من البولنديين الذين يجب أن يعتقلوا دائما في السجون أو معسكرات الاعتقال. ولو لأي سبب (كارتفاع معدل الوفيات) انخفضت نسبة المسجونين ولم يكن هناك أي حجج معقولة للقيام باعتقالات جماعية، فيتم تنظيم جولات المتابعة. عادة لم يكن هناك سببا لتبرير الاعتقال وسجن من احتوت الحصص بالفعل على أسمائهم. بدأت الاعتقالات في التزايد بشكل خطير. فلقد امتلأ سجن من ونتيلوبي بمن تم تعذيبهم. وكان هناك تقارير عن المزيد من سفك الدماء من جميع أنحاء البلاد، وخاصة وارسو. فهناك، ومع وجود أكبر عدد من السكان، كانت المقاومة المحلية في قمتها. ففي كل مرحلة كانت العاصمة تمثل لنا نموذجا. فكلما زادت مقاومتهم كلما زادت التضحيات. كانت جولات المتابعة في وارسو، والتي يطلق عليها الألمان (المطاردات) عديدة ومكثفة أكثر من أي مكان آخر. وخلال واحدة من "المطاردات" الرئيسية، كانت ابنة أحد المعارف، وهي

فتاة صغيرة جميلة، على وشك الدخول إلى منزلها عندما قابلت شابا في مدخل المبنى في طريقه للخروج.
حذرته قائلة "إلى أعلى، بسرعة، هناك مطاردة!". شحب وجه الشاب. همس قائلا وهو يحاول الهروب "حقيبتي!" ولكن في نفس اللحظة هرع رجال الجستابو إلى داخل المدخل وأوقفوه. فقامت الفتاة على الفور بوضع ذراعيها حول عنقه وانفجرت باكية وصرخت "حبيبي، قرة عيني! حبي الوحيد - سيفرقونا." وفي الوقت نفسه، انتزعت حقيبته وركضت إلى أعلى. ألقى القبض على الشاب. عادت الفتاة سالمة إلى شقتها وفتحت الحقيبة.فوجدتها مليئة بالمنشورات السرية. سألتها والدتها "هل تعرفين ذلك الشاب الذي أنقذتيه من موت محقق؟" "لا وأقسم لكي بحياتي! فليس لدي فكرة عن شكله."
لقد كان الأعداء عاجزين أمام المقاومة في العاصمة، فما كان أمامهم سوى التخلص من السكان هناك فهذا هو أسهل وأبسط الحلول بالنسبة لهم. ومن ضمن المقاطعات البولندية الأخرى كانت رادوم هي أكثر مقاطعة ألحق بها الضرر. فهناك، تفوق الألمان على أنفسهم. كانت قوة المعارضة الأخلاقية ضد كل هذا تنمو باطراد ولكن في الوقت نفسه كنا نسأل أنفسنا في كثير من الأحيان ماذا سيكون الحال عندما تتحرر بولندا ثانية ولم يعد يبقى الكثير من شعبها ليعيش... لقد كان هناك العديد من المرات التي لقى فيها مئة شخص يوميا (وهم من وصلتنا أخبار عنهم) مصرعهم في أوستشاوتز. فجزء من الكل هم فقط من أطلقت النار عليهم أو ضربوا بأعقاب البنادق حتى الموت؛ أرجت معظم الوفيات إلى "التهاب الرئتين". عرفنا أنه في الشتاء كانوا يأمرون المسجونين بالوقوف لساعات في الجو قارص البرودة بملابس قطنية ويؤمرون في الربيع بالعمل في الماء من النهار إلي الليل.
إن ردهات الكنائس في كاراكوا ألصق عليها إشعارات عن الموت: الإسم المسيحي واللقب الخاص بمن توفوا في سن التاسعة عشر أو العشرين أو الثلاثين. يقام القداس الجنائزي... لو لم يذكر النعي الدفن، يعرف المارة عند القراءة بتمعن ماذا يعني هذا - وكان النعي من هذا النوع يظهر في أغلب الأحوال.
وفي هذه المأساة التي لا يصدقها عقل كان هناك ميزة تعويضية بالمقارنة مع الاعتقالات والترحيلات التي ينظمها غازينا القادم من الشرق. فمع الروسيين، يختفي الناس كأنهم حجر

سقط في الماء؛ لا يستطيع أحد أبدا أن يعرف عنهم شيئا، ناهيك عن تجديد الاتصال معهم. الوضع مختلف هنا – بفضل الألمان.

منذ اللحظة التي احتلت فيها بلادنا، عاشت بولندا على قناعة تامة بوحشية الألمان فضلا عن الأمانة الشخصية المشكوك فيها. وبمرور الوقت، اكتشفنا ميزة شديدة الأهمية لدى هذه القوة المحتلة: ألا وهي حساسية الألمان الاستثنائية تجاه إغراء الممتلكات المادية، ويصاحبها فقدان تام للحساسية تجاه الوسائل التي يتم الحصول بها على تلك الممتلكات. المفاجأة الأولى تمثلت في طمعهم المعلن الذي لا يمكن وصفه في النهب والسلب لأثاث المنازل على سبيل المثال. في وقت مبكر من شهر نوفمبر ١٩٣٩ تم "إخلاء" منزل يمتلكه مدرسين في الجامعة في شارع روسيا، بمعنى أن عائلات هؤلاء المدرسين، الذين تم إيفادهم إلى معسكر الإعتقال في ساشسنهاوسن، أعطوا عشرين دقيقة لإخلاء شققهم – وحدث ذلك أثناء الليل والأضواء مطفأة. فم يكن منزل مدرسي الجامعة استثناءا. لقد هجم الألمان على منزل عائلة نعرفها في شارع زيجمونت اوجست وصرخوا وهم يلهثون "أين البساط؟ هيا بسرعة!"

كان من يطلق عليهم "الأوصياء" يتصرفون بنفس الطريقة. فلا أعرف حالة إلا وقام الوصي بتهريب كميات ملحوظة من الأشياء من عزبة أو قصر، وخاصة عندما يكون هناك أثاثا عتيقا وخزف، وفوق كل شيء، الساعات.وحيث أن الحاكم العام فرانك وفيلد مارشال جورنج يقومان بنفس الأفعال على نحو علني ورسمي، فلما لا يفعل ذلك هؤلاء من هم دون المستوى ولكن على نطاق أقل؟ ولكن بالنسبة لنا، فهذا لم يكن أهم جانب من شهوة الألمان تجاه الممتلكات. فكان هناك شيء آخر – ألا وهو الفساد. كنا عادة نشعر بالامتنان تجاه تلك التصرفات من الألمان حيث أن هذا جعل معرفة المكان الذي يحتجز فيه شخص ما ممكنا. فمقابل مبلغ ضخم من المال، يمكن أن يتأكد رجل الجستابو من وصول حزمة إلى المسجون وقد ينجح أحدهم، مقابل مبلغ أكبر من المال، في إطلاق سراحه. وأثناء سنوات الاحتلال الطويلة كانت تدفع أموال بولندية كثيرة لهذه الأغراض. ومن الواضح أن الهدف قد تم تحقيقه في مناسبات استثنائية قليلة.

وهذا كام ما يجري: فعقب إلقاء القبض على مواطن بولندي، يقوم شخص ما بالتصال بالزوجة في شقتها أو في شقة أحد المعارف ويعرض "المساعدة". كان الوعد المعتاد أنه في يوم محدد

(غالبا ما يكون قريبا جدا) وفي مكان محدد، وكان يتم تحديده بدقة، إذا تم دفع مبلغ كبير من المال، سيتم الإفراج عن المسجون. وبدون إحداث ضجة، كانت العائلة اليائسة -والتي غالبا ما تتكون من النساء فقط - سواء كانوا أمهات أو زوجات- ببيع ما تبقي من حليهن والذهب والدولارات أو الأعمال الفنية ويقمن بدفع الفدية. وبعد ذلك، كقاعدة، لا يرة رجل الجستابو ثانية. وفي حالات قليلة يتم الإفراج بالفعل عن المسجون ولكن في وقت ما وبصورة نادرة، أصبحت هذه الوسيلة لابتزاز المال صعبة جدا. ثم بدأ الألمان يبدأون بطلب نصف المبلغ فقط مقدما، والنصف الثاني يتم دفعه وقت الإفراج. وفي بعض الأحيان، كان رجل الجستابو يسعد بالدفعة الأولى، وأحيانا قد يتلقى الدفعة الثانية أيضا ويفرج عن المسجون. وعلى الرغم من ذلك، وفي معظم الحالات، كانت الحرية عمرها قصير ويتم اعتقال الضحية مرة أخرى في نفس الليلة.

ومع الوقت كنا نخاف أكثر وأكثر من أن تصل أخبار من تم نفيهم إلى معسكرات الاعتقال. فمعدل الوفيات هناك هناك، وخاصة في أوزشويتز، كان أكثر بكثير من من السجون، وبالمثل كانت فرصة إخراج مسجون تضعف أكثر وأكثر. وبعيدا عن هذا، كنا نعيش في خوف دائم أنه عند هزيمتهم النهائية سيقوم الألمان بقتل كل من في المعسكرات قبل الاستسلام. ولم يكن حتي وقت لاحق -لاحق بكثير- أن وجدت نفسي "على الجانب الآخر من الحياة"، أي أنني تعلمت، من أجل العديد من المسجونين في السجن، كم أن الرحلة إلى المعسكرات تمثل أقصى أحلامهم. فالموت ينتظرك في المعسكرات. والكل يعرف ذلك. ولكن الإرسال إلى معسكر الاعتقال من السجن عادة -وليس دائما- ما يعني نهاية ذلك الكابوس المرعب، الخوف من الاعتراف بالأسرار من جراء التعذيب.

ومن بين مرضانا في المستشفى كان هناك من ليسوا فقط معتقلين في معسكرات أسرى الحرب. فعلى سبيل المثال، الملازم ثان سيزلو بيليويز، مدرس من "زوايك" والذي هرب من الحبس ثم ألقي الألمان القبض عليه مرة ثانية وأرسل إلى معسكر اعتقال. وهناك كانوا يتركونه بلا ملابس في خيمة أثناء شتاء الحرب الأول قارص البرودة. أصيب هذا العملاق الصغير ذو الجسم الرياضي بمرض السل. ومن هناك، وبعد عدة أشهر، تم نقله ثانية إلي معسكر لأسرى الحرب - ولكن كانت حالته متأخرة. كان الرجل يموت لأن لم يستطع استخدام رئتيه

استخداما سليما لفترة، ولكنه بقي على قيد الحياة بسبب قوته المطلقة. لذا عاش هذا الرجل القوي في أوائل العشرينات من عمره يلهث لساعات طويلة، لأيام، لأسابيع. فكل ما طلبه هو أن يكون دائما هناك أحد معه، أو كما قالها "شخص ليتحمل نصف ألمي." وفي النهاية، في الخامس من فبراير، توقف عن المعاناة.

وفي غضون ذلك كان عدد المرضى الجدد قد بدأ يقل. كان الموت هو مصير الكثيرين في ألمانيا / الرايخ ومن الواضح أنه تم إخلاء المستشفيات في الجزء البولندي الذي تحتله ألمانيا. أسعدنا هذا، كما أسعدنا أي دليل آخر على أن كل ما كنا نحلم به قد أوشك على التحقق. لقد كنا نصلي إلى الله من أجل "حربا عالمية لتحرير كل الشعوب". كنا نؤمن بأن الحرب بين روسيا وألمانيا هي الحل الوحيد للمشكلة البولندية وكنا نتطلع إلى اندلاعها بفروغ الصبر. كنا نؤمن بشدة أن الألمان سيهزمون الروس ثم يقضي عليهم الحلفاء بعدما يكونوا قد أنهكوا بالفعل. وبالتالي يكون عدوينا قد انهزما وترتفع بولندا بينهما وهي تتمتع بقوة معنوية من جراء الوحدة والانسجام الجماعي اللذان نقلوا إلينا نتيجة هذا الكفاح الرهيب. نعرف أن الفدية –الثمن الذي سيدفع من دمائنا- ستكون ضخمة، ولكننا كنا نشعر أننا نمتلك اليوم شيئا لم تقتنيه الشعوب الأخرى (ومن ضمنها بولندا)على مر التاريخ، فلقد خلقنا وحدة وطنية والتي ستبدو الاختلافات السياسية الحزبية أو الطبقية أمامها مجرد أمراض طفولية ذهبت ولن تعود أبدا.

أعطاني نشاط المقاومة السرية المكثف أثناء هذه الشهور الحرجة شيئا لأفعله، بطريقة متواضعة ولكن مشوقة في نفس الوقت. كانت الأوامر الموجهة لي هي ترجمة المنشورات -التي تهدف إلى إضعاف جيش الاحتلال الألماني- إلى الألمانية أو إعادة كتابتها بأسلوب مناسب.

وفي مناسبة أخرى، اتصلت بي باسيا، وهي الضابط المكلفة بالاتصال بي في السر، أثناء ساعات عملي في الصليب الأحمر. لم يعجبني هذا الأمر إلا أنني أعلم جيداً أنه يجب أن يكون هناك أمر هام.

ولدهشتي سألتني: "هل تتحدثين الإنجليزية؟"

قلت: "نعم."

"شكرا للرب. فأنت الأمل الوحيد لجان."

"وما صلة جان بتحدثي اللغة الإنجليزية؟"

"هناك رجل إنجليزي."

"أين؟"
"في شارع الملكة جادويجا. يريدونك أن تذهبي بعد ظهر اليوم لأنه لا يوجد أحد ليتحدث معه. فهو تقريبا جندي مظلات. ويجلس هناك مع اثنتين من نساءنا. ستحتاجين إلى تقديم تقرير غدا عندما ترين براودزيك." ثم أعطتني عنوان وكلمة سر. ظننت أنني لن أستطيع كبح جماح فضولي حتى بعد الظهر. فالأمر كان يبدو غريبا لي – فكرة إسقاط جندي مظلات لا يتحدث البولندية. ولكن هذا لم يقلل فضولي.

وفي النهاية انتهت ساعات عملي واستراحة الغداء. خرجت بسرعة. كنت أحتاج إلى الذهاب إلى تل كوزكيوسزكو. وجدت البيت بعيدا بعض الشيء عما حوله من المباني. وجدت الشقة. فتحت لي امرأة عجوز وتبادلنا كلمة السر والإجابة عليها ودخلت حجرة كان يجلس فيها شاب أشقر الشعر مستندا بظهره إلى الباب. ولم ينفد صبره عند رؤية شخص غريب ولم يحرك رأسه. وبالتالي لن يكون هناكأي شك حول جنسيته. درت حول الطاولة التي يجلس أمامها ووقفت أمامه ومددت يدي."كيف حالك؟"

عند هذه النقطة فقط خرج الشاب الأشقر متورد الوجنتين من صمته وابتسامة مرحة مد يده.

سألته: "كيف جئت إلى هنا؟"

"لقد هربت."

"من أين؟"

"من مسكر لأسرى الحرب – ستالاج."

"لماذا؟"

"لأن الحياة هناك لم تكن تحتمل. لقد تحدث معي عامل صغير يعرف بعض الإنجليزية هناك وأعطاني بعض الملابس ودراجة. ثم أخذني إلى بيوتركو – إلى بعض الناس في منظمتكم."

فسألته: "كيف ذهبت إلى المعسكر؟"

أجاب: "اعتقلت في دنكيرك."

"إذا فأنت لست جندي مظلات؟"

"كلا. على الإطلاق. لقد كنت في الحرب ليومين فقط ثم ذهبت إلى المعتقل، وبعد ذلك فعلت شيئا غبيا وهربت."

سألته: "ولماذا غبي؟"

"لأنني أعرضكم جميعاً للخطر. أعرف ذلك. لا يوجد سبيل للخروج. ثانية إلى المعسكر، فهم لا يعلمون أنه أمرا صعبا للغاية."

دونت اسمه ووحدته. أتذكر أن اسمه الأول هو ويليام. كان ميكانيكيا وكانت والدته تعيش في لندن. في اليوم التالي قصصت القصة الكاملة لـ "براودزيك"، والذي كان سيفضل بالتأكيد أن يكون ويليام جندي مظلات. أعطاني عنوان جديد في شارع راكويس، خلف المقابر وطلب مني أن آخذ هذا الرجل الإنجليزي إلى هناك. أولا، كان عليّ أن أسأل هذا الرجل الإنجليزي إذا كان يوافق على تسليمه للبلاشفة عبر نهر سان. فلا توجد وسيلة أخرى لإخراجه. وسوف نرسل معه خطاب إلى الروسيين مكتوبا باللغات البولندية والإنجليزية والروسية محتواه أنه رجل إنجليزي هرب من إحدى معسكرات أسرى الحرب الألمانية. ولتأمينه، سيتم بث تفاصيل دقيقة إلى لندن، لإخبار قائده ووالدته. وتم توضيح هذا بدقة في الخطاب الموجه إلى الروسيين. وهذا ما فعلناه منذ يومين مع رجلين فرنسيين واللذين –وفقا لما سمعناه– تم استقبالهما بشكل جيد على الجانب الآخر من النهر.

عندما عرضت هذا كله على ويليام، أبدى حماسا كبيرا تجاه تطبيق تلك الفكرة. شعرت أنه يتوقع بعض مغامرات الهنود الحمر المثيرة، وفي الوقت نفسه، طلب بإصرار أن يتم السماح له بالبقاء معنا اسبوع أو اسبوعين. لم أستطع فهمه حقا. فإخفاء رجل في كاراكوا وهو لا يعرف أية لغة ما عدا الإنجليزية كان يعرض الكثير منا للقتل. ولقد ذكر بنفسه أن هذا يمثل خطرا عليّ. كما أن السجين الهارب من معسكرات الاعتقال يواجه عقوبة شديدة إذا ألقي القبض عليه. لقد بدا حريصا على الذهاب إلى روسيا فلما هذا التأجيل...؟ اعترف في النهاية أنه ترك بعض الهدايا مع مستضفيه السابقين في بيوتركوا الذين أعطوها له عشية عيد الميلاد، وكان يريد أن يحضر هذه الهدايا، وخاصة زوج من الأزرار المعدنية والذي كان منجذبا إليه بشدة. كان يريد أن يسترجع تلك الهدايا قبل قيامه بتلك المغامرة. بالنسبة لي، كان هذا يفوق طاقتي! قلت له وأنا غير متأكدة أنني إذا أطلقت النار عليّ نتيجة رعايتي له فيسكون هذا طبيعيا حيث أنه إنجليزي، ولكن استعدادي للموت لا يمتد بالتأكيد ليشمل زوج أزراره المعدنية. بدا مكتئبا. "إذا يجب عليّ الحضور بعد

الحرب وزيارة أصدقائي ثانية وأخذ زوج الأزرار المعدنية قبل الرحيل." قال ذلك وتبعني.

كان يجب علينا السير مسافة طويلة إلى جسر ديبنيسكي. لففت رقبته وجزءا من وجهه بوشاح لأن شكله إنجليزي محض على الرغم أنه، لحسن الحظ، لم يكن طويلا جدا. وعندما ركبنا سيارة أجرة ظننت أننا قد نتعرض لمشكلة. فكان السائق متعجبا حيث أن أحدنا لم ينطق بكلمة طوال الطريق إلى راكويس. لذا بدأت، طوال سيرنا، أن أشير وأوضح -بالبولندية بالطبع- المعالم التذكارية وكنائس كاراكوا القديمة التي كنا نمر بها. فجاءت إجاباته ذكيه عن طريق خليط متنوع من الهمهمات التي تدل على الفهم والإعجاب. قال "ومرة أخرى لن يكون أحدا قادرا على فهمي حينما تذهبي." وبعد بضعة أيام، علمت أنه تم استقباله بشكل جيد على الجانب الآخر من نهر سان.

وفي غضون ذلك، كان لدي نوبات عمل ليلية مع مريض آخر. هذه المرة كان طبيبا في البحرية البولندية يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما؛ مسئول طبي كبير في شبه جزيرة هيل واسمه زيبجنيو ويرزبوسكي والذي كان يموت بسبب مرض القلب. لقد كان يبدو أنه لا يعلم شئ عن مرضه فقد كان دائماً مرحا مليئا بالحيوية. في اللحظات الحرجة، كان يتحدث عن الحرب وعن شبه جزيرة هيل والمدافعين عنها. كان رجلا عميق الإيمان. وبمجرد حصوله على القربان المقدس في عيد الفصح، وعدني وطلب مني إعطاءه كلمة شرف أنه إذا ازدادات حالته سوءا – مع أنه لم يكن هناك سبب لإفتراض هذا- أقوم على الفور بإحضار قس.

وفي هذه الأيام لم يكن لدي الكثير لأفعله في المستشفى لذا كنت أقضي معه وقت طويل. لقد حدث التدهور في حالته الصحية على نحو سريع. فأصبح عاجزا عن الكلام وواصل إيهام نفسه عل الرغم من أنني لم أقل شيئا لأشجع وهمه وبدأت كلمة الشرف التي أعطيتها له في الإثقال عليّ. وأخيراً ذهبت للقس الذي كان ويرزبوسكي معه في عيد الفصح وأخبرته بكل شيء. فجاء لزيارته واقترح إحضار القربان المقدس معه في اليوم التالي ويستطيع إذا الاعتراف. أسعد ذلك المريض على الرغم من أنه كان مندهشا نوعا ما.

سألت القس هل يجوز أن يحضر لي أيضا قربانا مقدسا حيث أن ويرزبوسكي في غرفة منفردة وبالتالي أستطيع الحصول معه على القربان دون أن يلاحظ الضابط ذلك. ووافق القس على

الفور وطلب مني أن أنتظره باكر اليوم التالي بعد انتهاء العمل في الساعة السابعة والنصف صباحاً. كانت ليلة صعبة وأدركت أن الوقت قد حان.

في هذا الصباح تم استدعاء القس لمريض آخر يموت وبالتالي تأخر كثيرا. انتظرت بفروغ الصبر حيث أنه كان يجب أن أكون مع جان، قائدي، قبل التاسعة بشأن بعض قطع الغيار اللازمة لبعض مذاييعنا والتي يجب أن آخذها من مجلسنا الرئيسي للإغاثة (ار جي او). وبعيدا عن هذا، كنت أحتاج أن أعرّف جان على عنوان شقتي الجديدة في شارع فنيس والذي من المقرر أن أنتقل إليها اليوم وبالتالي يكون هناك مكانا جديدا للإلتقاء. ولكن لو لم أنتظر القس وذهبتو فيسعتبر هذا الفعل، في ظل هذه الظروف، بمثابة خيانة لحركة المقاومة. لذا كان عليّ أن أنتظر.

جاء القس في الساعة الثامنة والنصف وعند التاسعة كان يمكنني مغادرة المستشفى. وعلى الرغم من ذلك، كنت لا أستطيع مقابلة جان بعد التاسعة. كنت آسفة جدا وآلمني فشلي في أداء واجبي لأول مرة ولكن هذا كان رغما عن إرادتي. لذا اضطررت أن أؤجل الميعاد لليوم التالي، الأحد ٢٠ إبريل. وبعد ما قضيت الليلة في المستشفى مع ويرزبوسكي، غادرت المستشفي في الثامنة والربع ووصلت إلى شارع سلاوسكا لأقابل رئيس المقاومة في الثامنة والنصف. طرقت الباب كما هو معتاد لكن لم يجب أحد. انتظرت وحاولت ثانية، أدق الباب بقوة أكثر ولفترة أكبر؛ انتظرت لفترة طويلة ثم حاولت ثانية ولكن تلك المرة بصوت عال جدا، رامية بالحيطة عرض الحائط. أغضبني أنه مستغرقا في النوم في صباح يوم أحد.

في النهاية تركت المنزل وأنا أتميز من الغيظ من تأخر القس في اليوم السابق ومن فشلي هذ الصباح. وعلاوة على ذلك، كنت أعلم أن هذا يؤخر حل مشكلة في غاية الخطورة لذا قررت أن أحاول مرة أخرى واحدة. وبالمعنى الدقيق للكلمة، كان ممنوعا الاتصال بجان بع التاسعة ولكن بالتأكيد لم يكن هذا ليسري على أيام الأحد... لذا ذهبت لحضور القداس في كنيسة سانت مارك القريبة. قضيت وقتا طيبا. وبعد نصف ساعة تركت الكنيسة وعدت إلى منزل جان. ومرة أخرى، أخذت أدق وأقرع الباب - ولكن بلا جدوى. في النهاية، استسلمت وأنا في حيرة. ذهبت إلى مقهى في طريقي للمنزل لأتناول فطوري ووصلت إلى شارع فنيس في حوالي الساعة العاشرة. كنا أود أن أذهب إلى فراشي

سريعا. وبمجرد اقترابي من المبنى رقم واحد، مقر إقامتي الجديد، لمحت رانا وستاسيا ينتظراني أمام منزلي ولكن على الجانب الآخر من الطريق. كما لاحظت أن رانيا كانت تحمل تحت ذراعها مزهرية من عصر الكاربات كانت على دولابي وفي أسفلها، تحت الشمع، كان هناك بعض العملات الذهبية تعود إلى الجيش المحلي. قلت لنفسي "يجب أنهما كانا في مزلي." لذا سرت أمام المبنى دون أن أقترب منهما.

لقد رأتني رانيا فتبعتني وسألتني "ألم تذهبي لجان؟"

"بالطبع ذهبت، كالبلهاء، ولكن بلا جدوى. لم أنجح في زيارته بالأمس حيث لم أستطع مغادرة المستشفى في الوقت المحدد، واليوم ذهبت إليه مرتين، قبل القداس وبعده. وفي المرتين طرقت الباب بشدة. أتسائل لما لا يجيب."

كانت رانيا تنصت إليّ بذهول متزايد. وعندئذ لاحظت أنها شاحبة الوجه جدا. "الحقيقة أن، تم القبض على جان أمس الأول في الخامسة ورجال الجستابو يجلسون في الشقة ويقبضون على كل المتصلين."

جاء دوري ليعتريني الذهول. فلم يفهم أحدنا كيف لم يسمع رجال الجستابو لطرقي على الباب. قالت ستاسيا أنه في وقت متأخر من مساء الليلة الماضية تلقت بطاقة من "بروادزيك" بإخبار رانيا وكارولينا أنه تم القبض على جان. وعندما اتصلت برانيا هذا الصباح، أخبرتها رانيا أنه من المحتمل أنهم قد يكونوا قد ألقوا القبض عليّ أيضا حيث أنني من المفترض أن أكون قد غادرت المستشفى في وقت مبكر وذهبت مباشرة إلى منزل جان. ذهبت ستاسيا لمستشفى سانت لازاروس وتم إخبارها أنني غادرت قبل موعدي بخمسة عشر دقيقة. وفي غضون ذلك، قامت رانيا بإنقاذ الذهب الذي يرجع إلى الجيش المحلي من شقتي.

وبذلك، لم يكن هناك شيئا لأفعله سوى أن أسترجع العملات الذهبية وأن آوى إلى الفراش. علمنا بعد ذلك أن رجال الجستابو جلسوا في شقة جان من مساء الجمعة حتى مساء الأحد وألقوا القبض على سبعة عشر شخصا. وفي صباح الأحد تم إلاق الشقة -ولكن لمدة ساعة ونصف فقط- حيث أن رجال الجستابو كانوا يجب أن يحضروا موكبا بمناسبة عيد ميلاد فهرير. وعندما روى أحدنا بعد الظهر أن رجال الجستابو قد ألقوا القبض على كل من جاءوا لزيارة جان في الصباح، قال قائدنا "نعم، ولكن هنا شخص روى ذلك لي بعد زيارة المنزل مرتين ذلك الصباح فكيف يمكنك

تفسير ذلك؟ فهو شخص محظوظ..." ثم روت قصة الاحتفال بعيد ميلاد هتلر.

وفي اليوم التالي، الحادي والعشرين من إبريل، كنت كالعادة في مكتبي بالصليب الأحمر في شارع بيكارسكا في أول النهار. خرجت لبعض دقائق وعندما عدت أخبرني أحد متطوعينا أن رانيا كانت تبحث عني وتريد مقابلتي في شقتي. في اللحظات الحرجة، تنتبه الغرائز البشرية (كتلك الحيوانية) بشكل مفاجئ. وفي تلكك اللحظة بالذات، تمكنت بالكاد من إخفاء إحساس الخوف المرير الذي تملكني. كانت رانيا تنتظرني في غرفتي خلال ساعات العمل الرسمية؟ ماذا يمكن أن يعني هذا إلا أن يكون شيء شديد الخطورة قد حدث. وبشكل لاعقلاني، كنت أشعر أن قائدنا في خطر. كان يجب عليّ الإسراع لمكتبي وترتيب مجموعة من الأمور البسيطة قبل الذهاب إلى شقتي. حاولت ألا أمشي بسرعة. لم يكن هناك أحد على الدرج لذا كنت أتسلق ثلاثة درجات في المرة... وقبل أن أخرج مفتاحي على عجل، كانت رانيا قد فتحت لي. فكل ما قالت وهي تغلق الباب خلفي هو "لقد ألقوا القبض على ليون." ألقيت عليها نظرة واحدة وخشيت أن أسأل أية أسئلة أخرى. فليون جيدجوود هو أمين الصندق الخاص بوحدتنا كما أنه صاحب متجر لبيع أدوات الكتابة في شارع زورزينيكا حيث يعمل قائدنا "براودزيك" كمساعد باسم "ولانسكي".

بدت رانيا هادئة، فقط أقل حيوية عن المعتاد ولكن كانت شفتاها ضيقتين كأنها مشغولة. خاطرت بإلقاء سؤال: "إذا، والآن ...؟"

"كنت هناك. كان القائد يجلس في المتجر وطلب مني الرحيل على الفور. جاء الجستابو في الصباح مع ليون وكان تادوسز يجلس هناك، ثم خرجوا جميعا. كنت أريد أن آخذه بأي ثمن ولكنه أصر على البقاء من أجل بعض الاتصالات. فأعطيت له عنوانك. فهو المكان الوحيد الآمن بالنسبة له لأن أيا من رجال الجستابو الذين جاءوا إلى المتجر لا يعرف عنوانك الجديد. حسنا، ابقي هنا. لا تخرجين. سأذهب إلى هناك، ولكني سأعود ثانية."

كانت جملة "عودي بسرعة" هي كل ما استطعت قوله وهي تهرع على السلم.

عدت إلى الشقة وجلست بجانب الباب. وبدأ الانتظار. ترى ما هو تاريخ اليوم؟ - الحادي والعشرون من إبريل، حيث أن

أمس كان عيد ميلاد هتلر. فتشت بدقي في ذاكرتي: الحادي والعشرون من إبريل، هو تاريخ... آه! هذا هو! عيد ميلاد روما الرمزي. وعند تذكر هذا، سنوات مضت -سنوات "تجسيدي السابقة" الرائعة، سنوات الدراسة في روما- برقت أمام عيناي بشكل مكثف. كان يوما ربيعيا دافئا. وقفت عند نافذة غرفتي الجديدة ورأيت بقايا تراثنا التي لازالت مرئية، بعيدة المنال في الوقت الراهن ولكنها قريبة -برجي كاتراثية واول. أحيت رؤيتهما روحي... أكروبليس. مضت نصف ساعة. من الواضح أن رانيا غير قادرة على المجيء. قد يكون الانتظار طويلا- طويلا جدا. من المحتمل أنها لن تأتي.

في تلك اللحظة دق جرس الباب. هرعت لأفتحه ودلفت ستاسيا.

"لا تنتظري - لا يوجد أمل بالنسبة لرانيا أو بالنسبة له!"

"ماذا تقصدين؟"

"هما في المتجر وهناك أشخاص آخرون معهما. من المحتمل أن يكونوا من الجستابو. لقد أديا مهمتهما!" كانت تعاني من ضغط كبير. "أنت لا تعلمين ما الذي يحدث في البلد. إنهم يطلقون النيران في الشوارع. لقد كان أحد رجالنا خارجا وهو يحمل حقيبة صغيرة بداخلها شيء مهم. لكنهم أطلقوا النار عليه لكنه نجح وهو ملقى على الأرض مصابا في ركل الشنطة بقوة كانت كافية لتسقط الحقيبة في القناة. فلم يحصلوا عليها."

لقد فهمت في ذلك اليوم كيف أنه في أثناء المواقف التي تنطوي على توتر عصبي هائل، تمتزج الحقائق مع الأدب، كما هو في الموقف الحالي. فما روته ستاسيا يتماثل جزئيا مع وصف موت هوبرت أولبرومسكي في "النهر المخلص". لعل الرب يساعدنا، ولكنني لم أتصور أبدا أنني، من تدين بالكثير للمؤلف زيرومسكي، سأقابله يوما ما في مثل هذا المأزق! ولكن ستاسيا تحتاج للتهدئة.

"أين يجب أن تكوني؟"

"في الصيدلية المقابلة للمحل."

"حسنا، من فضلك اذهبي إلى هناك."

"سأعود إلى هناك. أردت فقط إطلاعك على مجريات الأمور، ولأعطيك هذا الجزء من ممتلكات رانيا." وأعطتني سوار ذهبي في يدي والذي رأيته منذ اسبوع في حقيبة يدي. يجب أن أكون قد أخفيته بدون تفكير في تلك المرحلة الحرجة. وخرجت ستاسيا بعد ذلك.

عدت إلى مقعدي بجانب الباب. مضت ساعة الآن - ولم يأت أحد. وبالنسبة لشخص تحت ضغط كبير، ولكن محكوما عليه بالتوقف عن أي نشاط، فمن الطبيعي أن أركز تماما في مراقبة ما يحدث وإذا لم يكن هناك أي فعل خارجي أيا كان حتى لا يكون لدي ما أفعله سوى اللجوء إلى التأمل، كما هو الحال الآن. أتذكر، كما لو كان البارحة، مراقبتي الموضوعية لنمو عاطفة جديدة بداخلي والتي لم أكن قد انتبهت إليها من قبل – شعور قوي بالإخلاص بلا حدود لقائدنا. فهذا الخمول الإجباري، وهو الإنتظار في حين أنه يتعرض للخطر، كان عذابا لا يوصف. أدركت فجأة بوضوح وبساطة لماذا يحث هذا الشعور العديد من الناس على مر التاريخ للقيام بأعمال بطولية. وهنا، كنت مجبرة على الجلوس ملتصقة بمقعدي وأنا أشعر أن شعري يشيب. لم أقل كلمة من كل هذا لأي شخص. انتظرت ساعة وثلاثة أرباع ساعة. وفجأة – جرس الباب.

"هو في الطريق. أمرني أن أسير أمامه بمسافة قصيرة. سيصل إلى هنا حالا."

وبالفعل، ظهر في خلال دقائق. وقال بصوت هادئ لا يعطي أي انطباعات " اشتعلت الأمور نوعا ما حيثما كنا." وكان ها هو كل ما قاله.

وبعد الظهر، ذهبت أنا ورانيا وويزيا هوروديسكا لجمع المعلومات وتفقد الاتصالات وعمل بعض الترتيبات الخاصة بغياب القائد المؤقت عن الاستطلاع في المنطقة. كانت الأخبار محزنة: كانت كل الخلايا محاصرة وكان هناك المزيد والمزيد من حالات الاعتقال. كانت أفكار القائد تتجه باستمرار إلى مونتيلوبي. فالناس يتم تعذيبهم هناك.

وفي المساء، أمرني القائد أن آخذ مفاتيح المتجر إلى صديقة السيدة جيدجوود. علمنا بعد ذلك أن هذه السيدة كانت في غاية القلق بشأن السيد ولانسكي لأنها لا تعلم ما إذا كانت زوجته هي المرأة القصيرة الجميلة أم المرأة الطويلة جدا... كما كان لدي مهمة مختلفة في ذلك اليوم. كان يجب عليّ الذهاب إلى شقة السيد ولانسكي لجمع بعض الأوراق التي كان يخفيها في فجوة بحائط الحمام. كانت مالكة الشقة تعد أحد معارفي فلذا كان هناك عذرا لزيارتها بشأن الأخبار القادة من كازاخستان. وبمجرد دخولي، وعندما كنت لازلت في الردهة، شعرت ببعض "الإغياء" وطلبت الذهاب إلي الحمام. (كان القائد قد وصف تصميم الشقة لي بالتفصيل.) كان هناك سلم في الحمام والذي

تسلقته وبمساعدة كماشة أعطاها لي أيضا، نجحت في استخراج الأوراق من فجوة الحائط. وانتظرت قليلاً حتى شعرت أنني "على ما يرام" ثانية قبل مغادرة الشقة مع إلقاء السلام على السيدة والتي كان حديثها تزينه كلمات فرنسية والتي كانت قلقة بشأن صحتي.

وفي المساء تحدثت إلى الطبيب "سزيبستا" الذي كان عليّ أن أقص عليه ما حدث والذي لم يكن لديه عنه أي فكرة. وعندما انتهت قلت له أنني انتظرت لمدة ساعة وثلاثة أرباع ساعة. فنظر إليّ وقال "لا شيء في ذلك. فهذا أعطاكِ وقتا لتعرفي معني أن تكوني قائدا وما الذي يفعله الناس من أجل هذا القائد."

"كيف عرفت؟"

"يمكنني معرفة الكثير من خلال النظر إلى وجهك."

وفي هذا المساء شرحت أنا ورانيا لمضيفتنا أن ابن عمي، الذي كان مريضا وكان ينتظر أن يتم إيداعه المستشفى، على وشك الحضور وليس لديه مكان ليقضي فيه ليلته. لم أعرف ما فكّرت فيه ولكنها وافقت على أن تجعل القائد يقضي الليل في غرفة صغيرة مواجهة لغرفتي والتي قضى فيها ليلتين ثم ذهب.

لقد عدت إلى عملي بالمستشفى الذي أهملته مؤخرا ولكنه في تناقص مستمر. كانت مستشفى اليسوع قد تم تجديدها وترميمها بشكل رائع. وفي الرابع من مايو، توفي ويرزبوسكي أخيرا في عنبره. ففي أيامه الأخيرة كان غالبا فاقدا للوعي وكان، وهو في هذه الحالة، لا يزال يدافع عن شبه جزيرة هيل. وبمجرد أن وضعته في النعش، شعرت أنني لم أستطع أن أنقذ حياته، في حين أنني أدين له بحياتي. فلو لم أحصل على القربان المقدس معه في ذلك الصباح، لكنت توفيت...

وقرب نهاية شهر مايو أرسلت خطابا لقائدنا الغائب عن كاراكوا طالبة منه إيجاد عمل جديد لي حيث أن عملي في المستشفى قارب على الانتهاء. وكان رده أن أنضم إلى ما يسمى بـ "المحمية"، وهي لجنة من النساء تعمل على رعاية مسجوني مونتيلوبي، حيث أنه يريد أن يكون له عين داخل السجن. لذا حاولت جاهدة أن أعمل هناك لكني لم أنجح. كان المسئول عن المحمية رجل كريم شديد الإخلاص لعمله، اشتراكي وشخص نظري تافه. لقد رفض انضمامي للمحمية "على أسس المبدأ". لقد مات الآن ولكن طالما أحيا سأكون شديدة الامتنان له بسبب رفضه لانضمامي، وإلا ربما ظللت في "المحمية" من أجل الخير.

لقد جاء شهر يونيو ونحن نعيش من يوم إلى يوم ومن ساعة إلى ساعة ونحن ننتظر دائما الحدث الذي طالما تقنا إليه. لقد كان الألمان يقومون باستعدادات هائلة. كانت القوات تجوب شوارع كاراكوا ليل نهار بأحدث الأسلحة والجنود يرتدون زيهم الموحد وكانت الخيول رائعة وكان هناك دبابات ضخمة وبشعة. كان الموكب العملاق اللامحدود في العدد والعدة يطوف باستمرار كما لو أنه لن ينتهي أبدا. كان الموكب يسير ليل نهار ويستمر إلى اليوم التالي وإلى الليل. شعرنا أن هذا سيستمر للأبد. كان الموكب يبدأ من عند محطة القطار ويمر بأماكن التنزه المزهرة ثم يختفي عند كارميليكا وما خلفها – ويتجه إلى الشرق. كان هناك شيء واحد يتعارض بشدة مع هذا الاستعراض للقوة: فوجوه هؤلاء الجنود لم تكن تعلوها لمحة واحدة من السعادة الحماسية التي تتمشى مع هذا العرض الواضح للقوة المادية. فالجنود حقا يبدو عليهم الحزم ولكن ملامحهم حزينة في أغلب الأحيان. كانوا مستسلمين بغير مكر وفكوكهم مضمومة بشدة.

وفي هذه المرحلة كان أحد الألمان يجلس مع أشخاص نعرفهم عائدون من إجازة. سألته سيدة المنزل، وهي مجرية المولد، عن الأوضاع في ألمانيا. صمت لبرهة ثم أجاب "رائعة ولكن يائسة." فقطاع الحكومة العامة بأكمله يتغير بشكل واضح، يوما بعد يوم، ليصبح منطقة حرب. فالمستشفيات مستعدة وصدرت أكثر الأوامر صرامة بشأن إطفاء الأنوار أثناء الغارات. كان التوتر الهائل السائد مثل البرق الذي يسبق العاصفة. وبالإضافة إلى ذلك، كان البولنديون لديهم مشكلة جديدة: فمن يسمع وهو يتحدث عن احتمالية حدوث حرب جديدة تتم معاقبته بالسجن. لم نستطع أن نفهم ما إذا كان الألمان يؤمنون بأن الروس لا يعرفون شيئا عن استعداداتهم الضخمة أو أنهم يبحثون فقط عن طريقة جديدة لإزعاج البولنديين.

وأخيراً في الساعة السابعة من صباح الثاني والعشرين من يونيو حضرت ويزيا هورودسكا وكانت عادت للتو من الجزء التابع لنا في المدينة. كنت قد استغرقت في النوم وكان يجب أن تهزني حتى أستقيظ. "كارلا، استقيظي، لقد قامت الحرب!" نظرت إليها وأنا خائفة من تصديقها. "نعم إنها الحقيقة. لقد سمع القسيس الذي يعيش في الكنيسة المجاورة لوالدتي الراديو الألماني من خلال الحائط، وهرع إلينا – وهو لا يزال بملابس النوم- ليخبر المرأة العجوز. فالألمان يقولون للعالم أجمع أنهم سيشنون حربا علي روسيا والشيوعية!"

لقد استيقظت وارتديت ملابسي وذهبت إلى الكنيسة. كان الكل هناك بالفعل، راكعين شاكرين... ومن الكنيسة ذهبت لأزور بعضا من أصدقائي كما هي عادتي يوم الأحد وكان معي مذياع. كانت موسكو تبث بكل اللغات لكل العاملين في العالم أن هذا اليوم، في الذكرى السنوية لإعلان نابليون الحرب على تسار ألكسندر الأول، عبرت جيوش هتلر الحدود السوفيتية. لقد كان البولنديون في فرحة عارمة. من الآن فصاعداً لن يكون هناك وجود لتلك الحدود، حدود ريبونتروب-مولوتوف الملوثة بالدماء والتي تقسم بولندا إلى قسمين. فاحتمال أن تكون تلك الحدود المرعبة تختفي في تلك اللحظة للأبد قد ملأنا بسعاد غامرة. دع الألمان يدخلون إلى قلب روسيا من أجل الإنتصار ذو الحدين الذي ينتظرهم. فلن يعودوا ثانية حيث سيقوم الحلفاء بالقضاء عليهم في الغرب. ونستطيع إذا العودة إلى الشرق- إلى لاواو حيث ننتمي.

وفي اليوم التالي استمعت إلى خطاب الجنرال سيكورسكي. كان يتحدث عن إضعاف الألمان وسياستهم المجنونة. وقال أيضا أن الناس في بولندا مقتنعون بشدة أن الألمان سيهزمون الروس ولكنه لا يعتبر ذلك نتيجة حاسمة. فقد يحدث العكس. تأملنا تلك الكلمات. هل يمكن ذلك حقا؟ هل يمكن أن تهدد بولندا الشرقية ثانية لو حدث ذلك؟ ولكن لا، لم نحتمل التفكير في ذلك! فكانت مجرد الفكرة إهانة لهؤلاء، ولنا أيضا، الذين يحاربون لحماية الثقافة الغربية. فهم لن يضحوا أبدا بنصف بولندا وكرامتهم ويهملون أيضا مصالحهم الشخصية. وعند أخذ كل هذا في الاعتبار، سيكون جنونا محضا أن ندع الألمان يتقدمون أكثر من نهر بج. كلا، ففي أي حالة، فالألمان أقوى من أن تهزمهم روسيا. سيعلمهم السوفيت درسا، ولكنهم لن يهزموهم - فهم فقط سيتنزفون الموارد الألمانية حتى آخر قطرة، حتى يأتي الأحلاف ويقضوا عليهم.

وبعد بضعة أيام، جاءت الأنباء بأن ألمانيا دخلت "لاواو" وأن المدينة لم يتم تدميرها بشكل بالغ. كان يجب علينا الانتظار حتى نقوم بعمل اتصال مباشر. وفي غضون ذلك، تألمنا بشدة من جراء شائعة محزنة. فقيل أن الألمان قد ألقوا القبض على عدد كبير من أساتذة جامعة لاواو. كانت تذكر أسماءا مختلفة ولكن لم يتم التأكد من شيء حتى
الآن.

وأخيراً جاءني أول خطاب مهرب وبه قائمة بأسماء اثني وعشرين مدرساً ومحاضرا تم القبض عليهم – بالإضافة إلى زوجات بعضهم وأبنائهم البالغين بعد يومين من الغزو الألماني وتم احتجازهم الآن كرهائن. لم يكن مكان احتجازهم معروفاً. لقد اتضح من القائمة أن قسم الطب هو المقصود، ولكن تم احتجاز أساتذة من كلية الفنون ومدرسة التجارة العليا. ومنذ ذلك الحين، كان هذا الأمر الغامض دائما في أذهاننا.

وفي غضون ذلك، كنت أفكر في بعض الخطط الخاصة بي. فحيث أنه تم رفض طلبي للعمل في اللجنة المشرفة على السجون، فلقد كنت أشعر بالضياع. كان يجب أن أجد شيئا لأفعله. كنا مؤخرا نتلقى تقارير محزنة للغاية عن ظروف السجون في المقاطعات. جاءت بعض الحقائق المأساوية بصفة خاصة من تارنوا حيث كان هناك سجنا كبيرا والذي كان يتلقى الطعام منذ البداية من الصليب الأحمر المحلي. وبعد فترة قام الألمان بتحريم ذلك. فالطعام الذي قدموه كان يؤدي إلى وفاة من ثمانية عشر إلى ثلاثة وعشرين مسجونا كل يوم من الجوع. كان لدينا أدلة دقيقة، حيث أن لجنة الرعاية المحلية كانت تتكفل بالنعوش. كان يتم نقل الجثامين على الملأ وكانت رؤية تلك الجثث لا تترك أي شك بشأن سبب الوفاة. لذا ذهبت إلى رئيس المجلس الرئيسي للإغاثة آدم رونيكير وسألته ما إذا كان يرغب في أن يمد يد العون لى السجناء وأن يعينني كمشرفة واستندت في كوني مناسبة كمشرحة لهذا المنصب على ثلاثة معايير:

١- يجب أن تكون المشرفات علي السجون نساء، فالرجل سوف يكون ضعيفا للغاية.

٢- هذه المرأة يجب ألا تكون متزوجة أو لديها أبناء والذين من الممكن أن يتعرضوا لأي ضغوط.

٣- يجب أن تتحدث هذه السيدة الألمانية بطلاقة.

ولقد وافق الرئيس على الفور ولهذا سأظل أشعر بالامتنان تجاهه طالما حييت. ووافق المجلس عل اقتراح الرئيس. ولأنه لا يجوز الانتماء للصليب الأحمر والمجلس الرئيسي للإغاثة في آن واحد، قدّمت استقالتي من الصليب الأحمر وأصبحت موظفة رسمية بالمجلس.

الفصل الثالث
جولتنا في "الحكومة العامة"
من يوليو ١٩٤٢ - إلي مارس ١٩٤٢

بدأت الآن سلسلة من الزيارات المطولة للمكاتب الإدارية الألمانية في محاولة لإنشاء نظام مركزي مختص بالتعامل مع المشاكل الخاصة برعاية السجناء. تواصل المجلس الرئيسي للإغاثة، ممثلا في شخصي، مع السلطات من أجل السماح بتوفير المواد الغذائية لكل السجناء، بغض النظر عن سبب اعتقالهم. ما كنا نهدف إليه هو تقديم دعما عاما عشوائيا لكل السجناء سواء كانوا مسجونين سياسيين أو مجرمين. كان من الواضح أنه لم تكن هناك طريقة أخرى لضمان الوصول إلى المسجونين السياسيين. فالسلطات القضائية الألمانية لم تخلق العديد من المشاكل. كما لم يقم بذلك أي مكتب آخر تابعا إلى وزارة الشئون الداخلية. وأخيرا وصلت إلى مقر الرعاية الاجتماعية للـ "حكومة العامة"، حيث كان يتعين عليّ مقابلة دكتور هينريش، الشاب الصغير الذي يبدو أقرب للبربر منه للألمان كما أنه، كما يعلم الكل، كان ينتمي إلى الجستابو. وبعد حوارات طويلة جدا ومتعبة، أرسلني أخيرا إلي الجستابو.وبالنسبة لي شخصيا، كان هذا يناسبني جدا. فالأمور كانت قد بدأت تهدأ من جانبي. فلقد كنت أخضع للمراقبة الدقيقة منذ التسريبات الأمنية في إبريل ١٩٤١. تلقيت قليلا من التهديدات وبعض النصائح الحكيمة بأنه "من الأفضل مغادرة كاركوا". كنت أعلم أنني لو فعلت ذلك، سأكون كمن وأد نفسه؛ وبالإضافة إلى ذلك، كان سيجب عليّ الأختباء حتى نهاية الحرب.

كان الذهاب بشكل مباشر إلى مقر الجستابو يبدو إليّ أفضل وسيلة للدفاع. اعتقدت أن الألمان سيظنون أن من يلقي بنفسه

في عرين الأسد يكون عاقلا جدا. استقبلني رائد طويل جدا ويرتدي زيه الأسود، وأخبرني بلقب عائليته الأحادي الذي لا أتذكره. تفرس فيّ بإمعان وتناقشنا في العديد من الأمور. شعرت أنه يحقق معي. ولحسن الحظ، بمجرد أن دخلت، جلست سريعا بظهري مستندة إلى النافذة قبل أن يدعوني إلى مكان آخر للجلوس. ونتيجة لذلك، شعرت بالراحة أن وجهي في الجزء المظلم في حين أن وجهه يسطع في الضوء. سألني فجأة عن اهتمامي بالسجناء. فقلت له حيث أنه لم يعد باستطاعتي رعاية المرضى، فتمنيت أن أشغل نفسي بفئة مماثلة من الناس – أي السجناء، وهكذا دواليك. فسألني عن الكميات المطلوبة لإطعام المسجونين، وحذرني من أنه لن يسمح لي مطلقا بالسؤال عن عدد المسجونين. فصرّحت بأن معرفتي بإجمالي عدد المسجونين لا يخصني في شيء. فبدا محاوري مستمتعا جدا بتلك الإجابة الحمقاء. طلب مني الحضور بعد يومين حيث سيقوم في غضون ذلك باستشارة رؤسائه.

وفي زيارتي التالية، انتظرت وقتا طويلا للغاية. وحينما كنت أجلس، دخل مسجون والذي أمعن النظر فيّ لبرهة ثم خرج. شعرت أن هذه مواجهة غير ناجحة. فبعد ذلك، كان من المرجّح بشدة أن ذلك المسجون الذي أحضروه أمامي لم يكن غير ليون الذي كان في ذلك الوقت متورطا في "الخيانة". لقد فشلت المواجهة لأن ليون لم يرني من قبل. وعليه، فإني أشكر قائدنا "براودزيك" الذي، على الرغم من طلبي، لم يسمح لي مطلقا بالمجيء إلى المتجر.

وأخيراً تم السماح لي بالدخول. وكانت هناك محادثة ثانية والتي سؤلت فيها عن سبب اهتمامي بالمسجونين على وجه التحديد. في هذه المرة كانت إجابتي بالكاد سياسية. فأجبت ببساطة وبنبرة ساخطة أنني اعتبر هذا واجب قومي وأنني أود أن أفعله بطريقة صريحة وواضحة وليس بشكل غير قانوني. وكان رد فعل الضابط غير متوقع. فمنذ تلك اللحظة، كان الرائد يميل بشكل إيجابي لتحقيق مطالبي. كان من الواضح أنه يعتقد أن من يمكنه قول تلك الأشياء يمكن السماح له بالعمل بأمان لأنه من الواضح أنه ساذج جدا. وفقط عندما شارفت المحادثة على الإنتهاء بدأ يصرخ في وجهي بطريقة مسرحية، وكأنه يستعيد تكتيكاته العنيفة المألوفة. قال أنه يود أن يلفت انتباهي إلى حقيقة أنه في حالة استخدامي لمنصبي للتعبير عن وجهات نظر خطيرة أو عند ظهور أول إشارة لتهريب رسالة خلال المواد

الغذائية التي سترسل إلى المسجونين، سيتم إلقاء القبض عليّ. سألته كيف يمكن تهريب رسالة في المواد الغذائية التي يتم إرسالها بشكل عشوائي، في مراحل لكل المسجونين، سواء كانوا مسجونين سياسيين أو مجرمين. فأجاب، بعد أن هدأ، ان كل شيء ممكن. وأخيرا، تمكنت من الخروج. تركت المبنى، الذي يرمز إلى استعبادنا، مغمورة بالأمل.

عندما عدت لمنزلي في ذلك المساء، لاحظت لأول مرة أن منزلي لا يخضع للمراقبة. فمكر غازينا القادم من الغرب لا يتمشى بالتأكيد مع قسوته!

وبعد فترة صغيرة تم استدعائي ثانية لمقابلة هنريش الذي قام، بعد محادثات ومناقشات تليفونية مطوّلة، بإصدار بطاقة لي تحمل شعار الصليب المعقوف والصقر الألماني وكل أنواع الأوسمة الأخرى. كانت البطاقة تنص باللونين الأبيض والأسود أنني مفوضة بإذن من الجستابو وقطاع الخدمات الأمنية بتوصيل شحنات عشوائية من المواد الغذائية للسجناء بإسم المجلس الرئيسي للإغاثة في مقاطعة الحكومة العامة. وأخبرني أنه بواسطة هذا المستند يمكنني الذهاب إلى سجن تارنوا. اختطفت البطاقة وهرعت إلى البيت. قرأتها مرات ومرات ولاحظت أن عيد ميلادي المدون عليها الحادي عشر من أغسطس. لم يتصور هذ الهمجي البروسي أبدا أنه يعطيني عيد ميلاد ملكي! في هذا المساء كتبت، أو بالأحرى استخدمت شفرات بريئة في كتابة رسالة طويلة إلى حد ما إلى القائد. وبواسطة تلك الشفرات – البسيطة– المعتمدة على وضع نقاط صغيرة على الحروف المتعددة (وأحيانا في الاتجاه المعاكس)، اعتدت على إرسال الأخبار والمعلومات الأخرى. وفي تلك المناسبة، أخبرته أن اضطلعت بمسئولية رعاية السجناء في الجزء البولندي الذي تحتله ألمانيا (الحكومة العامة). أتذكر أنه للمرة الأولى أضفت رسالة شخصية موجزة: "مسئولية كبيرة. أرجوك ساعدني بأفكارك." وبعد بضعة أيام، جاءني الرد القصير الذي يأمرني بقطع كل العلاقات والتخلي عن كل الأنشطة الأخرى من أجل التركيز حصريا في مهامي الجديدة.

وفي اليوم التالي لحصولي على البطاقة، بدأت رحلتي إلي سجن "تارنوا". إن السجن هناك لا يديره جيش حزب الصرب النازي وإنما السلطات القضائية. وكسجن بولندي سابق، فلا زال تارنوا يحتفظ سجّانيه البولنديين وكل طاقن السجن. فهناك، يحتفظ الجستابو بمسجونيه كما كان مسئولا عن "رعايتهم". استقبلني

حاكم السجن وهو رجل كبير يدعى جونهير. قرأ بطاقة هنريش كان مسرورا لكوني "متمشية مع النظام"، ولكن لم يكن بوسعه فعل أي شيء بدون تصريح من وزارة العدل بكراكوا. فكان يجب عليّ العودة إلى كاراكوا في الحال. لقد كان السيد آدم رونيكاير، رئيس المجلس الرئيسي للإغاثة، والذي تصادف وجوده في تارنوا في ذلك اليوم، سيوصلني بسيارته. وفي الطريق تحدثنا عن الكثيرين ممن نعرفهم ومن ضمنهم السيدة بنينسكا التي تركت ساموزترزل بالقرب من بوزنان. سألته عن أحوالها هناك. أخبرني أنه تم السماح لها بالاستمرار في دار النشر التي تملكها لمدة عام ولكن تم طردها منه بعد ذلك. وخلال هذ العام في الربيع والخريف، وتحت نوافذ دار النشر، كان هناك حريق يشتعل يوميا أسفل غلاية المحرك البخاري، وتعلو النيران بسبب حجم الأوراق الهائل على رفوف مكتبة بنينسكي المشهورة في ساموزترزل.

وبحلول المساء كنت قد وصلت إلى كراكوا. وهناك، وبمساعدة بطاقتي المشهورة، استطعت إيجاد حلولا للمشاكل القليلة المتبقية في تارنوا. وبعد يومين، في الخامس والعشرين من أغسطس، تمكنت من الاتصال باللجنة في تارنوا لتوصيل ١٢٠٠ وجبة حساء للمسجونين (وهو العدد الذي سمح به حاكم السجن السابق). وعندما ذهبت للسجن في اليوم التالي، وجدت أن جونهير قد وافق على توصيل الحساء الخاص بهذا اليوم. كان الجو في اللجنة عصيبا. فعند منتصف النهار، دخلت إلى مقصورة قديمة بالية لعربة محلية ومعي ستة مراجل من الحساء وذهبنا إلى السجن. كان هناك مجموعة من الأشخاص ينتظرون شيئا أو شخصا، ويستمعون بشكل متواصل إلى سلسلة من التأوهات ونداءات للمساعدة أو الطعام والتي كانت تصدر بصوت أعلى من نوافذ السجن المتعددة ذات القضبان. بعد ذلك أخبرت أن الأشخاص المنتظرين هم أقارب السجناء الذين يحاولون توصيل حزم الملابس وخلافه إلى أزواجهم وأبنائهم. لن يمكنني نسيان تعبيرات العاطفة والتوتر على وجوه هؤلاء الناس، والتي لا يمكن وصفها، عندما شاهدوا الشاحنة التي تحمل مراجل الحساء، وفوق كل شيء، عندما شاهدوا بوابة السجن الحديدية الضخمة، والتي قعقعت عند فتحها. جلست بجانب السائق وأنا لازلت غير متأكدة هل هذا حلما أم حقيقة أم عرض مسرحي. فكان هناك العديد من المدافعين البولنديين عن الحرية خلف أسوار تارنوا!

دخلنا إلي السجن وصفقت البوابة خلفنا. وقفنا في الساحة الواسعة. ظهر سجان بولندي وهو يتحرك وكان يتبعه مسجونان أو ثلاثة. كانوا يبدون كالجثث. لو حكمنا عليهم من خلال وجوههم، فكانوا يبدون كالمجرمين. أمرهم السجان بالتقاط المراجل وحملها إلي داخل المبنى. تعثر واحدا من أصغر المساجين سنا بعدما حمل المرجل وفقد توازنه. كان من السهل رؤية كيف خدّرتهم جميعا رائحة حساء اللحم. وقبل أن يأتوا من أجل المراجل المتبقية، انضم إليهم رجل كبير؛ وجهه شديد الاحمرار – يبدو كرسم ساخر لمجرم.

صرخ عند رؤية المراجل "ما كل هذا؟". وعندما كان يقترب، صرخ بصوت عالي في اتجاهنا: "من الواضح أنكم تحاولون مساعدة الضمان الاجتماعي في توفير النفقات الخاصة بالنعوش، ايه؟"

في الوقت الراهن، تحركت الشاحنة ثم عادت وهي تحمل المزيد من المراجل التي أحضرها ماريلا دموشوسكا، روح وعقل لجنة الرعاية بسجن تارنوا. وعندما تم تسليم جميع المراجل، شعرت أن قوتي تخور وأن وجهي يشحب. أخبرت السيدات أنني سأعود إلى المكتب فيما بعد وتسللت سريعا إلى الكاتدرائية. وهناك، شكرت الرب، وبكيت وأنا أشعر أنني لا حول لي ولا قوة. وبعد فترة لاحظت أنه كانت توجد امرأة تركع بجانبي وتنظر إليّ بشفقة بالغة. لقد كانت تظن أنني أعاني من بعض المحن العصيبة لأن في هذه الأيام لم يكن هناك من يتصور أن يوجد أحد يبكي من أجل السعادة. وبعد الظهر، وعندما عدت إلى اللجنة، صادفت بعض الأشخاص الذين لا أعرفهم والذين كانوا خارجين للتو من السجن. أبلغوا عن سماع صيحات من نوافذ الزنازين: "لقد حصلنا على الحساء... أخبروا من هو مهتم بنا أنهم أعطونا الحساء... اشكروهم... وأبلغوهم أننا نطلب المزيد."

منذ ذلك اليوم، أسعد يوم، السادس والعشرين من أغسطس عام ١٩٤١، قام سجن تارنوا -بطريقة مثالية ومنتظمة- بإطعام مسجونيه بوفرة وكفاءة.

لقد أصبح سجن "تارنوا" متفردا في القطاع البولندي الذي تحتله ألمانيا بأكمله بسبب أن القرى المحيطة بالسجن كانت تتبرع وتنقل المؤن المخصصة للمسجونين اسبوعيا.

وبعد سجن تارنوا، توجهنا إلي سجني "جاسلو" و"سانوك". لقد كان حاكم السجن في "جاسلو" أوكرانيا والذي كان، لحسن

حظنا، يخاف مني. لقد كان يعتقد بالتأكيد أنني جئت بالنيابة عن الألمان، فكان ينحني لي جدا - والأهم- أنه كان مطيعا. أما الأحوال في سجن "سانوك" فقد كانت أكثر صعوبة. فكان لديهم هناك جلاد من الجستابو سيء السمعة وكان اسمه ستاويتزكي (كان يبدو هذا اسما مستعارا). كان سانوك غارقا بالدماء. ومع ذلك، ووسط الاعتقالات وحالات الاعدام الدائمة، استمرت اللجنة في العمل بشجاعة كبيرة. قامت الراهبات بإعداد الطعام للسجناء حيث، وعلى سبيل الصدفة الغريبة، كان ستاويتزكي (نسبيا) يكرههم بدرجة أقل.

بعد ذلك، وجّهنا هجومنا على سجن "نواي ساكز" الذي كان الجستابو يديره. كان إله الحياة والموت هناك، أو بالأحرى إله الموت على وجه التحديد هو "هامان" الذي كان معتادا على قتل البولنديين بيديه العاريتين. وعندما وصلت إلى هناك، وكالمعتاد، ذهبت من محطة القطار مباشرة إلى مقر لجنتنا المحلية حيث قابلتني موظفة صغيرة السن يبدو عليها الذكاء والحيوية. صدمني التوتر الغريب على وجهها والذي يرجع بدرجة كبيرة إلى أن الناس هنا يقعون تحت تأثير شيئا مجهولا ومرعبا. لقد قابلت حتى امرأتين تبكيان بشكل واضح.

عندما أخبرت تلك الموظفة عن اسمي، قالت بصوت غريب غير طبيعي: "ألم تجدي يوماً للحضور سوى اليوم؟!" لم أفهم ما تعنيه وطلبت مقابلة رئيس اللجنة. خرج شاب صغير ذو شفاه مضمومة بإحكام ليقابلني ودعاني إلى مكتبه.

قال باختصار "لقد جئت من أجل السجناء."

أجبت بدهشة كبيرة "نعم، كما أخبرتك مقدما."

قال بلهجة بطيئة وحاسمة "أخبرنا الألمان بأنفسهم هذاالصباح أن كل رهائننا قد قتلوا."

"أي رهائن؟"

"كل الطبقة المثقفة المحلية تقريبا وأولهم كاهننا. علمنا ذلك بالأمس، حيث أنهم تمكّنوا من إرسال خطاب وداع، وقد وقعوا عليه جميعا. كتبوا أن زوجاتهم وأمهاتهم يجب ألا يبكوا من أجلهم، ولكن يجب أن يفتخروا بأنهم شخصيات بارزة... وعند زوايا الخطاب، أسفل التوقيعات، أضافوا **"ناقص"**. ضاعت أقيم طبقة في مجتمع نواي ساكز بأكملها، بما في ذلك بعضا من أقرب أصدقائي."

سألته "لماذا؟"

أجاب "بدون سبب"

قلت لنفسي هذا قدرهم، ولم أسأل أي سؤال بعد ذلك.
وبعدما علمت تلك الظروف، قررت عدم زيارة "هامان" هذا اليوم، فسيرفض مقابلتي بالتأكيد من لازال مسمما برائحة الدماء الطازجة الكريهة. وبالإضافة إلى ذلك، لم يعد هناك أحد تقريبا ليأكل في السجن... وعلى الرغم من ذلك، ظللت بضع ساعات في ساكز، إذ أنني اعتقدت أن هناك من يريد التحدث إلي واحد والذي، وبقدر ما يتعلق بالأمور العامة، يعتبر واحدا منهم ولكن لم يقتل قريب عزيز عليه في هذا اليوم. وحتى وقت متأخر من الليل قام رئيس اللجنة، الذي كان يجوب غرفته ذهابا وإيابا، بالتحدث عنهم جميعا – كل منهم على حدة، ثم عن زوجاتهم وأولادهم... وفي الصباح الباكر عدت إلى "كراكوا"وأنا أشعر أنني أعرفهم شخصيا: المدرسين والمهندسين والموظفين المحليين، كل من ماتوا دون أن يعيشوا ليروا كم أن الموت جميل وجدير بالثناء. بولندا في المستقبل، قلت لنفسي، بولندا التي حررت بمثل هذه التضحيات التي لا تحصى ستحتاج إلى أن تكون مجتمع سعيد وأخلاقي للغاية.
بعد ذلك جاء دور السجون في "سيزتشاوا" و"بيوتراكوا تريبونالسكي" التي لم تكن صعبة "الغزو". علمت مقدما أن "سيزتشاو" لن يكون مشكلة خاصة. فكان هناك حقيقة معروفة وهي أن الإدارة الألمانية هناك، على الرغم من المضايقات الكثيرة والمتعددة، كانت أقل قسوة مقارنة بالمواقع المحلية الأخرى. فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك إعدامات جماعية ولا جولات مراقبو واسعة النطاق. وأرجع العامة ذلك إلى خوف معين مغروسا في الألمان بسبب حرمة المكان: "يخاف الـألمان من والدة الرب." فحينما جاء قوادهم -مثل فرانك وجويبلز- إلى سيزتشاوا، قاموا بزيارة جاسنا جورا (الجبل الساطع). لقد أمروا بكشف النقاب عن الأيقونة وفي تلك اللحظة، رفع جوبلز يده وقام بتحية عذراء سيزتشاوا بتحية هتلر. أما بالنسبة للسجن، فلم أصادف صعوبات غير ضرورية. فعلى نحو لا يمكن إنكاره، استقبلني رجال الجستابو بمنتهى الفظاظة مرددين كثير من عبارات التهديد، ولـكنهم قـبلوا
توزيع الطعام .
وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى جازنا جورا والتي كانت في ذلك الوقت ترتدي تاجها من أوراق الأشجار الشهيدة المتناثرة في الخريف الثالث للحرب. وعلى مدخل الكنيسة، كانت هناك لافتة كبيرة عليها رمز الصليب المعقوف من **(ناقص)** تمنع بشدة

تصرف القوات العسكرية بشكل غير لائق في الكنيسة أو إحضارهم الكلاب – فلا تتحدث كثيرا مع الجيش الذي يزعم أنه ضمن صناع الثقافة.

وعلي كرسي الاعتراف جلس أب بوليني عجوز ذو لحية بيضاء كالثلج. وحينما أخبرته أن روحي تسيطر عليها الكراهية والرغبة في الانتقام، ولكن ليس بالأصالة عن نفسي، واساني بأن الرب قد يكون بطيئا في التصرف ولكنه سيحقق العدل لا محالة. أما بالنسبة لمحبة أعدائنا، فالكاهن العجوز –الحمد لله– لم يتطرق إلى هذه النقطة.

وفي وقت متأخر من ذلك المساء وصلت إلى "بيوتركوا". وكان عليّ قضاء الليل في بيت يمتلكه مصور فوتوغرافي محلي وزوجته (التي تعمل مدرسة) وابنه (طالب اللغة البولندية والأدب البولندي). كانوا أشخاصا ممتعين كما كان لهم نشاط كبير في أعمال الرعاية الاجتماعية واستقبلوني بدفء كبير وبساطة. حتى هذا اليوم أتذكر العديد من لوحات سيدة المنزل باللونين الأبيض والأسود والتي تزين جدران منزلهم والتي يمكن من خلالها تتبع تاريخ فن التصوير على مدار الخمس وعشرين سنة الماضية. وفي كل مرة كنت أحتاج فيها إلى زيارة بيوتراكوا خلال الشهور القليلة التالية، كنت أتطلع إلى الساعات التي سأقضيها مع مستضيفيني. لقد أخبرني رئيس اللجنة عن أحوال لجنته والتي كان الفقر أسوأها، كما أخبرني عن السجن وكيف أنه، بحكم منزله المواجه للسجن، كان عادة ما يسمع، وبمنتهى الوضوح، وخاصة أثناء الليل، تأوهات وصراخ المسجونين الذين يطلبون الطعام.

وعندما ذهبت إلى هناك، قابلني القائد النمساوي الذي تحاور معي طويلا بخصوص احتياجات السجناء. كما أحضر طبيب السجن وهو مواطن بولندي. كان الحوار بالألمانية، والذي لا أعتقد أن الطبيب قد أدرك أنه يتحدث إلى امرأة بولندية. فعلى العكس، يبدو أنه افترض أنه مطالب بتقديم تقرير واقعي عن صحة المسجونين وذلك لصالح بعض الجمعيات الخيرية الألمانية. فعلى سبيل المثال، سأل من من المفترض أن يقدم له الطعام - كافة المسجونين أم من يمكن إنقاذهم فقط؟ وكطبيب، شكك في إمكانية تقديم الطعام لهؤلاء الذين يتضورون جوعا حيث سيحتاجون أسابيعا طويلة إلى إتباع نظام غذائي صارم والذي يعتقد أنه لا يمكن تطبيقه عمليا. حاولت أن أوضّح له أنه، بشكل واقعي كلما أمكن، سيقدم الطعام لكل السجناء.

وقبل أن أغادر، التفت القائد إلى الطبيب وقال "لقد استخدمت تعبير "الموت من الجوع" الآن. يجب أن أحذرك من عواقب استخدام هذا التعبير في المستقبل." لقد لفت انتباهي أيضا إلى حقيقة أن استخدام ذلك "التعبير غير المسئول"، والذي نطقه طبيب السجن، لن يكون من أفضل اهتمامات عملي. كان من حسن حظي أن القائد نمساويا.

ثم ذهبت. وكان لدي ساعتان قبل موعد وصول القطار. فقضيت هذا الوقت في زيارة بعضا من الآثار المتعددة في بيوتركوا والتي تعود للقرن الرابع والسادس عشر. لم أكن أعرف المدينة. ولكن تلك التذكارات التي ترجع إلى عصر البياست والجاجيلونيان كانت في اللحظة الراهنة مصدرا للقوة. فالإشعاع الذي يسطع حتى ذلك اليوم من آثار بيوتركوا والتي تعيش في الذاكرة الحية للجاجولنيين العظام قد رسّخت من إيماني ببولندا.

وهذه كانت بداية العمل في "بيوتركوا" والتي تعقّدت بصفة خاصة بسبب النقص التام في المواد الغذائية على المستوى المحلي والعوائق الاستثنائية التي تضعها السلطات الألمانية بخصوص منع دخول الواردات. وعلي الرغم من ذلك، استقبل مسجوني بيوتركوا منذ ذلك الوقت مساعدات منتظمة. عند زيارتي لهم وفي المرة التالية قال لي الطبيب أن الأمور تسير على ما يرام.

تضمن سفري المتواصل، الذي ملأ حياتي، رحلة إلى "وارسو" مرة كل شهر لمقابلة القائد الذي كان مستقرا في العاصمة كنائب القائد الأعلى "جروت روسكي". لقد قدّمت تقاريرا منتظمة عن كل الأعمال التي قمت بها على مدار الشهر وعن إجمالي عدد السجناء في سجون معينة بالإضافة إلى معلومات من جميع الأنواع والتي جمعتها خلال رحلاتي.

علىّ أن اعترف أن حياتي الجديدة شيقة جداً. حاولت كل شهر أن أكون في أحد السجون لذا كان عدد المدن في قائمتي يزداد باطراد. وفي كل شهر، كانت تقنية السفر تتحسن. وفي النهاية، تمكنت من النوم بعمق في وسط مجموعة تتكون من ستة عشر بائعا في السوق السوداء والذين يشتركون في مقصورة، أو الركوع بركبة واحدة للاستناد على حزمة في مدخل العربة. كان أصعب شئ على الإطلاق هو تبديل القطارات في الطريق. ولأنه كان هناك العديد من الرحلات المتأخرة أثناء الحرب، فالقطارات الرابطة لا تنتظر أبدا. كان هناك منطقة مهددة في طريق رحلتي بين وارسو وبيوتركوا تسمى كولوزكي. فهناك، لم أنجح أبدا في اللحاق بالقطار الرابط وكنت أضطر للانتظار تسع

ساعات في كل مرة. ولم يكن يسمح للبولنديين بالانتظار في المحطة؛ كما لم يكن مسموحا لهم بدخول أي من المطعمين الراقيين. كانت هناك حانة صغيرة لكل الجنسيات والتي كان يمكن أن يجلس فيها المواطن البولندي ويقرأ. وذات مرة سألت رفيق لي بحزن إذا كان لا يمانع في الاعتناء بحقيبتي بينما أذهب لأشتري شيئا. سألني "هل تتفضلين بإعطائي الكتاب الذي كنت تقرأيه حتى تعودي؟" فأعطيته إياه وذهبت نحو الباب. وبينما ألتفت، رأيته فتح الكتاب بشغف ورأيته مذهولا. لقد كان كتابا صغيرا بغلاف أخضر. لقد ظن المسافر بالتأكيد أن هذا الكتاب هو "مصاص الدماء عربة النوم" أو شيء مشابه، في حين أن غلاف الكتاب يحمل عنوان: **"ناقص"**. من المحتمل أن تكون القصة مثيرة مثل "مصاص الدماء" ولمنها من نوع مختلف: حوليات تاسيتوس. وعندما عدت، كان ثائرا.

"هاهو الكتاب، ولكي جزيل الشكر. فأنا لا أقرأ اللاتينية. لقد نسيت ما كنا أعرفه منذ مدة طويلة." شرحت له بلطف أنه طلب الكتاب بنفسه. ولكن هذا لم يجدي. ظننت أنه لن يطلب كتابا من امرأة في رحلة قطار مرة أخرى. وعندما تحرك القطار أخيرا، حدثتني امرأة ريفية عجوز، بعد أن ظلت تحملق فيّ لفترة طويلة، بهدوء قائلة "إنها المرة الثالثة التي أسافر فيها إلى بيوتركوا معك. هل تجدين حقا من يدفع لكي؟ فالأسعار لا تختلف كثيرا عن وارسو!"

وفي الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر حدث شديد الأهمية بالنسبة لي. لقد سافرت إلى "لاواو". فمنذ أن رحل الروسيون، لم أكن قد حلمت بشيء آخر، ولكن حتى ذلك الوقت كان مجرد حلم. لقد أصبحت حدود "برذو ميسل" ممنوع عبورها تماما من قبل البولنديين، أقل بقدر بسيط مقارنة بوقت البلاشفة. ولا يمر منها إلا مواكب سيارات النقل الألمانية الطويلة التي تذهب من الجزء الألماني المحتل لتعود ثانية إلى ألمانيا وهي تحمل كل ما خلفه الاحتلال الروسي. وحيث أن الروسيين، حتى اللحظة الأخيرة، لم يأخذوا لم يأخذوا إلا القليل من أمتعتهم حيث لم يكن لديهم وقت، نهب الألمان العديد من الأشياء القيّمة – وأهمها كميات هائلة من الأشياء ذات القيمة الثقافية وأعمالا فنية– كانت ملكية خاصة في الماضي. أما الأوكرانيون منتصفي الأعمار والمتنبهون أثناء الرحلة، فسرقوا العديد من الأشياء من الألمان وباعوها في "كراكوا". وهكذا، بدأت "أشياءا" عديدة من بولندا الشرقية تظهر ثانية في الغرب، بما في ذلك بعض الأشياء التي

تخص أخي والتي كانت موجودة في منزل العائلة في روزدول. واستمر ترحيل البولنديين من أرض أجدادهم عن طريق سور الصين العظيم، كما أسموه. أشيع أن ستبرز دولة أوكرانيا الكبيرة على الجانب البعيد من هذا السور، وسيكون لديها استقلالها بعيد المدى والممتد حتى كييف.

وفجأة، وكانفجار قنبلة، تناقلت أخبار أن "مالوبولسكا الشرقية" ستنضم للجزء البولندي الذي تحتله ألمانيا وسيطلق عليها مقاطعة جاليسيا. لم نكن نصدق. ولكن بعد فترة وجيزة، ذهب الحاكم فرانك إلى المنطقة وقابله الأوكرانيون بقوس النصر، وألقى فرانك خطابا مؤثرا في لاواو والذي نشرته الصحف تحت عنوان "عودة جالسيا للمنطقة الألمانية". لقد كنت أظن أن القراء الألمان في تلك الأيام لن يندهشوا كثيرا إذا سمعوا أن الهند أو باراجواي عادوا إلى أحضان ألمانيا الأم؛ فلن يستقبلوا أخبار جالسيا كمناسبة عظيمة تستحق الاحتفال ولكن كحادثة عادية تماما. لقد توقعنا في ذلك الوقت أن تمحي الحدود المشهورة في برزيميسل (بين قطاعي بيولندا المحتلين من قبل روسيا وألمانيا) الآن، لكن هذا لم يحدث. بل بدأ الألمان فقط في فرض رسما للسماح للناس بعبور الجسر فوق نهر سان. ولقد كنت أحد هؤلاء المارين.

كانت هناك مشكلة بخصوص المبيت في "بريزيميسل" حيث أن المدينة مزدحمة وكان العديد من الناس ينتظرون ويأملون في الذهاب إلى نقطة أبعد في الشرق. وأثناء هذا الحدث، استغرقت في النوم على كرسي خاص بطبيب أسنان. وفي الصباح قادنا رجل ينتمي إلى حزب الصرب النازي إلى المعبر ودفعنا رسوم المرور. وعلى الجانب البعيد، لم يكن هناك أي قصور في صفقات المنتجات المستخدمة. وفي آخر اليوم اتجهنا إلى "لاواو": استقيظت بالقرب من حديقة ستريزسكي في مساء خريفي لطيف ولم أكن أصدق أو أدرك أنني عدت إلى لاواو في النهاية. اعتراني الذهول لدرجة أنني وقفت في الشارع كما لو كنت غرست في مكاني.

تفرست فيّ امرأة عجوز صغيرة الحجم بعينيها الذكيتين. "ومن أين ظهرت؟"

عانقنا بعضنا البعض بحرارة. لقد كانت هيلينا بولاسزكاونا، أستاذة التاريخ بالجامعة. وبعد ربع ساعة، كنت بين أصدقائي، بعد عام ونصف عقب هروبي ليلا في الثالث من مايو. تحدّثوا كثيرا وباستفاضة وبصفة خاصة عن البلاشفة. فاتضح لي أنهم قد

هربوا بمعجزة قبل ترحيلهم إلي قلب روسيا. بعد رحيلي، في صيف عام ١٩٤٠، بدأت صفوف طويلة من القطارات في التحرك ثانية إلى الشرق. وفي هذه المرة، كان المسافرون "هاربين" – أي الأشخاص الذين هربوا إلى الشرق من غرب بولندا بعد الغزو الألماني سنة ١٩٣٩، والذين لم يعودوا ليعيشوا في ظل الاحتلال الألماني. وبعد هذه الترحيلات الهائلة، أصبحت الأمور هادئة. وفي مايو ١٩٤١، قبل بدء الحرب (أي غزو هتلر للإتحاد السوفيتي)، اصطفت عربات القطارات المألوفة ثانية على القضبان استعدادا للهجرة الجماعية. ولكن هذه المرة، لم تكن القطارات مخصصة للبولنديين ولكن للبلاشفة، الذين يستطيعون الآن (في القطارات العسكرية المجهزة لنقل المزيد من البولنديين) الرحيل بسرعة وبكفاءة إلى قلب روسيا. علمنا بعد ذلك أنه كان هناك مخطط لترحيل النخبة البولندية المثقفة بأكملها.

وعندما بدأت القذائف تنهال علي "لاواو"، لوحظ أنه في منازل كثيرة كان هناك علامة صغيرة غامضة أسفل جرس الباب الأمامي. وفي ليلة، اختص من وجدت تلك العلامة أسفل أجراس منازلهم بالرحيل ... وفي الواقع، لم يفعلوا ذلك. بل عاشوا ليروا انسحاب آسيا من لاواو واتحاد بولندا. وفي تحد لكل الدلائل وبرغم كل شيء، عاشوا تجربة الإحساس المشجّع "بالعودة إلى أوروبا". وعندما تلفظت ببعض التحفظات، أجاب الناس: "الألمان عدو بشع، ولكنهم لا يقارنوا بالتأكيد بالآخرين. فأنت لم ترين سجن "برجديكي"، لذا فلن تعرفين من هم البلاشفة."

كان بريجيدكي، أشهر سجن في لاواو، شيئا مختلفا لدرجة أن لا احد يستطيع تحدث عنه بهدوء. فلقد قتل البلاشفة كافة السجناء قبل أن ينسحبوا، وبعد بضعة أيام سمح الألمان للسكان بزيارة السجن الذي تم تدميره تماما على نفس الحالة التي تركه عليها البلاشفة. ذهب نصف سكان لاواو إلى السجن للتعرف علي جثث أعزائهم وسط الجثث المبتورة والتي، في معظم الحالات، جعلت مهمة التعرف غير مجدية. لقد كان هناك رهبان مصلوبين على جدار: ترى أحدهم بحبات مسبحته خارقة لتجويفي عينيه؛ والآخر الذي حفر على صدره رمز الصليب بواسطة المسامير إي جانب أشياء أخرى كثيرة... وعلى الرغم من كل شيء، تم التعرف على بعض الجثث بواسطة أقربائهم، وأحيانا عن طريق قطعة ملابس أو الأسنان. كان الناس يتحدثون عن تلك المناظر لأنه، حتى بعد مرور ثلاثة شهور، لم يستطيعوا التفكير في أي شيء آخر.

إن أهل مدينة "لاواو" لا يعلمون الكثير عن ألمانيا ويسألون كثيرا الأوضاع في الغرب، والذي لا يعلمون شيئا عنه علي الإطلاق. وخلال المحادثة، أشاروا بصفة دائمة إلى الخمس وعشرين أستاذا ومحاضرا الذين اختطفوا في باكورة الاحتلال الألماني وتوسلوا إلينا أن نبحث عنهم في الغرب. كانوا قلقين: هل هؤلاء الرهائن يعاملون معاملة سيئة وهل يعذبون باستمرار حيث لا توجد إشارة واحدة على بقائهم على قيد الحياة. كان من بين هؤلاء الأستاذ "استروسكي" الذي يحظى بتقدير كبير سواء كرجل أو كطبيب، والذي اختطف هو وزوجته واثنين من المستأجرين من الباطن وهما بوي زيلينسكي والأب كومورنسكي؛ وكذلك عميد الجامعة الأستاذ "لونج شامبس" وأبنائه الثلاثة الناضجين؛ كما كان هناك الأستاذ اميرتس سولويج ذو الثمانين عاما والذي اختفى هو وحفيده آدم ميسويز؛ والأستاذ "رينسكي" الذي تم اعتقاله لثمانية عشر شهرا في سجن بريجيدكي ونجح في الهروب قبل يومين من الغزو الألماني عن طريق فتحة في الحائط أحدثتها قنبلة، وبالتالي هرب من موت محقق على يد البلاشفة. تمكن من الاستمتاع بحريته لمدة أربعة أيام فقط.

"لقد كان شيئا محزنا للغاية، فقد فعلوا نفس الشئ في مدينة "كراكوا". لقد ذهبوا إلي الأساتذة والمدرسين وسوف يفرجون عن بعض منهم بعد شهرين، ولكن يمكن أن يجمعونهم ثانية كضحايا – تماما كما كان الأمر هناك." ولازال أهل مدينة "لاواو" يعتقدون أنه، على عكس مدينة "كراكوا"، لا توجد أي معلومات عن أساتذة الجامعة في "لاواو" في الطريق حيث أن "لاواو" لازالت معزولة عن الغرب.

إن الحالة المادية للمدينة في هذا الوقت كانت مخيفة. فقد كانت المجاعات منتشرة ولم يكن هناك أي محال تجارية وأدى دمار الحالة الاقتصادية التام والذي تسبب فيه البلاشفة إلى أسوأ النتائج حيث منع الألمان دخول أي منتجات إلي المدينة وكذلك لم يقوموا باستيراد أي منتجات بأنفسهم. فلم يكن هناك أي محال تجارية بعيدا عن المنشآت الحكومية والتي كان يديرها البلاشفة والتي أصبحت الآن، كنتيجة طبيعية، "للألمان فقط". لقد كنا نشعر بالجوع. وفجأة ظهرت خادمتي السابقة "إندزيا"، وهي تحمل مؤن كثيرة من كومارنو. لا أستطيع وصف ماذا كان لقاء تلك الصديقة الأكثر إخلاصا بالنسبة لي بعد استراحة لمدة ثمانية عشر شهرا. فأندزيا، على عكس بعض البسطاء، ليس لديها أوهاما من أي نوع عن الألمان. لقد صرحت لي بشكل مباشر أن

الشعب الذي يغني عن بلده ويقول "ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع" لا يساوي الكثير حيث أن "هذا النوع من الفخر يعد مضحكا." وعندما تذكرت ما كانوا يفعلوه في المناطق الريفية، فترى أن الألمان ليسوا أفضل حالا بكثير من الروسيين - فهم فقط أكثر غباءاً وهو ما جعلها تتمكن من إحضار الطعام لي وللأصدقاء. إنها علي حق. إنهم أكثر غباءا، ولكنهم كانوا يمتلكون بعض المميزات الأخرى الجديرة بالثناء والتي اتضحت فقط عندما قورنوا بالغازي الآتي من الشرق. وفي خلال يومي الأول في لاواو بعد رحيل البلاشفة، لاحظت شيئا شديد الغرابة أصابني بالرعب نظرا لروح المدينة المعنوية العالية. لقد تركت الهيمنة الروسية آثارا عميقة لاكتئاب بشع. فحتى أهل مدينة كاراكوا المعروف عنهم البرود، ناهيك عن وارسو، كانوا لا يعانون إلا من الاكتئاب.

يمكننا الآن أن نفهم لما اختلفت ردود أفعالنا تجاه الاحتلال الألماني تماما عن تلك التي أثيرت تجاه السوفيت. فطريقة التعامل الألمانية مع الأمور أغضبتنا وأزعجتنا لدرجة كبيرة جدا. وعلى رأس كل هذا، فاضطهاد البولنديين أثار في مجتمعنا شيئا لا ينساه من خاض تجربة الاحتلال – وهو الوعي بالوحدة التامة بين أفراد الشعب البولندي. ووسط المصائب الكبيرة كان هناك فترة تتميز بالسعادة الجمة، وهي عندما لم يهتم فرد بالأصول الطبقية لفرد آخر أو انتمائه الحزبي. كان هناك فقط تلك القوة المعنوية الجماعية وهي الانتماء لبولندا. فعلى الرغم من فرديتنا، فشعر كل منا أنه جزء من وحدة كاملة. فكانت النتيجة هي إثارة شعور شبيه بالنشوة الجماعية، والتي ازداد بداخل كل منا بتناسب مع شعورنا المتزايد بقرب الموت، فقط بفضل كوننا بولنديين حقيقيين. ولازالت لتلك القوة الهائلة الكامنة في الضغط جذورها في مكان آخر أيضا.

فالعاطفة التي ولدت بداخل كل منا قد بلغت ذروتها بالوطنية ولا شيء غير ذلك. فمن الواضح أن حب بلادنا، التي تعرض وجودها للخطر، قد اكتسب قوة مع كل يوم يمر. فلقد اشتعلت شرارة الكفاح ليس فقط بسبب حياة الوطن ولكن بسبب كل شيء جعل الحياة تستحق العيش – كل المثل العزيزة على كل فرد فينا وهي المسيحية وحقوق الفرد وكرامة الإنسان. إننا عادة ما نشكر الرب على الشيء الوحيد الذي تبقى لنا: الوعي بأننا نموت أثناء دفاعنا عن أسمى قيم الإنسانية. وبناءا على هذا الوعي، تزايد لدينا شعور الذي يذكرنا غالبا بما نسميه

بروح الحروب الصليبية. وأعطتنا حقيقة وجود عنصر روحاني وكوني في هذا الكفاح رابطة وثيقة بالعصور الوسطى.

بدأنا الدفاع عن مثلنا وتمثل ذل في الكفاح ضد أمة كانت نفسها تمتلكهم، ولكنها اليوم ترفضهم عمداً من أجل تأمين السلطة المادية والسيطرة على الآخرين – وبالتالي تمحو اسمها من كتاب الأمم المتحضرة. لقد اعتدنا أن نفكر في المعضلة الأخلاقية الرهيبة التي تواجه أي ألماني "صالح". فمثل هؤلاء الألمان موجودون بالفعل، وفي أمة بمثل هذا الحجم، يجب أن يكون هناك القليل منهم. وعلى العكس من الانسجام التام بيننا، تصورنا أن الصراع عندهم بين المبادئ الأساسية للأخلاق من ناحية والواجب الذي ينص على التضحية بالحياة من أجل الوطن من ناحية أخرى يجب أن يكون غير محتمل. فيجب أن يؤدي هذا الصراع إلى تصرف جماعي من قبل هؤلاء الناس والذين، من خلال تضحيتهم بحياتهم، يمكنهم، ولو جزئيا، محو تلك الوصمة من شرف ألمانيا القومي. هذا ما كنا ننتظره ولكن لم نكن نستطيع الانتظار أكثر من ذلك – لذا استمرينا في التضحية بحياتنا.

ومن أجل اتحاد بلادنا، أثبتت فئة **(ناقص)** نفعها بشكل كبير. فمعدومي القيمة الذين يسعون إلى مميزات الطبيعة المادية الكبيرة –ناهيك عن سلامتهم الشخصية– فصلوا أنفسهم عنا للأبد. وبشراء الناس بهذه الطريقة، نجدنا هتلر من الأشخاص – حتى وإن كانوا قلة– الذين يشكّلون قشور وثمالة المجتمع، والذين تجنبوا الباقي منا، والذين يتجهون نحو الفناء.

لقد كان الأمر مختلف أثناء الاحتلال السوفيتي. فقبل الحرب كان يمكن أن تكون انسانا جديرا بالإهتمام ومواطن بولندي صالح بالإضافة إلى اكتساب خبرة نظرية في الشيوعية، فلم يكن هناك أحد في بولندا (بعيدا عن هؤلاء المستأجرون) يعرف شيئا عن الشيوعية عمليا. ونتيجة لذلك، فالرابطة الأخلاقية بين هؤلاء الذين لم يعادوا السوفيت منذ البداية عندما احتلوا البلاد، وبقيتنا كانت غير واضحة إلى حد كبير. كان أي مؤيد لهتلر في بولندا يعتبر وغدا بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ولكن من كان، في البداية، لديه أوهاما بخصوص السوفيت، لا يعتبر وغدا بالضرورة حيث أنه، وفقا لنظرية الشيوعية، كان هناك قدر كافي من المثالية.

لا يندهش المرء كثيرا من رد فعل هؤلاء الذين قضوا أوقاتا صعبة ويعدون الآن بعهد من العدالة الاجتماعية. فهذا غير

موجود على أرض الواقع ولا يمكن أن يكون له وجود فهو شيء غير معلوم، ليس فقط لهؤلاء الذين ينتظرون حياة أفضل ولكن للآخرين أيضا. فأنا أعني هؤلاء الذين لم يبرزوا بأنفسهم من بين الجماهير، ولكن من هم مهتمون بتلك المشكلة قبل أي شيء؛ عن هؤلاء الذين بدا لهم النظام القديم غير العادل غير محتمل ولكنهم لا يعلمون أنه، في خلال بضعة أعوام، سيصبح الماضي هو "الجنة المفقودة" بالنسبة لكل الكرماء، بغض النظر عن كيفية تعاملهم السابقة مع معتقداتهم الاجتماعية أو أصولهم الطبقية. فبعد الاختلاط بمعارف وثيقة تفتحت عيون هؤلاء على ذلك السراب اللامنتهي من الكذب والرعب والقسوة، لقد أدركوا الأهداف الحقيقية لموسكو. وعندئذ، كان الوقت قد فات وأصبح من الخطورة، بل من المستحيل انفصالهم عن القضية. ولكن حتى هؤلاء المؤيدين بشدة منذ البداية كانوا يشعرون بأسى لا يوصف من جراء النفاق الآسيوي، والمفاجآت اللامنتهية، وقبل كل شيء، التكرار المتواصل لحديث المثالية المنمق.

كنت أري أنه، بعد قيام الألمان بالقبض علي وترحيل وقتل العديد من أساتذة الجامعة البولنديين، فإن إعطاء دورات جامعية سرية في الجزء المحتل من بولندا من قبل الألمان قد نتج عنه نتائج أفضل عن "العمل" الرسمي لأساتذة لاواو، الذين اختنقوا من جراء الإجلال الخيالي وكانوا مملين بدرجة لا توصف. فمنذ وجودهم العقيم خلال وقت الاحتلال السوفيتي، أخذوا معهم ذكرى واحدة مثيرة جدا – ألا وهي الرحلة إلى موسكو. فسافروا إلى هناك بتكليف رسمي لحضور مأدبة، وتم استقبالهم بحفاوة وبخطاب رائع عن عظمة ووحدانية التعليم. وقف كرزمنوسكي، رئيس الجامعة، ليجيب على الأسئلة وبالبولندية شكر مضيفيه على كلماتهم الرقيقة. وبعد ذلك، واصل حديثه بالروسية الصرفة كي يمكن للجميع فهم ما يقوله بدقة وأضاف أن على الرغم من تلك الكلمات الرائعة والاستقبال الحافل للأساتذة البولنديين، غيّمت ظلال سوداء على كل شيء. والسبب كان بسيطا جدا: فكل منهم كان يعرف شخصا عزيزا على قلبه تم ترحيله من مدينة "لاواو" إلى قلب آسيا. ثم جلس رئيس الجامعة ولم يود أحد بعده أن يتحدث.

وفي اليوم التالي قاموا بزيارة كرزمنوسكي العجوز وأخذوه معهم. وأصيب زملاؤه بالذعر. وبعد برهة، عاد كرزمنوسكي. لقد أخذ إلى مقر البوليس السري السوفيتي، وهناك سألوه عما إذا كان تم ترحيل أحد أفراد أسرته. فأجاب أنه تم ترحيل ابنته

الوحيدة وزوجها في شهر مايو ١٩٤٠. دونوا عنوانه ووعدوه بإرسال أفراد أسرته ثانية إلى لاواو، وانتهي الأمر علي ذلك.

وعندما كنت في "لاواو"، جاء هذا الرجل العجوز القوي لزيارة الأصدقاء الذين كنت أعيش معهم وطلب مني (وإن بدا مطلبه أمرا) أن أبحث عن اثني وعشرين زميلا "حتى تجدينهم". وبخصوص نفس الموضوع، نصحني أحد زملائي من أساتذة الجامعة أخيرا بالتخلي عن البحث.

"لقد لقى هؤلاء الناس مصرعهم منذ فترة طويلة – طويلة جدا. أؤمن بأنه من كل القصص المختلفة المنتشرة بخصوص مصيرهم، واحدة فقط هي الحقيقية. ووفقا لهذه القصة، شوهد نفس عدد الأشخاص في فجر يوم بعد القبض عليهم ليلا ليتم ترحيلهم إلي "ولكا"– وهو مكان مشهور بالإعدام منذ أيام البلاشفة. ومن ضمنهم أحد الجرحى أو الموتى والذي حمله رجلان كما كان هناك سيدة تعرج بشدة. في الواقع، كانت السيدة اوستروسكا تعاني من مشكلة في احدى قدميها منذ وقت طويل."

وبعد عدة أيام انتهت زيارتي لمدينة "لاواو" وكان عليّ الرحيل إلي الغرب. لقد أخذت معي مخطوطتي التي أعدتها عن المشاكل الدينية المتعلقة بأعمال ميشيلانجلو، والتي أنقذتها أندزيا منذ وقت طويل من كومارنو. لقد أنقذت بمعجزة عقب هروبي من لاواو بفضل تسليفي إياها لزميل قبل هروبي بيومين. والتقيت بها ثانية في لاواو حيث كانت في رعاية الأصدقاء. كما أخذت معي اثنان من أولاد أصدقائي ليعيشوا مع الأقارب الذين يمكن أن يوفروا لهم ظروفا مادية أفضل. لقد وضعت الطفلين في مقطورة مغلقة من جوانبها الأربعة وتجرها شاحنة ألمانية. وبهذه الطريقة، سافرنا إلي "كراكوا" كأننا أغراض عسكرية.

ومرة واحدة، وبكل الطرق الممكنة، علنيا وسريا، بدأنا محاولة العثور على أساتذة لاواو في السجون ومعسكرات الاعتقال والمحاجر في بولندا وألمانيا. ولكن لا أثر لهم على الإطلاق. لقد اختفوا وكأنهم حجر في ماء. وجّه رئيس مجلس الإغاثة آدم رونيكير أسئلة شفهية ومكتوبة لكل السلطات الألمانية ولكن لم يتلق إجابة. فأرسل قائدنا رسالة مكتوبة بالبريد إلى لندن يستوضح فيها عن حالة الأساتذة الذين أشير إليهم في النشرات. فلقد أرسلت بنفسي رسالة إلى سويسرا أستفسر فيها عن امكانية تدخل هذا الجانب، ولكن لم تكن هناك دلالة على

ذلك؛ لا شيء لشهور طويلة، حتى جاء رد في النهاية من سويسرا: "أخبرنا الألمان أن أساتذة لاواو في مكان آمن."

وفي أكتوبر ذهبت ثانية إلى "ساكز" ولكن لم أجد أثرا لهامان. وفي النهاية، عدت في الرابع من نوفمبر، اليوم الذي يوجد فيه القديس الذي يرعاني. وفي طريقي من محطة القطار ذهبت إلى الكنيسة وكان هناك قداس مقام، لذا ركعت بالقرب من المدخل.

صليت بشفاه مضمومة ودعيت قائلة: "تشارلز بوروميو، هذا يومك ولقد استقبلت اسمك عندما تم تعميدي. ما يحدث هنا اليوم لهو أبشع آلاف المرات من طاعون ميلان! وبعفو غريب من العناية الإلهية، يجب عليّ -في هذا اليوم الخاص- أن ألتمس مساعدتك لهؤلاء الموجودين هنا والذين يعانون بقدر رهيبو تشارلز بوروميو، قف بجانبي اليوم!" ثم خرجت.

وبعد مدة قصيرة، قدمت لمواجهة الجلاد. كان الرجل يبدو أقرب للجزار منه إلى الرجل السادي: هادي، بدين نوعا ما، غليظ، ذو يدين كبيرتين وضخمتين بأصابع بدينة وقصيرة – تلك اليدين اللتين كنت أحملق فيهما طوال مدة خمس وأربعين دقيقة وهي مدة الحوار معه، هاتان اليدين الملوثتان بالكثير من الدماء البولندية. ولحسن الحظ، فهو لا يمد يده ليحيي امرأة بولندية، لذا لم أضطر إلى لمس يديه. في المسافة بيننا كان يقف كلب هائل، والذي كنت، بصراحة، خائفة منه أكثر من خوفي من هامان. افترضت مقدما أنه لن يلقي القبض عليّ هناك. ولكني لا أتذكر مطلقا أنني رأيت كلبا في حياتي بمثل هذا التعبير الشرير على وجهه. وفي مرات عديدة كان تنم عنه رغبة في تمزيقي إربا، ولكن كبحه سيده. علمت بعد ذلك أن هذا الكلب كان رفيق هامان الملازم له ومساعده القدير في العمل. ومنذ بداية الحوار، لم يبد على وجه محاوري أية دلائل على نيته بالسماح بإطعام السجناء ولكن في النهاية أعطاني الإذن ثم تعهد بالقبض علي أي "مفسدة" – أي أية خطابات مهربة.

وقبل مغادرة ساكز، ذهبت للكنيسة وركعت ثانية في نفس المكان: "تشارلز بورومیو..." لم أمر مطلقا بذلك الشعور القوي بتلك الرابطة الرهيبة بين متشددي الكنيسة على الأرض وفائزيها في السماء.

كانت بينكزو هي إحدى محطاتي التالية. استقبلت من مصدر خاص هناك بعض المعلومات والتي كانت معلومات خاصة ومفصلة للغاية. أخبرتني امرأة لا أعرفها والتي خرجت

من السجن عن طريق دفع المال عن الأساليب العقابية / الجزائية التي تطبق في قسم خاص للنساء ذوات الجرائم السياسية من كافة أنحاء منطقة رادوم. لذا ذهبت إلى بينكزو. كانت منطقة بعيدة عن وسائل النقل البسيطة التي اعتدت عليها. فبعد عدة ساعات بالقطار، وصلت إلى كيليس. وهناك قمت ببعض الترتيبات الخاصة بالسجناء بمساعدة قيمة من قبل قديس وبدون أي مشاكل رئيسية. وبعد قضاء ليلة مع عائلة مهجّرة تعيش في حجرة رسم طريفة متهدمة، تمكنت -على الرغم من افتقاري الفطري لمهارات الرياضة أو الملاكمة- من اختراق طريقي من خلال مركبة تعرف محليا بالحافلة، ووصلت إلى بوسكو. وهناك وفّر لي مكتبنا المحلي التابع لمنظمة الإغاثة وسيلة نقل على هيئة مقعد في عربة. وقام مهندس اوكراني بقيادة زوج من الخيول المنهكة واصطحبني رجل يهودي والذي، حتى الوقت الراهن، لا زال مصرحا له بالتحرك بحرية شريطة أن يرتدي شارة تدل على هويته.

وبعد أكثر أو أقل من خمس ساعات في الطريق، وصلت سيارتنا قرب الغسق إلى أطلال بينكزو اليهودية التي تم تدميرها بالكامل في سبتمبر عام ١٩٣٩. كان هناك لافتات تحمل أسماء شوارع هتلرية معلقة على الجدران المهدمة والتي أعطت المكان مظهر غريب ومتفرد. وقفت السيارة. نزلت منها وهرعت لمقابلة رجل كنت قد سمعت أنه يعمل في السجن لمساعدة السجناء مما يعرض حياته لخطر كبير. لقد كان قاضيا. ومن خلاله ومن خلال اثنين من كبار الشخصيات المحلية تمكنت، أثناء حوار ليلي، من تسليح نفسي بكل التفاصيل التي كنت أحتاجها في حواري مع الألمان. لقد علمت أنه كان هناك بضع مئات من المسجونين في سجن صغير وبه قسم خاص ومنفصل للنساء والتي أرسلت إليه أخطر السجينات السياسيات من كافة أرجاء مقاطعة رادوم. عاشت النساء هناك في أسوأ الظروف وتعرضن للمضايقات والعذاب. لقد أنجبت إحداهن مؤخرا طفلا ذو صحة جيدة ولم يتم إخبارها حتى الآن أن زوجها قد لقي مصرعه في أوزويتز. لقد كانت في أشد الحاجة إلى حفاضات الأطفال، وكان يجب إرسال بعضا منها إليها على الفور. كما علمت أيضا أنه كان هناك سجّانان بولنديان واللذان كانا يخاطران بحياتهما بشكل بطولي من أجل هؤلاء النساء.

وفي الصباح ذهبت إلى السجن. وساعدني صديق السجينات للوصول إلى هدفي وانتظرني، بدون علمي، حتى ظهرت. عندما

دخلت المبنى (بمساعدة بطاقة هنريش)، طلب مني البقاء بالداخل وعدم مغادرة مكاتب السجن. وعلى الحائط كان هناك صبورة سوداء كبيرة مدون عليها إجمالي عدد السجناء الرجال والنساء في أقسامهم الخاصة. كان واضحا من الصبورة، باللون الأبيض والأسود، أنه كان هناك أربعة وخمسون شخصا في القسم الخاص بالنساء. والألمان فقط هم من أمروني بالبقاء بجانب تلك الصبورة! وبطبيعة الحال، دونت باختصار تلك الأرقام في مفكرتي.

وفي النهاية، تم السماح لي بدخول مخبأ الطاغية. اسقبلني موظف ألماني فظ غليظ لا يحتل منصبا مهما، والذي وافق على الفور على تقديم الطعام للسجناء. ثم أكدت عليه عدة مرات أن يتم تقديم الطعام لكل السجناء على السواء، وهذا بأمر من السلطات الألمانية. وبدا هذا الشرط وكأنه يثير قلقه.

"حسنا – الكل تقريبا. أوافق على ذلك."

كررت كلامي "كلا. الكل – بلا استثناء."

"ولكن لدي قسم هنا والذي، لو علمت ماذا يسمونه، لن تطلبي تقديم الطعام لهم. فهم نساء..." وبتر كلامه، كما لو أصابه الخوف من ثرثرته. "مستحيل! مستحيل! إلا إذا أحضرتي لي تصريحا من الجستابو في مقاطعة رادوم."

فقلت له أن رادوم لا تخصني في شيء حيث أن الأمر كله مرتبا في كاركوا. ثم بدأت في توضيح أنني لدي لحم خنزير مملح وسكر؛ وأعطيته قطعة ليتذوقها فبدأ يلين. كنت قد أعددت مقدما –في حالة النجاح- عينة خاصة للقائد. كنت متأكدة أنه سيحافظ على وعده لأنه يعي، من خلال خطابات مجهولة، أن البولنديين يراقبون كل خطوة يقوم بها داخل السجن ويتوعدونه دائما بالانتقام. وبعد حين، أخبرني أن النساء يحتجن إلى ملابس داخلية وملابس ثقيلة.

قال "تصوري ماذا ستكون هيئتك بعد عام إذا تم القبض عليك وكنت ترتدين ما ترتدين الآن –بدون حتى بلوزة احتياطية. شيء آخر. في القريب العاجل سيولد رضيع، سيولد هنا– على أن يتم تسليمه للجنتك. هل ستقبله اللجنة؟ يمكننا فقط أن نعطيه اسما."

أجبت "باسم أو بدون، سنأخذه." وأضفت (ولكن في خاطري فقط): "وسوف يكبر ليصبح منتقما!" (وعلى أي حال، فلدي له اسما). وفي غضون ذلك، اقترحت إرسال دعما من الحفاضات

والتي أبدى مافقته عليها. وفي النهاية، توصلنا إلى اتفاق بخصوص كل النقاط.

وفي طريق عودتي كنت أقترب من أقرب محطة قطار عندما صادفت مشهدا مؤثرا للسعادة إذ حياني صديق السجينات القديم. وفي هذه المرة تحدثنا كثيرا وقال لي أن الرجل الصالح يجب أن يشعر أنه وجد امرأة أخرى "ليرعاها". ثم ذهبت إلى كنيسة النهضة قبل شروعي في اتخاذ طريق العودة إلى كاراكوا.

سألني موظف حجز التذاكر ببينكزو بذهول "ماذا؟ هل تريدين السفر اليوم؟ مستحيل، لدينا فقط قطارين ربط إلى كاراكوا في الأسبوع."

وعندما اتضح أن القطار التالي بعد ثلاثة أيام، قلت أنني سأذهب بدون قطار ربط. تبادل موظف الحجز وصديقي الجديد نظرات مفعمة بالذعر كأن هناك شخصا يريد الذهاب إلى القمر. وفي النهاية، ونتيجة إصرار شديد مني، وجدت مقعدا في عربة خشبية يقودها حصان متجهة إلى بلدة كيج. أعطاني صديقي خطابا إلى ناظر المحطة المحلي. فقال أنني قد أعثر على قطار قائما من هناك "بالصدفة". لا أتذكر كم استغرقت الرحلة، أتذكر فقط أنني تشربت بالمياه وتجمدت حتى النخاع. فمياه الأمطار المنهمرة جعلت عيناي تحرقاني. كانت كل حقول نوفمبر حولنا، والتي تنزلق منها قطرات المياه، تبدو مظلمة. قلت لنفسي أن ريف "زيرومسكي" الوطني يغمر الأفق المتموج بنفس الضوء الذي تم وصفه في "ناقص". أسعدني هذا الاعتقاد. أخذت عهدا على نفسي "لن يهاجموننا." وقبضت يدي المتجمدتين بغضب من ناحية وخوف من ناحية أخرى من أنهم قد يتجمدوا بردا. فكرت في طريقة حياتي الحالية وبدا لي أن التنقل من سجن إلى آخر يسمح لي بتفقد أخطر الجراح الموجودة في جسد الأمة، واحدا تلو الآخر.

وأخيرا، وحينما كانت بدأت تظلم بالفعل، رفع السائق سوطه ليشير إلى مبني منخفض للغاية: "المحطة". ذهبنا إلى هناك، ونزلت من العربة وكانت تقطر المياه من بين طيات معطفي المصنوع من جلد الأغنام، وسارت العربة بعيدا. كان محيط المبنى لا يدل على وجود أشخاص يمكن الوصول إليهم. وأخيرا، وبعد بذل كجهود كبير، وجدت موظف عجوز أصم نوعا ما بالمحطة.

سألته "ما هو موعد القطار المتجه إلي كاراكوا؟" فبدا

مذهولا. كرر ببطء "كاراكوا؟" وكأنه لم يسمع هذا الاسم من قبل. شعرت باليأس.

"أين ناظر المحطة؟"

"إنه نائم." فيمكن أن تكون الساعة الخامسة بعد الظهر.

"أين يمكن أن أنتظر؟"

"في غرفة الانتظار." وفتح لي باب حجرة صغيرة شديدة الشبة بمكان تعودت عليه بشدة: خلية السجن. وبالإضافة إلى ذلك، إنها غرفة الانتظار الوحيدة في الجزء البولندي المحتل من قبل ألمانيا التي لا تحمل لافتة "للألمان فقط". فحتى الألمان لا يأتون هنا! وبعد فترة استيقظ ناظر المحطة (اعتقد أن وجودي قد ساعده على الاستيقاظ) وخرج وسألني ماذا أريد.

تذمرت قائلة "القطار!" ولم أحاول حتى ذكر كلمة كاركوا المخبولة.

"من المحتمل أن يصل في غضون ساعتين. لقد غادر على التو، ومن الصعب تحديد متى سيعود."

سألته بجرأة "وإلى أين يتجه هذا القطار؟" فبدا مذهولا.

"إلى جيدرزيجو، بالطبع! إلى أين سيتجه غير ذلك؟"

أجبت "هذا جيد. سيكون هذا لطيفا." وتمنيت أن تقوم كلماتي بتهدئته. ثم تذكرت الخطاب في جيبي.

"لدي خطاب لك." اختطفه وفتحه وقرأ بضعة كلمات منه وتغيرت نبرة صوته جذريا.

"أهلا بك هنا، سيدتي! الجو بارد وملابسك مبتلة!"

وقادني إلى غرفة دافئة وهمس في أذني زوجته بمجرد دخولنا، وبالتالي قابلتني زوجته بالترحاب وعندما رأت الحالة التي عليها ملابسي، أخرجته على الفور من الغرفة بدون إحداث ضجة وأمرتني بحماس أن أخلع ملابسي المبتلة وأن أجفف نفسي ثم أحضرت لي شرابا ساخنا.

وبعد بضع ساعات، كان هناك، بالتأكيد، دلائل على وجود بعض النشاط. فحضر خمس أو ست أشخاص يريدون شراء تذاكر. وأخيرا، وبصافرة ثاقبة، ظهر القطار الصغير. كان الرصيف في ظلام دامس. وفي اللحظة الأخيرة ظهر ناظر المحطة ومعه شاب طويل يعرج بوضوح والذي همس في أذنه ثانية ثم التفت إليّ وأضاف: "هذا الرجل المذهب سيرعاك سيدتي أثناء الرحلة."

جلسنا في مقاعدنا في العربة المظلمة. وجلس رفيقي الذي لا أعرفه على مقعد بجانبي وبدأ يسألني عن رعاية السجناء. تحدث بالبولندية التي يتحدث بها رجل متعلم. وأجبته بمراوغة.

أجبت بحقائق قليلة معروفة "تستطيع التحدث. فهذا يساعدنا على معرفة أن العمل المهم قد تم تنفيذه. وأنا، كذلك، أعرف أن التحدث في هذا الأمر آمن."

ثم سألته "أنت تعمل هنا، أليس كذلك؟"

"في المحاجر مع العمال." وأضاف "فهم يحتاجون إلى أحد هناك." ولقد تحدثنا لفترة طويلة دون أن يرى أي منا وجه الآخر ولا نعرف شيئا عن بعضنا البعض باستثناء ما هو شديد الأهمية. وعندما اقتربنا من جدرزيجوا، وقف وألقى عليّ التحية وقفز من القطار قبل أن نصل إلى المحطة. وأصبحت وحدي ثانية.

وأثناء الرحلة فكرت، لأول مرة، في كيفية احتياج المؤرخ، عندما يقوم بتأريخ هذه الحرب، إلى تبني طريقة مميزة. فمن الواضح أنه يجب عليه وصف أسباب ونتائج قرارات السلطات المهمة بالإضافة إلى الأعمال المشهورة. وعلى الرغم من ذلك، إذا فشل في فهم جوهر الأشياء، إذا فشل في تقديم بطل الحرب البارز، سينقضي الغرض من عمله ولن تعلم الأجيال البولندية في المستقبل الحقيقة. فالبطل الحقيقي هو مواطن الجمهورية المتوسط، سواء كان فلاحا أم مثقفا، مالك أراضي أو قديسا، فتاة ريفية أة سيدة جامعية. فالشخصيات الدرامية هي ضحايا بينكزو المعذبين، وحراسهم -هؤلاء السجّانون الذين يعرضون حياتهم للخطر من أجل إنقاذ النساء من الموت جوعا- وناظر محطة كيج وعامل المحاجر غير المعروفغ الذي كان يجلس بجانبي منذ وقت قصير.

إن القطار الصغير واقف الآن في مزرعة واسعة. وصاح أحد: "لقد تعطل القطار! نحن على بعد ثلاث ونصف كيلو مترا من المحطة. والقطار المتجه لكراكوا من هناك سيقلع بعد نصف ساعة." وبمجرد سماع تلك الكلمة السحرية، قفزت أنا وبعض الركاب من القطار وأخذنا نجري عبر المزرعة وكنا نتعثر في كل خطوة. وعندما وصلنا إلى محطة جيدرزيجو، علمنا أن القطار سوف يقلع بعد ثلاث ساعات. ووصلت إلى مدينة "كراكوا" في صباح
اليوم التالي.

وفي هذا الوقت حدث تغيّر معين في طبيعة وظيفتي. فمن الواضح أن الموارد المالية التي توفرها منظمتنا للإغاثة يجب تفسيرها للمجلس الرئيسي للإغاثة بالتفصيل الدقيق، ولكن بدأ عملنا في رعاية المسجونين في توفير امكانات متزايدة في امكانية الوصول إليهم ومنحهم مساعدات أكثر (ولكنها قانونية بالفعل).

وفي كل مدينة أو قرية، كلما تمكنت من التواجد هناك، كلما زادت ثقة السكان المحليين فيّ وكلما اقترب مني من لديهم وسائل شخصية، سواء كانت عن طريق الرشوة أو أية طرق أخرى، لتوزيع الطعام والملابس للسجناء. وعلى الرغم من ذلك، بدأ التزامهم وشجاعتهم في تجاوز مواردنا المادية. إنهم يحتاجون مالا أكثر. وبعد ذلك قام قائد منظمة المقاومة الخاصة بنا، أثناء زيارتي التالية لوارسو، بوضعي على اتصال مع الوفد السري في "وارسو" للحكومة البولندية في المنفى، ومقره لندن. ومنذ ذلك الوقت، ففي كل مرة أقوم فيها بزيارة وارسو، كنت أتمكن من جمع بعض الأموال من هذا المصدر "الثاني". ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لكل سجن خططان للإغاثة قيد العمل – إحداهما قانوني والأخرى سرية– واللتان يكملان بعضهما البعض. وعلى الرغم من ذلك، ظلت اللجنة المحلية لا تعلم شيئا عن مصدر المال الذي أوصله للسجن للمتعاونين معنا. هنأت نفسي بهدوء على امتلاك "اتصالات واسعة" و"أصدقاء كرماء". كانت تواجهني مشكلة واحدة من ضمن مشاكل أخرى ألا وهي خوفي المستمر من تلفت كمية المال الموجودة تحت تصرفي انتباه هؤلاء حسني النية الذين لا يريدون الاطلاع على المصدر السري؛ أو أن ينكشف هذا المورد المزدوج ويعرف في سجن أو آخر. وفي غضون ذلك، حقق عملنا نجاحا نوعا ما.

وقرب نهاية شهر نوفمبر، كنت ثانية في طريقي لمدينة "لاواو"، ولكن هذه المرة بصحبة رئيس منظمتنا للإغاثة، آدم رونكير، ونائبه الدكتور سيفريد ورئيس لجنة مساعدة اليهود الدكتور ويشوريت. حقق هذا الرجل ذو الثقافة الفكرية والروحية البارزة، وقبل أي شيء الرجل ذو القلب الرائع وذو الشجاعة الفائقة، معجزات في موقعه الرهيب. لقد كنت أحظى بشرف العلاقة به منذ بضعة شهور وشرف اقتراح العمل سويا في مجال رعاية السجناء. ومنذ ذلك الحين، كانت اللجنة اليهودية تزودنا بانتظام بالمواد الغذائية والتي نقدمها لليهود في السجن. كنت أشعر بالامتنان أيضا تجاه قائد حركتنا للمقاومة السرية بسبب دعمه للمشروع منذ البداية. ففي اللحظة التي أخبرته فيها عنه، أمر بعمل كل شيء ممكن لمساعدة اليهود أيضا.

وفي هذه المرة في "لاواو" كان علينا الاهتمام بالسجن الموجود في شارع "لاكي". فقد جاءتنا تقارير مرعبة أنه توجد أمراضا معدية وأهمها التيفويد بالإضافة إلى الجوع المدقع. كان معدل الوفيات ضخما. كان لديّ خطة واحدة وفكر واحد. ففي هذا

السجن، في مدينتي، كنت أريد تحقيق حلمي بالقدرة على ترتيب الاطعام المشترك للبولنديين واليهود والأوكرانيين. لم يوافق الأوكرانيون في البداية، لذا بدأنا العمل من أجل التعاون البولندي – اليهودي فقط، رغم أن الأوكرانيين شاركونا بعد ذلك. عملنا معا لشهور طويلة وسأظل أتذكر دائما امتناني العميق لكل هؤلاء الذين شاركوا وفي مقدمتهم الأب ميشيل ريكاس وذاكرته المبجّلة.

وفي غضون هذا كان هناك الكثير من العمل ليتم القيام به في لاواو. كان الهدف من زيارة رئيس ومدير مجلسنا الرئيسي هو توسيع نطاق المجلس الرئيسي للإغاثة ليشمل كل المنطقة الشرقية (مالوبولسكا) وخلق قاعدة قوية في لاواو. أدى استمرار الحزن واللامبالاة لدى الجماهير (بالإضافة إلى، وأأسف لقول ذلك، المؤامرات الأوكرانية) إلى إعاقة العمل إلى حد كبير في كل خطوة. لقد سمح الألمان للمجلس الرئيسي للإغاثة بالعمل، ثم فعلوا كل ما بوسعهم لإعاقته وذلك بمساعدة الأوكرانيين. وتماما كما كان الحال "على الجانب الآخر"، قام الناس هنا في الشرق بطلب التدخل في مختلف الأمور. كانت مسألة الأساتذة المفقودين ثانية تعتلي قائمة الطلبات. استقبل الرئيس رونيكير زوجات وأمهات المفقودين لجمع معلومات دقيقة والتي، بالطبع، كانت بلا جدوى / لم تسفر عن شيء. ولقد كان من بينهم السيدة "لونجشامب" زوجة رئيس الجامعة والتي لم أعرفها من لأول وهلة. لقد كنت أتذكرها كامرأة مرحة ومبتهجة وذات شعر أشقر، ولكن المرأة التي رأيتها كانت مهزومة وعجوزة ذات شعر رمادي.

"من المحتمل ألا يوجد فرد على وجه الأرض مضطرا لتحمل مسيرة كهذه. كنت أقف عند الباب عندما أخذوهم: أولا زوجي ثم ابننا الأكبر، ثم ولدنا الثاني ثم الثالث. لقد مشوا جميعا وهم ينظرون إليّ." كانت رباطة الجأش التي تتحدث بها كان من النادر احتمالها. كان هناك سيدات أخريات أيضا واللاتي ذهبن كلهن إلى الجستابو وتلقين جميعا نفس الإجابة: لقد قام قسم خاص في الجستابو بالقيام بتلك الاعتقالات والذي في طريقه الآن مع الجيش إلى أماكن أبعد في الشرق، ولم يتركوا أية وثائق خلفهم. فهذا يعني أنه لم يعد هناك في الوقت الراهن من يمكنه اعطاء معلومات. لقد أخبرت الأستاذة نويسكا، والتي تم اعتقال زوجها وابنها أيضا والتي هي نفسها من أصول ألمانية، أنه حيث أنها تزوجت بولنديا فيجب أن تكون قد انفصلت عنه بالفعل

وألا يكون لها أي شكوى. لم تحضر أي من الأستاذة اوستروسكا أوالأستاذة جريكوا فلقد اختفيا مع زوجيهما. وتم اعتقال كل من كان يقطن منزليهما الفاخرين، بما في ذلك المستأجرين من الباطن وحتى الخادمات واللاتي أفرج عنهن في الصباح التالي. ولكن تم نهب الشقتين على الفور.

لقد كانت الأخبار الآتية من المقاطعات أيضا سيئة، وبالأخص فيما يتعلق بمن يعملون بمهنة التدريس. ففي "ستانيسلاواو" نفسها، ومباشرة بعد انسحاب المجريين الذين احتلوا تلك المنطقة لعدة شهور وكان لهم شعبية كبيرة وسط البولنديين، تم القبض على مائتي وخمسين شخصا – فعليا كل النخبة المثقفة في المدينة، أو على أي حال كل أعضاء هيئة التدريس الأكثر قيمة بالإضافة إلى المهن الحرة. ومنذ ذلك الوقت لم يتم رؤية أو سماع شيء عن هؤلاء الذين ألقي القبض عليهم. وفي ستانيسلاواو، أخبر الوفد رئيسه رونيكير أنه لا يوجد ما يمكن فعله على الإطلاق حيث أن المدينة يحكمها رئيس الجستابو المحلي، كروجر. ولقد كانت تلك المرة الأولى التي يذكر فيها هذا الإسم في حضوري.

لقد كان الناس في "لاواو" تأقلموا على وجود الألمان وفي آخر زيارة لي إلى "لاواو" لاحظت هذا التغير. لا يوجد أحد يتحدث عن الأوربيين ولا شخصية المستعمرين ولا جنسيتهم. لقد خرج كثير من سكان "لاواو" وجاء كثير من الألمان إلى "لاواو" وكان من بينهم جندي جاء بعائلته في شقة وجلب معه أثاثه المنزلي وعندما وجد مكان أفضل انتقل إليه وكان الجنود الذين يعملون معه يأخذون أثاث الجندي وأثاث صاحب الشقة الأول، فقال صاحب الشقة "إن هذا الأثاث لي" .

فتركوه وبعد فترة كانت هناك بعض الأقوال تردد أن قوة الاحتلال الألماني لا تختلف عن غيره ولم يكن أحد يعلم من هو الأسوأ وقد كانت القصائد الأدبية تعبر عن هذا بشكل جيد ومن تلك الإشعار ما يقول فيه الشاعر "من الشرق جاءت الحكمة كلها حزينة ومبادئها التفاهة والسم والقتل"

من الشرق أكاذيب العلم ومهارات خداعة والفخر للفخر.

وفي هذا الوقت كان لشغلي صدي كبير وقد كانت التقرير تؤكد دور الشعب والمدينة في "لاواو" ولقد تناقلت أنباء عن أن بعض المواطنين الذين تم نقلهم إلى الشرق من قبل الروسيين قبل الاحتلال الألماني يموتون جوعاً لذا طلبت الأذن للذهاب إليهم ولقد أعطاني معارفي قائمة طويلة بأسماء المفقودين لقد كان جنوناً أن أفكر في أن الألمان سيسمحوا لمرأة بولندية أن تذهب

إلي مدية "ولن بروفس" لكن الواقع أن هذا ما حدث لذا أعدت حقائبي للسفر وسافرت بالقطار فوصلت صباحاً ولم أكن أعرف هذا المكان من قبل وقد كان يملئني الفضول. لقد ذهبت إلي بيت طبيب قد أعطاني اسمه وعنوانه أحد المعارف. لقد استقبلتني أسرته بالترحاب الشديد وكأنني أحد أقاربهم إن الطبيب يعيش مع أمه وامرأة أخرى تقوم بأعمال المنزل إن أمه عجوز في الثمانين من عمرها ولم تنطق بكلمة واحدة لقد ظننت أنها لا تسمع ولا تتكلم . لقد سألوني "من أين أتيت؟ ولماذا؟" وكنت لا أستطيع أن أكمل إجاباتي حيث كانت الأسئلة تقاطعني من دقيقة لأخرى . لقد سألني الطبيب "هل تعلمين معني أن يزورنا شخص من قلب بولندا ونحن هنا علي الحدود؟ لقد تم فصلنا علي قلب بولندا فقد رحلوا عدد كبير من السكان إننا لا نعلم عن بولندا شئ منذ عام ١٩٣٩. لقد بدء يأخذ القريب والبعيد من نعرفه ومن لا تعرفه ولم ينجي منهم إلا القليل ومن بينهم احد أقاربنا. ولابد أن نعلمه أنك هنا" ذهبت الخادمة ثم جاءت وقالت إنها أعلمته بحضوري.

لقد جاء ومعه عدد من الذين تم ترحيلهم ومنهم مدرسة كانت لي في المدرسة الثانوي وقس كنت أعرفه منذ فترة لقد أخبرتهم عن سبب زيارتي وأجابوني أنهم كانوا يعلموا بمكان معسكراً إلا أنه تم نقله منذ فترة ولا أحد يعلم إلي أين لقد كانوا ساء معاملتهم في هذه السجون ولكن ما كانوا يعذبون أما اليهود فكانوا يضطهدون لدرجة القتل الجماعي ويتم دفنهم في مقابر جماعية في أراضي خاصة بأشخاص مما كان يصيب هؤلاء الأشخاص بالفزع. وكنا نسمع أن هذا كان يحدث في مدينة "كيفا" ومدن أخرى كثيرة.

وفي الصباح ذهبت إلي مدير الإدارة العسكرية هناك حيث تم نقلي إلي الجنرال الروسي الذي أخبرني أن المعسكر تحت سيطرة الألمان في الوقت الحالي وقد تم تسليم السجناء إلي الشرطة السرية . لذا سألته "ما معني أن يتم تسليم من قبض عليه من قبل جنود روسيين إلي السلطات الألمانية؟" ولكني لم أستمع أي رد لهذا السؤال.

ولكنه قال أنه سيسعدني فأخرج خريطة عليها أماكن المعسكرات المدينة وأشار إلي أماكنها ثم طلب من جندي أن ينقل لي أسماء وأماكن المعسكرات ثم سألني "هل أنت مستعدة للذهاب إلي "كيفا" في اليوم التالـي؟" فقلت بالطبع وبكل حماس ثم طلب منه أن أرجع إليه بعد ساعتين وعندما عدت قال أن

عليا الانتظار حيث هناك جندي ينهي لي إجراءات الدخول للمعسكرات حيث أن عليا مقابلة المسئول العام هناك السيد "توماس" وهو أعلى رتبة في المعسكرات قم قال لي أنه سيوفر لي سيارة للسفر وطلب مني أن أقدم بعض الأوراق لمناقشة إيقاف تسليم المسجونين للألمان وقال أن الجيش هناك سيعد لي مكان إقامة هناك .

وفي المساء قضيت الليلة عند الطبيب وذهبت إلي السيد "توماس" في الصباح لقد كان معه بعض من الشرطة السرية ثم سألني "كيف جئت إلي هنا؟ وما السبب؟" فأخبرته ثم قال لي أنه لا يستطيع الرد الآن فعليه أن يسأل رئيسه ورئيس ليتأكد لذا عدت إلي بيت الطبيب حيث جهزت نفسي للعودة إلي "لاواو" لذا لقد ودعني الطبيب وقال إنه لن ينسي زيارتي هذه لقد كانت الأم العجوز تنظر إلينا في صمت وفجأة قالت لها أبنتها "يا أمي فيما تفكرين؟" فقالت "لا شئ إن الأحداث تكرر" لقد كانت أول مرة أراها تتكلم فيها ثم قالت "لا يوجد ما هو جديد لقد كنت عاصرت تلك المشكلات من قبل في انتفاضة سنة ١٨٦٣ . لقد كان عمري حينها تسع سنين.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى محطة القطار وشاهدت الضابط الذين رأيته الليلة الماضية إنه دائماً ينتظر القطار. لقد سافرنا سوياً وكلما وقف القطار كان يخرج من القطار ثم يعود لقد كنت أتعمد النظر النافذة في معظم الوقت وعندما عبرنا الحدود سألني على المبادئ العامة التي بالطبع أحفظها جيداً. ثم أعطاني خطاب للقادرة في "لاواو" وللسيد "ريتكوريتش " لقد كان خائفاً جداً وشكرني على
النصيحة التي أديتها له.

إن الأمور في "كراكوا" تسوء فالشرطة السرية تهدد السيد "رونكور" بالقبض علي لأنه أعطاني السماح بالذهاب إلى "رواني".

لقد عدت إلي "كراكوا" في بداية شهر ديسمبر وهناك وبعيداً عن قيود الشرطة كان علي التعامل مع مساجين سجن "ميشو" للمجرمين لكي أثبت للألمان أننا نعدم الطعام للمساجين بكل فئاتهم وكان البعض ينتقضني أني أطعم المجرمين بينما الأطفال ينامون جوعاً ولم يكن أحد يعلم أن الحل الوحيد لمساعدة السجناء السياسيين هي مادتهم بالمجرمين .

إن زيارتي المتكررة لمقر الشرطة السرية جعلت الحكومة والسلطات تحذر مني عدة مرات وحينها علمت ولأول مرة كيف أنه من السهل أن تفقد سمعتك الحسنة .

وقبل الاحتفال بيوم رأس السنة كان عليا زيارة سجن "بينزوا" وكنت قد جهزت لهم الملابس التي طلبها السجينات هناك .

لقد أعدت أن أزور قبر جدي في يوم رأس السنة لذا أستغليت سيارة أجرة واتجهت إلي "واد سلو" وفي الطريق تعطلت السيارة عدة مرات وفي آخر مرة قال السائق إن الإصلاح سيظل لمدة ساعة ونصف وطلب من الانتظار في أحد المطاعم وأخيراً هبت إلي قبر جدي وكان بالقرب من كنيسة دخلت وصليت مع الحضور ثم انصرف الجميع ليتركوني مع قبر جدي ولأول مرة أقرء إنجازات جدي حيث أنه كان قائد عظيم توفي علي أثر صدمة قلبية عندما علم بانهزام بولندا لقد شعرت بالحزن كحفيدة تعاني من ألم وعذاب فقدان الألمان في وطني وبعد ذلك رجعت إلي السيارة التي فقد السائق السيطرة عليها ولكننا نجونا ثم ذهبت إلي زيارة أصدقائي وأكلت معهم ثم رجعت إلي "كراكوا" إن زيارتي إلي مدينة "واد سلوا" تعد كحلم جميل في ذاكرتي لم أكن أصدق أني قضيت ليلة رأس السنة مع أصدقائي علي الرغم من أن الكثير منهم لا يُعرف عنه شئ.

وفي هذه المرة نجحت في الوصول إلي مدينة "ستينسلواو" لقد كان يوم صعب لقد انتظرت في المحطة ست أو سبع ساعات ثم وصلت إلي المدينة الساعة الحادية عشر مساءاً ثم تجولت في المدينة وذهبت إلي الفندق وهناك وجدت أناس يتحدثون في صوت خافت وعندما سألتهم لماذا قالوا إن الشرطة السرية في كل مكان وأنه هناك عدد كبير من السكان مفقودية وقصت لي أحداهن حكاية زوجها . لقد كان مدير مشفي أنقذ حياة كثيراً من الجنود الألمان أثناء الاحتلال الروسي لبولندا وقد أرسل هؤلاء الجنود له خطابات شكر ومن بينهم وزيراً الطيران إلا أنه الآن تم القبض عليه من قبل الألمان فسألتها عن تلك الخطابات لربما تساعد في طلب الإفراج عنه. وبعد القبض عليه تم القبض علي عدد كبير عن الأشخاص إما جماعات أو فرادي فسألتهم هل السجون تكفي لكل هؤلاء أم أنهم يتم نقلهم إلي ألمانيا فأجابوني أن مبني السجن كبير وملحق به مبنية إذا رأيني أحدهم تابع لوزارة العدل والآخر للشرطة السرية بقيادة السيد "انتروني روتار" الذي كنت أنوي مقالته وأتمني ألا يكون ممن يكرهون البولنديين.

لقد استقبلني رجل في الأربعين من عمره. لقد كان يتحدث معي بأسلوب يدل علي أنه لا يحترمني ثم أخذني إلي مكتبة . لقد كان سكران شرحت كل شئ وعلي الرغم من حالته إلا أنه

كان يفهمني جيداً وعندما أنهيت حديثي قال أنه علي علم بنشاطي ويرحب به إلا أن السجن الذي يرأسه لا يوجد فيه أي شخص بولندي . ثم قطع حديثه وتأسف علي الحالة التي رأيته عليها وقال أنه للأسف مدمن خمر وأنه لا يكره البولنديين ويريد مساعدتي إلا أن البولنديين السجناء في السجن الآخر ثم سألته "هل كل السجناء هناك؟" فقال "ماذا تعنين بكل؟" قلت "كل السجناء الذين تم القبض عليهم منذ الاحتلال الألماني وخاصة ٢٥٠ شخص من أساتذة الجامعة والمهندسين ورجال العلم".

فقال "إن السجن لا يوجد به الكثيرين" فقلت "إذن أين الباقي؟" فسكت ثم صرخ وقال "لن أخاف منهم ثابتة" وأخذ يكررها ثم سكت وبعدها قلت له أن عليا الذهاب لرئيس السجن الآخر لأطلب منه أن أوفر الطعام للسجناء فقال "سأخذك إليه وإلا لن تريه أبداً" "هيا بنا".

لقد أخذني إلي القائد وبكل سهولة دخلنا إلي مكتبة إنه رجل طويل ذو عينين زرقاء وشارب وفم كبيرين أشار إلينا بالجلوس وعندما سمع طلب قال إنه من المستحيل إرسال طعام إلي السجناء البولنديين أو اليهود أو الأوكرانيين بينما يمكن إرسال فرش أسنان أو ما شابه. لقد كان أول سجن يرفض مساعدتنا.

لقد غادرت وعدت لوحدتي بعد أن حييت القائد الذي ساعدني لقد تجولت في المدينة شعرت بالبرد فعدت لمقر اللجنة.

وفي اليوم التالي عدت إلى "كلوميجا " حيث تجرى الأمور في السجن بسهولة وفي المساء ذهبت إلي "ستيسلواو" ومنها إلي "ستراج" لقد وصلت إلي مقر اللجنة حيث قدموا لي الطعام والماء أعطوني حجرة صغيرة لكنني لم أستطع النوم حيث أنني علي بعد خمسين كيلو متر من المدينة التي ولدت فيها وعشت طفولتي وأفضل أيام حياتي.

لقد تفقد أمر السجون في الصباح وكان الأمر سهل إلا أنهم أخبروني أن سجون مدينة "كوماجا" و"ستنسلواو " يعانون من سوء الغذاء ويوجد شكاوى من التواصل معهم وأخبروني أنه يوجد ضابط سيذهب إلى "روزدول" غداً ليناقش أمور أدرية لحل المشكلة فطلبت منهم أن أذهب معه ولكن في اليم التالي وبالفعل وافقوا.

لقد غادرنا مدينة "ستراج" في نهار اليوم التالي وفي الطريق إلى "لاواو" المدينة التي قضيت فيها وقت طويل من حياتي كنت أنظر إلي جانبي الطريق وأشاهد المناظر التي لم تتغير فالمباني والكنائس والطرق كلها كما هي. لقد دخلت إحدى الكنائس

وسألت على الأب "بولسوا" ولكنه لم يكن موجود فقد استقبلنا قديس آخر ورحب بنا. وعندما سمع اسم عائلتي ابتسم فقلت له "أتعرف أحد من عائلتي" قال "لا" ولكني سمعت عنكم من الأب "بولسوا" كثيراً فقلت "إذاً أين هو" فقال "لقد غادر المدينة فلم يتحمل إساءة المحتلين له ولرجال الدين. "وبعد ذلك خرجت لأنظر إلي بيت عائلتي القديم وعندها قابلت امرأة يهودية قالت لي "هل قابلتك من قبل؟" فقلت "أنا" قالت "نعم عائلة لانكر ونسكا" قلت "نعم أنا" قالت "إذاً عدتي" قلت لها بالطبع بعد أن استقرت الأوضاع كان عليا زيارة بلدي وبيت عائلتي فسارت ويبدو عليها علامات التفاؤل .

لقد كنت أقف علي بداية المدخل الرئيسي للبيت ورأيت المدخل مطفي البثليج وعلي الأرض أثر أقدام تدل علي أن أحد يعيش في البيت. وأثناء هذا سمعت أقدام تتجه نحو البيت وعندما نظرت في اتجاها رأيت العجوز "جان" لقد صرخ من الفرح عندما رآني لقد بدأ عليه السن بشكل كبير. ثم دخلنا وصافحت زوجته وأبنائه ورأيت حارس الحديقة الذي لم يراني منذ أن كنت طفلة ودعوني لأتناول وجبة معهم وأثناء إعداد الطعام أخذنا جولة في البيت لقد أخذت قوات الاحتلال من البيت كل ما هو قيم. لقد كنت أنظر إلي حجر المنزل الفارغة وأقرانها بالسجون المليئة بالسجناء إن هذه الزيارة جعلتني أشعر باختلاف في تفكير تجاه كل شئ حولي وفي الحديقة رأيت التحف التي جلبها أبي من إيطاليا مهشمة ومحطمة ونظرت إلي الأشجار حيث كنت أقفز في صغري علي الغصون وألعب حول الأشجار. لقد نظرت إلي هؤلاء الأشخاص الذين يحيون على أثر استمرار الماضي الذي ذهب ثم أخذت ابكي دون أن أشعر.

وبعد ذلك ذهبت إلي الكنيسة حيث قابلت رجال الدين وبعض أصدقائي وتناقشنا في عدة أمور منها معاناة البولنديين ونقص عددهم والعوائق التي تقابلها برامج المساعدات فتلك العوائق تزيد عشرة أضعاف هذا عن المنطقة الغربية . إن مشكلة نقص الغذاء هي أكبر المشكلات في المدينة وهذا هو أهم ما ذكرته في تقريري عندما عدت إلي "كراكوا".

وفي نهاية شهر فبراير ١٩٤٢ قمت بجولة أخرى في السجون ثم سافرت إلي المنطقة الشرقية بصحبة "أدموند سافراید" مدير مكتب مدينة "كراكوا" وكانت محطتنا الأولى هي سجن "ستانسلواو" حيث قمنا بتوزيع الملابس علي السجناء وهي الشئ الوحيد الذي سمح به السيد "كراجار" المسئول عن السجن

هذا المدير المعين من قبل لجنة المساعدات في الحكومة ومع ذلك فهو يعتبر تقديم المساعدات للمساجين أمر صعب حيث أنه تم القبض على الكثير من الذين حاولوا تقديم المساعدة للسجناء. وفي هذا الوقت طلب مني السيد "سيفرد" أن أذهب إلى سجن "ستين سلواو" لمدة أسبوعين لأمثل لجنة المساعدات هناك. إنها مهمة صعبة. لقد صرخ لي المدير أن وجودي في القرب أصبح غير ضروري لقد كنت قلقة بشأن السجناء ولم يكن
بوسعي أن أخبرهم أنني أحد أعضاء المقاومة الشعبية.

لذا ذهبت أنا ومديري إلى زيارة السيد "كرجار" ثم زرنا عدة مدن كمدينة "ستراجا" و"دروهيدز" حيث تعاملنا مع مشاكل السجناء دون مواجهة أي صعوبات ثم عدنا إلى "كراكوا".

obeikandl.com

الفصـل الرابــع
المكان: في "ستانسلواو"
الوقت: من مارس ١٩٤٢ - إلى يوليو ١٩٤٢

بدئت العمل في "ستانسلاواو" في مارس ١٩٤٢. كان عدد الأشخاص المحتاجين هناك هائل بشكل مفزع، الوظائف محدودة للغاية، المؤن والواردات القادمة من الغرب تأتي بصعوبة بالغة، والأكثر من ذلك أن خداع الأوكرانيين لا حدود له. الخوف من "كروجر" كان موجوداً بشكل مستمر. أما سكان "ستانسلاواو" لم ينسوا أبداً تلك الاعتقالات الجماعية التي أخذت معها أشخاص وأحباء يكنون لهم كل الحب والاحترام بل أنهم كانوا من الشخصيات التي لها شأن عظيم بين الناس، ولذلك لم يفقد سكان "ستانسلاواو" الأمل يوماً في أنهم لايزالون على قيد الحياة. وجدت نفسي مجبرة على الحديث في هذا الشأن بشكل مستمر مع كل من أعرف.. اصدقائي وأقربائي ومعارفي.. الجميع، ولكن دون أن أخون السر الذي أفشاه إليّ المحامي حين كان مخموراً. كان يسيطر على الأجواء حالة من الخوف من جلاد لا يرحم، متمثلاً في اعتقالات مستمرة. كان دائماً ما يسمع المرء أن شخصاً ما تم القبض عليه وآخر اختفى وأخر تم أخذه ولا يعرف أحد طريقه، كان ذلك الوضع منتشر في كل أنحاء الدولة، وكان الوضع ذاته موجود في "ستانسلاواو" مع اختلاف بسيط فقد كان لها وضع مميز.. حيث لم يتلق أحد من الأهالي قط إي اشارة ممن تم القبض عليهم تدل على أنهم أحياء.

وفي صباح أحد الأيام جاء أحد الضباط الأوكرانيين من سرب الحماية النازي إلى لجنتنا وطلب مقابلتي على إنفراد. وبمجرد أن دخلت وتم إغلاق الباب أظهر هويته وأخبرني أنه جاء للقبض

علي السيدة " دانوتا زياكيفك نوفاك " التي كانت تعمل معنا. بعد ذلك كان عليّ أن اصطحبه إلى غرفة مجاورة حيث نقوم بضبط وإحضار "دانوتا" -الفتاة ذات الواحد وعشرين عاماً- تلك الجميلة زوجة أحد ضباط الدفاع الجوي في بريطانيا. عندما علمت أنه سيتم القبض عليها وقفت وأصبح لونها شاحب، وأخذت تغطي وجهها الصغير بيديها، وقالت كلمة واحدة.. فقط كلمة واحدة: "أمـــــي!" ثم وقفت في وسط الغرفة وتفحصتنا جميعاً بنظرة عابرة، ثم وجهت نظرها إليّ وقالت: "أنا ائتمنك على أمي"، ثم أحاطتني بذراعيها وارتمت على كتفي، وعدتها أن افعل كل ما يمكن وان ابذل قصارى جهدي من أجل أمها. تم القبض على "دانوتا" أخذها الضابط الأوكراني وغادرا المكان، وبعد ذلك دخل زملائها في العمل في حالة من اليأس والإحباط. بعد مجهود كبير حصلت أخيراً على عنوان والدتها وذهبت إليها، وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة إليّ، حيث وجدت "دانوتا" وضابط سرب الحماية النازي هناك معاً، وعلى ما يبدو – كما فهمت من الموقف- أن "دانوتا" توسلت إليه أن يسمح لها بالذهاب إلى أمها لتودعها. ربما انقاد وراء جمالها الاستثنائي. عندما وصلت إلى منزل أمها كانت "دانوتا" والضابط الأوكراني على وشك الرحيل. "دانوتا" كانت ترتدي ملابسها الثقيلة، مازلت أذكر جيداً ماذا كانت ترتدي، كانت ترتدي سترة خضراء ثقيلة ذات رسوم سوداء وغطاء للرأس. كانت "دانوتا" وأمها في حالة من الهدوء التام، الشئ الذي زاد من هدوء "دانوتا" هو وصولي وتأكدها أنني سأفي بوعدي لها حين حاولت طمأنة أمها وأخبرتها أنها ذاهبة إلى استجواب روتيني معتاد وأنها سوف تعود إلى المنزل مباشرة. نظرت "دانوتا" إلى أمها وابتسمت ثم غادرت المكان. ما أن أصبحت أنا والسيدة " زياكيفك" وحدنا حتى انهارت تماماً ولكن ليس لوقت طويل فسرعان ما استعادت رباطة جأشها وتوجهت إلى ممتلكات ابنتها وفرزتها واستخرجت دفتر مذكراتها وأحرقته.

لـقد كان أثر القـبض على "دانـوتا" سئ للـغاية فـقد أغرق المجموعة كلها في اكتئاب شديد وبالرغم من ذلك كانت جهود منظمة الإغاثة المسئولة عن إنقاذنا تسير ببطء. في عيد الفصح ذهبت إلى "كراكوف" و"وارسو". في "كراكوف" كان السيد "ديبوسكي" يريد أن يعطيني مسودة الكتاب الذي احتفظت به عنده والذي تم إنقاذه عدة مرات بمعجزات عديدة ولكنني لم أرغب في أخذه وطلبت منه أن يستمر في الاحتفاظ به من أجلي،

وقلت له: "من يعلم ماذا يمكن أن يصيبني، وأنا أرغب أن يتم نشر هذا الكتاب بعد انتهاء الحرب."

أما في "وارسو"، فقد تقدمت ببلاغ إلى كل من الجنرال "كوموروفسكي" ونائب قائد الجيش الوطني اخبرهم فيه عن الوضع في "ستانسلاواو" وطلبت منهم أن لا يسمحوا لرجال الدعاية الموجودين في لندن أن يذيعوا أو ينشروا أي شئ عن الوضع هناك في الوقت الحالي، وإلا سوف تضيع كل جهودي المستقبلية سدى. خضت مع كل منهما محادثة مطولة. اخبرني الجنرال أن أبقى لبضعة أيام في المرة القادمة التي ازور فيها "وارسو" حتى أتمكن من مقابلة القائد الأعلى؛ جنرال "جروت"، والذي يرغب في مقابلتي لكي يستمع إلى تقرير مفصل عن نظام الإطعام في السجن. سررت بتلك المقابلة كثيراً لأنني طالما كنت أرغب في مقابلة الرجل الذي يعني الكثير لنا جميعاً. لابد وأنه قائد بالفطرة لأن الجميع كان يشعر بوجوده دائماً في كل مكان وفي كل الظروف. كان القائد العام قد اطلع على عملي في وقت سابق حين منحني "صليب الشجاعة"، والآن مقابلته بشكل شخصي كانت شرف يضاف إليّ بعد شرف تكريمه لي.

إن الجنرال "كومروسكي" لم يكن سعيدا على الإطلاقً بعملي الجديد فعندما كنت أودعه خاطبني بشئ من القسوة غير معتاد قائلاً: "أنا أمنعك تماما من إجراء أي اتصال بالجيش في الشرق في الوقت الحالي، فإن الوضع ملتهب هناك ويحمل الكثير من التوتر، وهناك استياء عام.. فإن الناس سوف يثقون بك وسوف يحاولون أن يوجهوا لك العديد من الطلبات لإجراء اتصالات بالمستويات العليا لأن الكثير من مصالح منظماتهم على المحك هنا ويحتاجون إلى المساعدة. ولكن يجب عليك ألا تخاطري. فقط انتهي من مهمتك الحالية وعودي بعدها مباشرة إلى نشاطك المعتاد في رعاية السجن."

كان ذلك الثلاثاء ٨ إبريل، وبعد يومين ذهبت إلى"ستانسلاواو" مرة أخرى وفي هذه المرة كانت معي "ماريلا" التي جاءت لتساعدني وبفضل وجودها حدث تقدم سريع وسهل في كل شئ ليس فقط في "ستانسلاواو" بل أيضاً في "كالوس" و"كولومبا" فقد تم إعداد اللجان وبدئوا في إطعام الأطفال مما جعلني أنا و"ماريلا" نعتمد على أننا سوف نعود إلى عملنا المعتاد في منتصف شهر مايو. تأخر الربيع وكان الجو شديد البرودة وكئيب. وعلاوة على ذلك فقد كان تنفيذ أوامر قائدي أمر صعب كلفني الكثير من الجهد حيث لم يكن مسموحا لي

إجراء أي اتصال بالجيش ورغم ذلك -كما توقع القائد بالفعل- جرت العديد من المحاولات لتوريطي في اتصالات غير قانونية بالسلطات لذا كان عليّ أن أتظاهر بانشغالي فقط بالأنشطة القانونية، كان هذا محبطاً إلى حد كبير لأنني كنت أعلم أنه بإمكاني تقديم المساعدة ولكني ممنوعة من ذلك. الجو السائد في "ستانسلاواو" كان كالمعتاد مرهق للغاية إلا أن الشئ الوحيد الذي يبعث السرور بعيدا عن العمل كان هو وجود "ماريلا"، والتي أقمت علاقة صداقة قوية تجمعني بها. حاولت مرة أو مرتين أن أتصل بالسيد "كروجر" لأخبره بما أنجزته كما طلب مني حين وافق على وجودي في "ستانسلاواو" ولكن في كل الأحوال لم أستطيع مقابلته لذلك فقد تراجعت عن الأمر واعتبرته عمل لا يستحق الجهد وواصلت عملي بغض النظر عن كل شئ.

وأخيراً استدعاني السيد "كيجار" إلى مكتبه يوم السبت ٢٥ إبريل في الساعة التاسعة صباحاً، وكالمعتاد طُلب مني الانتظار في الردهة على كرسي فخم تم تنجيده بالساتان الذي كان لونه مثل التوت. بعد فترة دعاني للدخول، هذه المرة لم يكن "كروجر" بمفرده، إلى جانب مكتبه كانت هناك منضدة صغيرة تجلس عندها سكرتيرة، لم يقف لاستقبالي ودون أن ينظر إليّ أشار لي بالجلوس على كرسي في مواجهة مكتبه قائلاً: "يجب أن أقوم باستجواب أفراد الأمن أيضاً" وبعد ما جلست سألته عن سبب الاستجواب، فقال بصوت مرتفع: "أنت متورطة في أعمال غير قانونية هنا في ستانسلاواو"

فأظهرت له أذن التفويض الخاص بي ولفتت انتباهه إلى حقيقة إنه يحق لي التصرف على نطاق أوسع بكثير مما أفعل في الوقت الحالي وأكدت له أن السلطات الألمانية في "لاواو" المسئولة عن إمدادات الطعام قد قررت بالفعل حين ذهبت لمقابلتهم بخصوص حصة الطعام الخاصة بنا أن النشاط الذي أقوم به يسير ببطء شديد ولذلك يجب أن أكون على اتصال مستمر بهم وعندها غير من نبرة حديثه ثم قال "في حقيقة الأمر فإن النظام الذي تعملين به ليس متورطا في نشاط غير قانوني وإنما اقصد أنك تستغلين النشاط الخيري في أغراض أخرى."

رددت عليه: "أنا لا اعلم عما تتحدث."

فقال لي: "لا يهمني ما هو موقفك... ولكنني لأ اريدك في عالم بلادي."، كان من الواضح أنه سعيد جداً بتلك الجملة الأخيرة، ولذلك فقد كان يكررها عدة مرات أثناء محادثتنا، وفي كل مرة كان يدق بقبضة يده على المكتب.

وقال "عليّ أن أسالك بضعة أسئلة، هل أنت على علم بالانفصال الذي حدث في الحكومة البولندية؟" ابتسمت وأخبرته أنني أرى الآن أنه قد قرر القبض عليّ بالفعل، لأنه يستحيل أن لا يعلم بإجابتي على ذلك السؤال. سألني وصوته يملؤه نبرة غضب تتزايد: "كيف تبقين هادئة هكذا؟!!"، "إنك الآن في موقف شديد الخطورة، سوف أوجه لك السؤال مرة ثانية بشكل آخر، وهذه المرة كوني حذرة لما تقولين. هل أنت عدوة لألمانيا العظمى؟"

قلت: "أنت تعلم أني بولندية وتعلم أن بولندا في حالة حرب ضد ألمانيا من أجل الاستقلال." فقال: "يجب أن تجيبي على سؤالي بشكل مباشر، هل أنت معادية للإمبراطورية الألمانية؟ نعم أم لا؟"

بكل وضوح رددت: "بالطبع نعم."

"ها نحن أخيـــــراً" وجه حديثه إلى السكرتيرة بصوت مرتفع وعينيه يملؤها النصر: "دوني تلك الإجابة"، أومأت الفتاة ثم بدأت تكتب إجاباتي. ألتفت إليّ مرة ثانية وقال: "منذ متى؟"

أجبت: "منذ المرة الأولى التي رأيت فيها تلك المعاناة التي لا توصف التي يمر بها أخواني البولنديين."

ما أن قلت ذلك حتى أخذ يتحدث عن كراهيته الشديدة للبولنديين وعن اضطهادهم للألمان. أعتقد أنه قد شرع في خطبته اللاذعة عن الكراهية تلك بغرض أن يثير الرعب بداخلي، ولكنه كلما تحدث أكثر، كلما ترسخ بداخلي انطباع انه يفعل كل ذلك ليحمس نفسه فقط، فقد كان يصيح ويضرب الأرض بقدميه تارة ثم يدق المنضدة بقبضة يده تارة أخرى، وفي وسط كل ذلك بدا لي كما لو أن فمه البارز قد تحول إلى ما يشبه الخرطوم، مما أعطاه جعله أشبه بحيوان ضاري. استمعت إلى كل هذا في هدوء حيث أنني لا يسعني سوي ذلك. ومن فترة لأخرى كان يقطع شلال خطابه شديد الكراهية للبولنديين ليوبخني على سلوكي الهادئ ويتوعد أن يفسد قدرتي على الاتزان النفسي. وبالطبع فإن كل ذلك كان تأثيره عليّ أن اعزز من هدوئي أكثر وأخبرته أنني عاجزة عن فهم كيف يفكر الألمان وهم الذين يحترمون انتمائهم الألماني للغاية ولا يستطيعون احترام عاطفة الانتماء عند الآخرين من جنسيات أخرى!!. نظر إليّ وقال بنبرة مختلفة: "ذلك أمر مختلف تماماً"، فقلت: "بالطبع الأمر مختلف" ولم يقل شئ. في اللحظة التالية كان يوجه إليّ اللوم

والتقريع على سلوكي الشائن -من وجهة نظره- عندما علم أن أمي ألمانية.

بعد مرور سنوات عديدة، لا استطيع -اليوم- أن استعيد كل تفاصيل ذاك الحوار الذي استمر لأربعة ساعات إلا الربع. أنا اذكر انه انفجر عدة مرات في نوبات شديدة من الغضب وهو يسب البولنديين ويصفهم بالعدو الحقيقي الوحيد للألمان، ليس الفرنسيين ولا الإنجليز، إنما البولنديين.. فقط البولنديين.

فجـأة، وفي وسط هذا المشهد، اتضح له أنه لم يتمكن من أن يثبت شئ واقعي ضدي من شأنه أن يدينني، وقال أنه من المستحيل أن يصدق أن شخص مثلي لا ينتمي إلى منظمة تخريبية فأجبته بأن ذلك الاستجواب الذي يجريه قادر على أن يقنعه بما يقول، ثم سألني عن رأيي في نشاط المقاومة السري للبولنديين.. علمت أنه لم يكن ليصدقني إن أعطيته إجابة سلبية لسؤال نمطي من هذا النوع، فقلت له أنني متحمسة لنشاطهم، قفز واقفاً على قدميه وانحنى على مكتبه مقترباً مني ثم قال لي: "أين كنت تعملين؟ ما هي مهمتك في المقاومة؟"

قلـت: "أنـني لم أعـمل مـعهم قـط، ولم تكـن لي مهمة لأؤديها"، فقال: "ماذا تقصدين بهذا الهراء!! لقد قلت منذ لحظات أنك معجبة بنشاطهم ثم تحاولين الآن أن تتراجعي عن كلامك؟!!"

فكان ردي: "أنا امرأة بولندية كما تعلم، ولدت وتربيت في بولندا، فهل تتخيل إنني من الممكن ألا يثير اعجابي نشاط يهف إلى تحرير بني وطني؟!!!"

فقال لي: "أسألك للمرة الثانية؛ أين كان مكان عملك؟"، فقلت له: "لم يكن هناك مكان لعملي، لم يكن يوجد عمل لي من الأساس.. يا سيدي أن الأمر يتطلب أكثر من مجرد حماس لتعمل في نشاط تآمري للمقاومة."

رد مندهشاً: "ماذا تقولين؟"

"أولاً؛ يجب أن يكون هناك شخص يقترح عليك انضمامك لمثل هذا النشاط ويعرضه عليك، وأنا لم يحدث معي هذا، فلم يعرض عليّ أحد مثل ذاك الأمر في أي مكان." علمت أنه لم يصدق كلامي وأنه لم يقتنع مما يجعل مصيري معلقاً على المحك لذلك استكملت حديثي: "وأعتقد أن هناك سببين لذلك، الأول أن الأفراد المسئولين عن مثل هذا العمل بالتأكيد يعلمون أنني اعمل لحساب مؤسسة خيرية قانونية، وغالباً فإن رأيهم مثل رأيي، بأنني بتلك الطريقة أؤدي واجبي نحو شعبي، لذلك فهم

لا يريدون مني شئ آخر، أما السبب الثاني؛ فربما يكون بسبب تصرفاتي الشفافة أكثر من اللازم، ولأنني أتحدث كثيراً وأحاديثي يتم تناقلها بشكل واسع، وتلك الأحاديث يصاحبها العديد من الإيماءات والتلميحات، فمن الطبيعي أن يفكروا أنني لا أصلح لأكون أحد (المتآمرين) في نشاط المقاومة، وتلك حقيقة! فمن المستحيل أن أتخيل نفسي وأنا ازرع المتفجرات على شريط قطار مثلاً."

كان "كروجر" يستمع إلى حديثي بدهشة تتزايد مع كل حرف، وبينما أتحدث، نظر إلى سكرتيرته وقال لها: "لم أسمع مثل هذا الحديث من قبل، دوني كل هذا."

وأخيراً واجهني بصراحة، والصراحة عمل نادراً ما فعله "كروجر" أثناء استجوابه الطويل والعاصف، ضيق عينيه ووجههما بحدة إليّ وسألني: "إما أنك صادقة، أو انك في غاية الدهاء، فأيهما أنت؟"

ابتسمت ابتسامة بها شئ من الحماقة، فتجاهلني "كروجر"، ولكنني شعرت أنه صدقني بالفعل فقد كنت أعلم أن الألمان بما يتميزون به من غطرسة لا مثيل لها، لا يمكن أن يختارون الحل الذي يظهرهم بمظهر الحمقى. "كروجر" صدقني لأنني قلت أن السبب في أن لا أحد أرادني في المقاومة هو أنني أتحدث كثيراً، ولا يوجد ألماني يمكن أن يسمح لنفسه بأن يقول أنه يتحدث كثيراً ويفشي الأسرار، لقد باغتت أسبابي عقل "كروجر" لذلك فزت في ذاك الحوار.

قام بتغيير الموضوع، عائداً إلى الحديث عن عملي في "ستانسلاواو" واتهمني أن لدي من يساعدني من قادة المقاومة وسألني عن أسماء كل من يعملون معي في اللجنة فقلت أنني لا أحفظ أسمائهم غيباً واقترحت عليه أن يرسل للسيدة "ماريلا دمغوفسكا" لكي تحضر القوائم التي تحتوي على أسماء كل المساعدين في اللجنة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. كنت بالتأكيد أرغب في رؤية "ماريلا" بشدة، فطلب مني "كروجر" محادثتها تليفونياً في حضوره ففعلت، لم يمر الكثير من الوقت حتى وصلت ماريلا، عند حضورها كان واضحاً أنها لم تكن تعلم أي شئ عن حقيقة الموقف الذي أتعرض له حتى سلمت قوائم الأسماء إلى كروجر. حاولت أن أوضح لها حقيقة الموقف بإظهار بعض تعبيرات القلق على وجهي فقد كان ذلك كل ما استطيع فعله حتى تفهم الوضع، وحينها أصبح لونها شاحباً مثل ورقة بيضاء. قرأ "كروجر" قوائم الأسماء وهو يحصي عددهم على

أصابعه، وبينما هو يفعل ذلك، لاحظت أن أصبع الإبهام عنده له نفس طول السبابة. أخيراً بعد أن انتهى من قراءة الأسماء كلها قال انه وجد بعض الأسماء لأشخاص متشبه فيهم. بعد ذلك طلب من "ماريلا" أن تخرج، التفت إليّ وسألتني هل تنتظرني بالخارج فأخبرتها بأن تعود إلى العمل وبمجرد خروجها عاد لسب البولنديين وكيل الاتهامات لهم، وفجأة قاطع نفسه ليعلن لي أنه لن يلقي القبض عليّ ولكنني يجب أن اعتبر من تلك التجربة واتخذها كإنذار وأخبرني أنني الآن يمكن أن أعود إلى "لاواو". ثم اصطحبني إلى السلم بنفسه وهو يسير على يساري ويتأخر عني بخطوة واحدة.

وعندما خرجت إلى الشارع وجدت نفسي وحدي. كانت الشمس مشرقة، فقد كنا في فصل الربيع. سارعت الخطى عائدة إلى مقر اللجنة، فقد كنت أعلم أن "ماريلا" بالتأكيد تنتظرني في قلق وعندما وصلت وجدتها قوية ويسيطر عليها الهدوء، تعانقنا ثم سألتني عما إذا كنت قد لاحظت أن إبهام كروجر له نفس طول السبابة تقريباً.

بعد ساعة بالضبط كنت في طريقي إلى "لاواو" كما هو مخطط. كنت في شدة الإرهاق وبالكاد استطعت أن أقف على المحطة في انتظار القطار، وما أن صعدت إلى القطار حتى رحت في نوم عميق...

وفي "لاواو" قمت ببعض الأمور المتعلقة بالخدمات ثم بعد ذلك كان لي لقاء مع قائدي المباشر والذي كان آتياً من "كراكوف" مما مكنني من تسليم تقرير يحتوي على تفاصيل مقابلتي مع كروجر وتوصيله إلى قائدي العسكري، قضيت يومين في "لاواو" ثم عدت لعملي . سرعان ما لاحظت أنني كنت تحت المراقبة، ولأنني لم افعل أي شئ غير قانوني فقد سرني أن اعلم أنني تحت المراقبة فبالتأكيد أن ذلك من شأنه أن يطمئن كروجر على أن عملي في "ستانسلاواو" يسير بعلم السلطات. أكملت عملي في سلام، هناك مرة واحدة فقط التي راودني فيها شعور سئ؛ كنت أسير في الشارع في مساء أحد الأيام وأتحدث مع "ماريلا" عن الأحداث الجارية، وفجأة شعرت بوجود شخص ثالث جاء من خلفي وبدأ يهمس في أذني بصوت خافت وبشكل متكرر بجملة واحدة: "كروجر يلاحقك وسوف يعتقلك.. كروجر يلاحقك وسوف يعتقلك...". شئ ما بداخلي كان يخبرني أن ما ذلك إلا أوهام وتخيلات من نسج خيالي سببها الإجهاد والتوتر العصبي، مما جعلني اغضب على نفسي فذلك ليس من شيمي،

كما أنه هناك الكثير من العمل عليّ أن أقوم به أكثر من أي وقت مضى، لذلك فليس هناك وقت لأي شئ آخر ولا حتى للإجهاد، وذلك لأن عملنا كان قد قارب على الانتهاء. ففي يوم الأجازة الذي يلي عيد الفصح وقبل نهاية مايو، كان القائد "سايفريد" يخطط لزيارة تفتيشية، وكنا نريد أن ننجز قدر كبير من العمل يعبر عن جهودنا طوال الفترة الماضية، ثم نعود إلى الغرب بعد أن أدينا مهمتنا.

إن العمل كان يسير بشكل جيد ليس فقط في "ستانلسواو" ولكن أيضاً في "كالوسز"، "كولومياجا" حيث أسست لجنة هناك. وفي صباح يوم ١٢ مايو كنت في طريقي إلى "كولوميجا" عائده من "لاواو". لقد كانت السماء مغيمة لكن الطقس كان جيداً لقد تأخر الربيع في هذا العام إلا أن الزرع في الريف كان قد أصبح خضاره جميلاً. لقد وصلنا "كولومياجا" في المساء. لقد كنت قادرة على أن أجمع قوائم الطعام التي كان عليَّ أن أجلبها وفي خلال يومين كان الطعام قد وصل حتى لطلاب المدارس. وفي المساء بعدما ذهبت الشمس كان لازال لدي الكثير من المشاكل لأحلها ولكني اتجهت إلى عميد الجامعة لأطلعه على الأخبار السعيدة. ولسعادته دعاني على العشاء والذي يعد في هذا الوقت كرم عظيماً. لقد أكلت على الرغم من أني لم أكن جائعة ثم جلست مع قس نشاهد في غروب الشمس ونذكر كم كان اليوم جميلاً. أولاً الرحلة الجميلة ثم بداية العمل الجيد في "كولومياجا" ثم هذه الأمسية الرائعة في جمال الطبيعة في الريف في آخر جزء بلادنا يمكننا الوصول إليه.

لقد ودعته ثم ذهبت لرؤية السيدة "باولسكا" وهي مدرسة بإحدى المدارس الثانوية حيث أننا كنا سنقابل اللجنة هناك. لقد أكدت على ما حققناه من إنجازات. لقد كنا في أمنا حتى سمعنا الباب يدق لقد ذهبت صاحبة البيت لتفتح الباب وعادت ومعها ثلاث رجال اثنان يرتديان ثياب مدنية وآخر يرتدي ذي عسكري. لقد سألوني عدة أسئله ونظرُ في أوراقي. ثم قالوا إن هذا الجمع غير قانوني فقلت لهم عليك أن تتحقق من الإدارة إن أردت وفي أثناء هذا الحوار كان الكل قد هرب. لذا تم القبض عليا أنا فقط. وفي الطريق مررت بأحد اللجان التابعة لنا وطلبت منهم باللغة الألمانية أن يتصلوا بالإدارة في "كراكو" في الصباح الباكر. ويخبروهم أنه تم القبض عليا وأن يطلبوا منهم إرسال أحد لكي يحل محلي حتى لا يتعطل العمل لقد حاولت أن أظهر على وجهي تعبير الأهمية القصوه لتلك الرسالة.

وبعد ذلك أخذوني في سيارة الشرطة ولقد تذكرت كل ما قصه الناس لي عن حالات القبض وكيف يهانون نفسياً وبدنياً إلا أنني كنت على قناعه أنهم سيتفهمون الوضع سريعاً وسيطلقون سراحي. لم يكن الأمر سهلاً إلا أنني كنت متعبة فنمت وبعد فترة استيقظت على صوت الحارسان يركبان حيث كانوا قد استرخوا لفترة في مطعم وقد فهمت من حديثهم أننا في طريقنا لـ "ستينسلوا" وهذا لم يسعدني. وفي الطريق الذي كنت قد مررت به في الصباح حيث أسعدني رؤية الخضرة. لقد تعطلت السيارة في الطريق لقد انتظرنا طويلاً لقد نمت وعندما استيقظت وجدت نفسي وحدي حيث أن الكل منشغل في إصلاح السيارة. لقد كان أحدهم يأكل مما ذكرني أنني لازال لدى بعض الطعام الذي أعطانيه "ماريال" في الصباح. فأخرجته وأكلت.

لقد كان أحد الحراس ينظر إلي في دهشة واستغراب وبعد ذلك قد تم إصلاح المحرك وسرنا. وفي "ستينسلوا" ذهبنا إلى السجن لقد أخذوني إلى المبنى الرئيسي. لقد سألوني عن أسمي ثم أخذوني إلى غرفة في السجن ومعي أمراءه أخري. ثم أغلقوا الباب وتركوني.

لقد أكلت بيضه وجزء من الخبز مما كان لازال معي ثم استرخيت وتغطيت بأحد الملاءات التي كنت قد أرسلتها للسجون في شهر فبراير السابق لقد لاحظت أن زميلتي في الغرفة تحملق في وجهي ثم غطت وجهها ونامت.

وفي الصباح أمروني أن استيقظ وأغسل وجهي لكي أذهب لمكتب الإدارة في نفس المبنى. لقد أخذوني إلى مكتب السيد "كريجار" لقد أكرتني السكرتيرة بالوقوف حيث أنني ممنوعة من الجلوس وعندما دخلت عند السيد "كريجار" لم أستطيع النظر إليه فقال "ها أنت ثانية ولكنني أنا الفائز هذه المرة سأرسلك لأحد المعسكرات فسألته "لأين" فخبط الطاولة بقدمه وقال "ألم تتغيري؟" فقلت "سأعلم عندما اذهب". فقال عليكي أن تعلمي أن هذا القرار نتيجة لإجابتك في المرة السابقة. فإذا كانت إجابتك مختلفة ما كنتي لتضحي بحريتك من أجل بلدك. "لقد أخذت أتذكر الأسئلة وإجاباتي عليها ولم أجد فيها شيء غريب فلم أستطيع قول غير ذلك وألا فقدت احترامي لذاتي.

لقد أخذ ينظر إليَّ ويضحك فقلت له "أنها نهاية الطريق" فقال "نعم" فقلت "إن الحياة ليست أغلى شيء ولكن الذنب هو أقبح شر" لذا م يقل شيء ثم تحدث في أمور أخرى إني أعاقب

لأن أمي ألمانية الجنسية إنه لم يسمع إجابة كهذه من قبل ولا يعلم معناها لقد بدء يصرخ ويسب البولنديين ثم قال أنه سيبذل قصارى جهده حتى لا أستطيع الانتحار ولكنه لا يعلم أن ديني يحرم هذا إلى جانب أنني لا أريد فعل هذا ثم وعد بأن يكسر كبريائي لقد قلت له أنني لا أتوقع خروجي حيه من هذا المكان فسألني عن كيفية القبض عليا فقالت له "لقد كنت في اجتماع اللجنة المسئولة عن حقوق السجناء في "كولومياجا" وتم القبض عليا حيث أنهم يعتبرون هذا الاجتماع غير قانوني" فقال أنه أرسل في طلبي فأخبروه أنني في "كولومياجا" فلم يخاطر بالقبض عليا هناك ولكن القدر جعلني أتي من "كولومياجا" إليه ثم قال أنني أحد مائتي وخمسون شخص في لائحة المطلوب القبض عليهم.

لقد تذكرت الطبيب "جان كوتشاج" الذي أنقذ حياة أربع ضباط ألمانيين ومع ذلك تم اعتقاله ولم يعرف عنه أي شيء حتى لأنه قد عرض نفسه للخطر من أجلهم ثم اعتقلوه وكذلك الكثيرين من الذين تم القبض عليهم. وبسماع كلامي تبسم قليلاً. لم أكن أعلم معنى ابتسامته لكنه استكمل كلامه.

"ألا تعلم ما هي وظيفتي في "لاواو"؟ إني أستاذه جامعيه في جامعة "لاواو"." ضحك وقال لي "الآن. اليوم وفي هذه الساعة؟" ثم ضحك وهنا نظر إليَّ في عيني إني أعتقد أنه مستمتع ويشعر بالفرحة هذه المرة أكثر من المرة السابقة أما بالنسبة لي فقد كنت أشعر أن أحد يحفر الكلمات داخل عقلي إن هذا الرجل هو الذي قتل كل من تم اعتقاله وهو، الآن يضحك كأن شيء لم يحدث لقد تذكرت ورأيت أمام عيني السيدة "لونجتشامب" والسيد "أستروسكي" وآخرون ممن تم اعتقالهم والقبض عليهم وفي أثناء هذا كان السيد "يرجار" لازال يتحدث وهو يحدق إليَّ بعينه. ثم تذكرت "لاواو" وأساتذة الجامعة ثم تذكرت مقابلتي معه المرة السابقة ثم استيقظ عقلي على صوته يصرخ في وهو يعدني أن يحطمني. وبعد ساعتين قال لي "يمكنك الجلوس" على الرغم من أن القانون يلزم السجين بالوقوف لقد رفضت أن أجلس فقال لي.. أترفضين معاملتي الحسنة؟ إني أتحدث إليك كان موظف أليس كذلك وأنتي تريني كرجل شرطه سرية" فقلت "بالطبع".

فقال "أتعتقدين أن رجل الشرطة لا يملك أي سلوك أدمي" وأخذ يصرخ وخبط في المكتب كالحيوان ثم أخذ يكرر كلامه وأضاف "إن رجل الشرطة السرية من الصفات الإنسانية الكافي

لمعاملة الناس بطريقة لائقة ثم ترفضين كرم أخلاقي؟" فقلت "إنني أعتبر أنه من غير الإنساني أن أقبل هذا".

فقال "إذاً ماذا تريدين؟" فقلت أن تعاملني كما تعامل كل البولندين". وعندئذ طلب من العسكري أن يأخذني إلى السجن.

لقد عدت إلى مكاني وبعد ثلاث ساعات من التحقيق سقط متعبة على مضجعي ونمت وعندما استيقظت كان أول ما أفكر فيه أن السيد "كريجار" يريد القضاء على أساتذة الجامعة. وكنت أظن أنه سيتم استدعائي ثانية واستعديت لذالك ولكني هذا لم يحدث. لقد قضيت اليوم في الصلاة والخشوع الذي كان يقطعه صوت عقلي الذي يقول أن الرب يريدني أن أظل على قيد الحياة.

ومنذ ذالك الحين بدئت حياتي في السجن لقد كان كل شيء على ما يرام فلكل مسجون مضجع والنافذة كبيرة وزميلتي في السجن تعاملني برفق إلا أنني كنت أظن أنها هنا لتتجسس عليا لقد كان الطعام قليل إلا أنني لم أكن لأشعر بالجوع فقد كان همي يشغلني. وفي السجن الكل يملك الوقت الكثير الأمر الذي لم اعتاده من قبل. ومع ذلك كنت أجد سعادتي في كتابة القصص إلى جانب الراحة من كل العناء السابق فلقد أصبحت بلا مسئوليات ولا واجبات. لم يكن أمامي سوى زميلتي التي كنت إذا ذكرت اسم السيد "كريجار" لا تقول إلا أنه يجيد عزف البيانو خاصة لدى "بتهوفن". لقد توقفت عن التفكير في هذه الأيام.

لقد كنت أحاول أن أرفع من معنوياتي في هذه الأيام حتى إذا ضاقت علي الأمور يوماً تحملت الأعباء ولكن ما كان يؤلمني حقيقة أنني مسجونة ليس لأني أساعد السجناء الأمر الذي فعلته من أجل إرضاء الرب ولكن بسبب خطاء في الإجراءات.

لقد تم تدريبي على التحكم في انفعالاتي ولم أكن أعلم أن هذا ما سيكلفني حياتي وقضاء عمري في سجن وبهذه الطريقة فقد كثير من البولندين حياتهم. ولكن ما كان يؤلمني أكثر أن عملي في نشاط مساعدة المساجين قد تعطل وأن أي تقدم في هذا المجال لم يصبح متوقعاً. ومن فضل الرب أني أرسلت للمقاومة رسالة عن سبب القبض عليا.

إن التفكير في السيد "كيرجار" والتحقيق الذي يجريه معي من وقت لأخر كان يسبب لي الإحباط فقد كان يسئلني مراراً عن نشاطي في المقاومة السرية ولم يكن على إقناع بأنني لا أشارك في هذه المقاومة ولا أعلم عنها شيء لذا وضع الأمر تحت

التحقيق أنه يعلم أني كنت أعيش في "كراكو" وإذا أرسل لطلب التحقيق في سجن "موتيبلو" سيكوب هذا أمر خطير. وعندما يمكن أن يستخدم بعض المخدرات حيث أن الألمان يستخدمون نوع من المخدرات يجعلك بعض تقطيعه تجيب على أي سؤال دون تفكير. إن بعض زملائي يعلمون عني معلومات هامة.

وبعد عدة أيام من القبض عليا. كنت بمحبسي وكان الباب مفتوح وإذا بالسيد "كريجار" يدخل وبسرعة ويقول لـ "لازلنا لم نحقق أي جديد. ونظر إلي بحده" ثم ذهب بعد أن قلت له "لا. لا يوجد جديد". لقد كان الأمر مفرغاً أن تراه أمام عينك في غمض البصر وأنت تعلم كم يكن لك من الكراهية. ثم غادر المبنى على الفور. لقد جاء فقط من أجل فضوله. ثم حدث هذا ثانية بعد يومين. ولكن هذه المرة كان بيده إحدى آلات التعذيب وقال "لقد علمنا عنك كل شيء". فقلت "إذاً سأخرج". فقال "على العكس".

وبعد فترة طويلة من حبسي. فتح الباب وإذا بإمرءه جميله في ثوب أنيق تدخل وعندما ذهبت لأحدثها بكت بكاء شديد ثم قالت أنها حزينة لقد كنت أظن أنها بولندية. وقالت لي أنها كانت تعيش مع أختها وزوج أختها في "كراكو" ثم ذهبت لزيارة والدتها في "ستينسلواو" وكان أباها الذي يعمل في أحد المحاكم خارج البلاد حيث سافر لأمر ما. وفي يوم أتت الشرطة العسكرية وأخذوا أرقام وعناوين أصدقائها. وبعد يومين من ذالك تم أخذي إلى حجرة حيث قاموا بتصويري من جميع الجهات ثم إلى قاعة المحكمة حيث التقطوا لي صورة أخرى ثم أخذوني إلى المبنى المقابل والتقطوا لي صور أخرى ولكن هذه المرة جعلوني أحمل لوحة معدنية عليها رقم ١١٦. لقد كان من المضحك أن أرى هذا ثم عدت إلى زنزانتي لأجد زميلتي أيضاً في حالة مزح يبدو أن الممثلة الأوكرانيا التي تمكث معي في الزنزانة قد استغلت غيابي لقد أخبرت "لويس" زميلتنا الجديدة أنها حين رأتني شعرت أنني مجنونة حيث أنني بمجرد دخولي إلى الزنزانة أكلت وتمت في هدوء دون
أن أصرخ أو أبكي.

وفي غضون ذالك كنت أحاول أن أجعل "لويس" تعتاد السجن وتستعيد توازنها وهذا ما حدث بعد فترة إلا أنها تخاف على والدتها حيث أنها تسكن في شقة فاخرة مما يغرس رجال الشرطة السرية للاستيلاء عليها وعلى ما بها من أثاث وحينها تذكرت ما فعل الضابط الروسي الذي عاش في شقتي لفترة.

وبعد عدة أيام سمعنا صوت تحت نافذتنا. لقد أشارت الممثلة أن نصلي ثم دخل الحارس وأمرنا بالتزام الأسرة ولقد كنت أسمع صوت طلقات النار يتلوها سقوط جسمان فهمت ما يحدث بالخارج فأخذت أصلي.

وفي يوم الثلاثاء ٢٦ مايو جاء إلى السيد "كريجار" مرة أخرى وسألني إذا كنت قد غيرت رأي ولكني لم أجب بشيء في هذه المرة فلم أقل له أي كلمة بل نظرت في عينيه بحدة فالتفت إلى الممثلة الأكرانيا قائلاً عليك الخروج من السجن وقال لـ "لويس" عليك الانتقال إلى مكان أخر ثم أغلق الحارس الباب وبقيت وحدي في الظلام لقد كنت وحدي في أمان ولم يكن الظلام دائم فقد كان النهار يأتي لقد كان الوقت يمر وكنت قد وجدت طريقة لأسعد بها نفسي فقد كنت أتذكر كل يوم لوحة من لوحات متاحف أوروبا قبدئت بمتحف "فينا" ثم "برادو" و"اللوفر" لقد تعلمت هذا من أحد الكتب التي قرأتها عن أحد الراسمين الذي كان يفضل البقاء في الظلام وحين سؤل عن هذا قال إن الظلام يعينه على أن يرى جمال وألوان روحه من الداخل. لقد كنت أشعر أنني في منزلي.

وبعد عدة أيام جاء إلي أحد الحراس الأوكرانين وسألني كم يوم بقيت في الظلام فقلت لا أعلم فمضى ثم جاء في المساء وفتح لي النافذة وطلب مني ألا أخبر أحد عما فعله لقد نمت ليلة آمنة في هذا الهواء النقي وعندما جاء الصباح رأيت أسماء بولندية منحوته على جدران المكان فنحت اسمي وتاريخ اليوم الذي دخلت فيه السجن لأترك علامة ورائي فربما أموت فربما يرى أحد البولندين هذا ويعرفني.

وبعد ذلك جاء إلي السيد "كريجار" ينظر إلي من نافذة الباب ويكرر نفس الحديث ثم نظر إلي كما ينظر إلى حيوان محبوس وتكرار هذا في اليوم التالي فقلت له "هل تسمع عن "بتهوفن" فقال هل تعلمين أنت من هو "دون بيزارو"".

وبعد انتهاء أسبوع في ظلام تام تم أخذي إلى السيد "كريجار" وفي الطريق كان هذا زنزانة مفتوحة ورأيت أنها بدون أي نوافذ وبها رجل ذو شعر كثيف وجهه. وعندما ذهبت إلي "كريجار" سألني "هل تغيرت" فقلت "بالطبع" فخرج وقفز قائلاً "إذاً سنوفر عليك العذاب فقلت "إني أشعر بالضعف وأريد بعض المقويات". ثم عادوني إلى السجن ولكن إلى زنزانة رقم ٦٠ "وهناك كانت "لويس" تجلس على الأرض وهي تبدو في حزن شديد حيث أنها علمت أنه تم القبض على والدتها في نفس

الليلة ومن ثم فقد رأتها مرتين في هذا السجن ونظرت حول فوجدت عدد كبير من السجينات جاءت إحداهن إلى وعرضت علينا مشاركتها في الفراش حيث أنه لا يوجد عدد كافي للجميع "ولويس" تنام على الأرض. ثم جاءت أمراءه أكرانيا تحدثت معي وعندما انصرفت همست إلى "لويس" إلا أنني بتلك الأكرانيا حيث أنها
تكره البولنديين ولها علاقة بالحراس.

إن أهم ما لاحظته هناك هو سوء التغذية فقد كان الماء يقدم لنا مرتين فقط والطعام الأساسي هو الخبز لا غير إلا أنه كان هناك فردين يأكلان جيداً إحدهما السيد "كاتيا" والأخرى السيدة "الأكرانيا كاتيا" تخرج مرات عديدة في النهار لتنظف مكاتب الضباط ويقود بالطعام الذي تقتسمه مع السيدة الأكرانيا مدعين أن هذا الطعام من الحرس أو من زوار الحرس. لقد تذكرت أن الأسر كانت ترسل طعام إلى السجن أثناء فترة عملي.

لقد كانت كاتيا تجلب معها أخبار عن العالم الخارجي وما يحدث به أي ما يحدث في السجن ليس خارج السجن لقد كانت تقول أنه في "ستانسلو" أو خارجها. لم تكن تذكر اسمه ولكني كنت أعلم أنها تتحدث عن "كريجار" من نظرات الخوف التي في عيناها. لقد كنت أعلم من ردود أفعالها ما يحدث فإذا دخلت خائفة ونامت لساعات فهذا يعني أن الألمان ينتصرون. إنها تكره النساء البولنديات على الرغم من أنها أحياناً ما تتبسم في وجههم.

إن السيدة البولندية المسئولة عن الزنزانة كان الكل يحترمها حتى الأوكرانيين لا يسعهم غير ذالك أما السيدة "كروديازوا" فهي أقدم نزيلة في هذا السجن أنها هادئة دائماً. لقد تم القبض عليها حيث عثروا على ملابس أحد الهاربين في شقتها. إنها تتحدث وتحكم على الناس بلباقة وحكمه إنها كانت تتحدث إلي بصراحة حيث وثقت بي في غضون يومين على الرغم من أنها لا تثق في أحد بسهولة. لقد كانت تتعامل بلطف مع الكل فهي تعلم كم يعانون الحزن إنها لا تفكر في نفسها بل فيمن حولها أو في زوجها وأولاده لقد تزوجته وهو أرمل ولكنها لم تنجب حتى لا تفرق في معاملة أولاده وأولادها. لقد كانت الدموع في عينها حين تحدثت معي عن هذه التضحية. لقد كانت تحب الموسيقى والغناء ففي المساء تغني ونغني معها كلنا بولندين وأكرانيين ونشعر بأننا لا نستطيع فعل شيء إلا حب هذه السيدة الحنون.

لقد كان على المسجونات عمل ملابس للضباط باستخدام الخيط المأخوذ من ملابس الموتى ومن ثم اعتذرت عن فعل هذا حيث أن نظري قد ضعف. وفي يوم جاءت إلى السيدة "كوريازوا" وقالت هل تعلمين لمن هذه الثياب فقلت لها "لا" فقالت عندما أتيت إلى هنا لم أكن أعلم لذا عندما سألتيني عن السيدة "دانتي" أنكرت معرفتي بها ولكن كنت أعلم أنها هنا واليوم علمت أنها ماتت بعدما قالت للسيد "كريجار" أنها تؤمن أن بولندا ستتحرر قريباً.

لقد كان الجوع يزداد ومن ثم تضعف أبداننا أبداً وفي يوم كان "كريجار" عائد ومعه عدد كبير ممن تم القبض عليهم وأغلبهم من البولنديين والبعض أوكرانين. لقد كان يلقي القبض عليهم لاتصالهم بالسلطات. الأخرى فقد كانت بعض الفتيات البولنديات ترتبط برجال من بلد أخرى ومن ثم يلقي القبض عليهم. وكان يعذبهم مما يجعلهم يصلبون ثلاث أيام عند قدومهم بلا كلام.

لقد كان عدد الأوكرانين يتزايد. وكانت "كاتيا" تعاديني وتجلب أخبار للأوكرانيين عنى من الضباط مما جعلهم يسيئون معاملتي حيث أنها قالت لهم أنني من طبقة عالية وعلى الرغم من هذا كان لازال هناك من يعاملني بشكل جيد. لقد كانت المجاعات تزداد وكانت الأوكرانيات يتمتعن بطعام إضافي من الضباط مما جعلني أشعر بالغيرة والحزن أيضاً حيث أنني منذ شهرين كنت أعتقد أنه لا توجد مجاعات في السجون.

وعندما ازدادت المجاعات قررت أن أتحدث إلى المسئولين بالإضافة عن كل زملائي حيث أنني الوحيدة التي تتحدث الألمانية وحين عرضت على المسئول طلب أن يمدنا ببعض البطاطس التي تتبقى وتوزع على الأوكرانيات من قبل الضباط كان رده "أننا نحتاج إليها في إطعام الخنازير".

وفي يوم جاءت "كاتيا" وقالت أن الأب "سماسزيان" قد توفى حيث أنه حين مرض في السجن قدموا له اللبن ليس من أجله ولكن لأنهم يحتاجون منه بعض المعلومات ولكنه لم يخن أحد ورفض ومن ثم تأخر اللبن عنه ومات من سوء العلاج والغذاء. لقد كان لهذا الخبر أثر سيء عليا حيث أصبت بإكتئاب فشعرت أن الكثيرين يموتون من أجل حرية بولندا إذاً من الذي سيظل على قيد الحياة ليعيش فيها.

إن الأصوات الوحيدة التي كنا نسمعها هي أصوات الصراخ الذي يأتي من الخارج أو أصوات الأطباق ومن حين لآخر نسمع

أصوات جثمان تسقط على الأرض فتخرج "كاتيا". ثم تعود بعد فترة وتخبرنا عمن سقط من البولندين وفي مره أخبرتنا أن من سقط هو ست أشخاص وقد كان عدد الذين يموتون جوعاً يتزايد كل يوم. وصراخ الذين لا يستطيعون النوم من ألم الجوع يزداد فيصرخ فيهم الحراس ليصمتوا ولكن بلا جدوى. لقد كنا نرى الكثيرين يسقطون أمامنا من نقص الغذاء والدواء والثياب.

وفي أثناء هذا وصلتني برقية بها ملابس لي وعندما رأيتها علمت أنها من ثيابي التي تركتها في "كراكو" إن هذا الأمر كان له تأثير كبير عليا فلا أحد يقدر مدى أن ترى شيء من آثار الحرية وأنت في محبسك. وأن تشعر أنه لازال هناك أناس أحرار يذهبون حيثما أرادوا ويفعلون ما يردون.

وفي يوم علمت "لويجا" أن والدها هنا في السجن مما أحزنها حزناً شديداً أن تعلم أن هذا السجن جمع بينها وبين أباها خلف الأسوار إلى نهاية مأسوية.

وفي هذا الوقت كان الألمان قد بدوء في تعذيب اليهود حيث كانوا يجبروهم على البقاء في الجو القارس البرودة لفترات طويلة. وكنا نسمع أصوات البكاء من المرضى والأطفال وفي يوم توقفت كل هذه الأصوات معاً.

لقد كانت النساء كعادتهن يتحدثون على بعضهن البعض ويلعبون في النهار على الرغم من أن هذا غير مسموح. لقد كنت أرهن يتغامزن عليا. وفي يوم رأيت "كاتيا" ترتدي فستان ملون وتغني من كتاب قد نجحت إحداهن في أن تبعده عن أيدي المفتشين ثم دخلت أمراءه في ثياب ثقيلة مما يعني أنه تم القبض عليها في الشتاء إنها "جانكا" كانت تعمل مدرسة لقد كانت في حبس منفرد لثلاث شهور. لقد تم القبض عليها عندما كانت الشرطة تبحث عن خطيبها. لقد كانت في سجن مدينة "لاواو" لذا سألتها عن نشاط اللجنة التي كنت أعمل بها فتأكدت من استمرار العمل حيث أن "جانكا" كانت تعمل في إعداد الطعام وكانت ترى أعضاء اللجان يجلبون الطعام والدواء للمساجين.

وفي يوم عادت "جانكا" سعيدة بعد أن طلبوها للاستجواب. لقد علمت أنهم لم يستطيعوا القبض على خطيبها مما أسعدها سعادة بالغة.

وقالت "الآن لا يهمني ما يحدث لي" ومنذ ذلك الحين وهي تجلس على الأرض في ركن ويبدو عليها الضعف العام من الغذاء ككل من في السجن لقد وصلتنا معلومات أن عدداً كبيراً من

المقاومة قد تم القبض عليه بسببي ولكنهم لا يعلمون شيء عني ولا عن نشاطي باستثناء قائدي. لقد قالت "كاتيا" أنهم نقلوا عدد كبير من المساجين إلى الغابات.

وفي يوم جاءت إلى السجن سيدة تدعي "ستارسكا" وكانت من عائلة "روزدال" وتعلم الكثير عن أبي. لقد سررت بهذه التذكرة بالماضي فقد بدئنا نتبادل معلومات عن عائلتنا. ثم أعطتني هدية من البيض الطازج واللبن والخبز من ما جلبته معها. لذا بدئت صحتي وقوتي تعود لي.

لقد كان يحدث شيء غريب كان عدد البولندين والأوكرانين الذين يتم استجوابهم كل يوم في تزايد مستمر وكانوا يعودون بإكتئاب شديد. وكان من بينهم سيدة تدعي "ناسيا" وهي أوكرانيا سيئة الأخلاق إلا أنها تحب الجميع وعطوفة لذا فإن الكل يحبها. هذه المرة تم استدعائها وكذالك "جانكا". لقد قالت "جانكا" أنهم سيطلقون سراحهم.

ذكرتها أنها وعدتني أن تذهب لقائدي في المقاومة وتخبره عني وعن ما حدث لي. وسلمت عليها وخرجت لقد انتظروا لفترة في الممر ثم جاءت سيارة الترحيل ورأينا أبواب السجن تفتح مرة أخرى ثم جاء الحارس واستدعى أمرائتين آخرتين. ثم جاء أحد الضباط الذين يسوء حال السجن كله بقدومه. كنا نطلق عليه "حصان الموت" لقد سئل عن أحد ما ثم طلب من الباقي الجلوس على الأرض ولا يسمح لأحد الوقوف أو النظر من النافذة أبداً.

لذا جلسنا على الأرض وانتظرنا كل منا ينتظر أن يسمع اسمه وبدء البعض يتلوا الصلوات. وبعد خروج الضابط بنصف ساعة سمعنا صوت السيارة تخرج وبعدها بضع ساعات جاء الحارس ومعه بعض الملابس ومنها سترة لـ "جانكا". وفي هذا الوقت خرجت "كاتيا" لأمر ما ثم عادت وقالت أنهم لم يطلقوا سراحهم بل أرسلوهم إلى الغابة في هذا اليوم لم نستطيع النوم أبداً وبعد تعب شديد خلدنا للنوم وفي منتصف الليل استيقظت على صوت الحارس يدعوا السيدة "كورنيلا" ثم فتحت عيني فوجدت السيدة "كورديزوا" تقول لا تقلقي إنه صوت القطار بالخارج.

حتى هي لم تصدق ما قالته لكن صوتها كان كافي ليهدئني. ثم دخل الحرس وطلبوا مني أن أجمع أشيائي وخرجت معهم لقد كنت أود أن أترك ملابسي مع زملائي لكنهم رفضوا. ما كان يحزنني إلا أنني سأغادر في الظلام. وعندما وقفت في الممر

لاحظت عدم وجود السيد "كريجار" لقد كنت أتوقع وجوده حتى لا يحرم نفسه من سعادة أن يراني في هذا الموقف. وعندما وقفت عند مخرج المبنى شعرت أن الهواء النقي أعطني قوة. نظرت حولي فلم أجد أي سيارة. لقد أخذني الحارس إلى المبنى الرئيسي وطلب مني الصعود. لقد كنت في الماضي أشعر بالفضول لصعود تلك السلالم لأعرف ما يحدث للسجناء.

لقد دخلت مكتب حيث كان هناك موظف وكاتب. وكان عليا أن أحكي كل شيء عن نفس منذ الميلاد لقد قضينا وقت طويل في الحديث لقد شعرت بالتعب. لقد أحضروا الشاي والكعك. لأنفسهم وحينها استندت على المكتب لأرتاح فصاح الموظف لي كي لا أرتاح وأخذ يسألني ثانية ثم أنهينا الاستجواب وخرجت مع الحارس وعندما مررت على حجرة المحكمة كنت أشعر بالخوف لقد كان وقت الفجر كنت أشعر أنه آخر يوم في حياتي.

ثم عدت إلى الزنزانة فاستقبلتني "لويجا" بالترحاب وكنت جائعة ومتعبة. كان معي الخبز التي أعطتني إياه "جانكا" فأكلت ثم نمت. وفي الصباح كانت الأمور هادئة وأخبرتنا "كاتيا" أنهم أخذوا الكثيرين بالأمس وهذا ما ستكرر اليوم. وأنهم سيقبضون على الكثير لذا يقومون بترحيل السجناء لإخلاء أماكن بالسجن. وفي المساء أفرجوا عني لم أكن أصدق ما يحدث لقد ذكرتني كل المساجين بزيارة أهلهن وكان الحرس يأمروني بالإسراع لقد أخذت خطابات من كل المسجونات لأعطيها لأقاربهم وخرجت وقفت اثنا عشر ساعة في الممر. ثم أخذوني لرئيس السجن حيث سلمني أوراقي والمال الذي كان معي عند دخولي السجن وطلب مني مراجعة كل شيء فراجعته سريعاً وتذكرت أن هذا المال من أموال المقاومة السرية فابتسمت ثم سألته إن كان يمكنني الرحيل فقال "بالطبع". بالخارج تنتظرني سيارة خاصة ركبت وركب أحد ضباط الشرطة السرية بجانب السائق وجاء مندوب السيد "كريجار" وسألني "هل كل أشيائك معك؟" فقلت "نعم" ثم أنطلق السائق.

obeikandl.com

الفصل الخامس

فتحت بوابة السجن وفتحت معها أبواب الحياة. لم يكن هناك أحد بالشارع عندما خرجنا. لقد كنت أنظر إلى الطرق والشوارع نظرة مختلفة عن ذي قبل ولم أكن أستطيع العودة لهذا المكان إلا بعد أن تنال بولاندا استقلالها. إن أثر تجربة السجن لمدة ثماني أسابيع لن تترك ذاكرتي أبداً. لقد كنا في الثامن من شهر يوليو عام ١٩٤٢ وكانت الشمس ساطعة. لم أستطيع استنشاق هواء نقي لفترة طويلة وعندما رأيت الحقول كنت لا أكاد أصدق نفسي قرؤية الخضروات أشعرتني بالبهجة. ثم عبرنا النهر بالمعدية هذا النهر الذي شهد طفولتي لقد ظرفت الدموع حيث شعرت أنني قريبة من منزل أهلي الذي نشأت فيه.

لقد كنت أتسأل ما الذي سأفعله عند وصولي "كراكو" هل سنصل مبكراً فأستطيع زيارة الكنيسة أم أذهب لرؤية زملائي في اللجنة أم أتصل بهم قبل وصولي. لقد كان مجرد التفكير يسعدني حيث جعلني أشعر بالحرية وحقي في الذهاب حيثما شئت إنها أول مرة أشعر بسعادة تلك الحرية وحيث أن عقلي وأفكاري لازالت تفكر في الزنزانة رقم ٦ سألت الضابط المصاحب لي في السيارة إن كان بإمكاني أرسل طعام لزملائي في السجن في نفس السيارة فقال لي "إذا أحضرته قبل الساعة الثامنة صباحاً فمن الممكن أن أرسله لهم". لقد وصلت السيارة إلى "لاواو". حيث شعرت مشاعر اشتياق لهذا المكان ثم توقفت السيارة أمام مقر الشرطة فطلب مني الشرطي النزول وفي الداخل سئل علياً أحد المسئولين ولكنه لم يكن موجود فجاء حارسي وأخذني إلى مقر

السجن الرئيسي حيث أخذوا ممتلكاتي ثانية وكل ما معي ثم أدخلني زنزانة قذرة ولكنني نمت من شدة التعب.

استيقظت على صوت المواصلات العامة وأخذت أفكر ما الذي يحدث لي؟ فمنذ ٢٤ ساعة كنت على وشك الموت ثم تم الإفراج عني ثم ثانية إلى السجن فما الذي يحدث؟ ثم تذكرت المشاهد الرائعة التي رأيتها أثناء نقلي بالسيارة إلى هنا. إن تذكر المناظر الجميلة والذكريات السعيدة يخفف من ألم الأحداث السيئة بل ويعطني قوة رائعة على الصبر والتحمل.

في غضون ذلك استيقظت أمرئتين ألمانيتين كانتا نائمتين في ركن في الزنزانة وكلتهما موظفتين أحدهما تم القبض عليها بسبب معاملات تجارية خاطئة والثانية بسبب أنها أخفت صديق له علاقة بالمقاومة. وفي الركن الثاني أمرئتين من "لاواو" خلدا إلى النوم ثم بعد قليل جاء الشرطي واصطحبني إلى غرفة التحقيق وبينما نحن ننتظر في الممر قال لي "لا أعلم لماذا يضع الناس أنفسهم في المتاعب.

ثم جاء حارس أوكراني وأخذني وأجادني إلى شارع "توموكي" ولكنني لم أرى في الطريق أي شخص أعرفه. وذهبنا إلى مبنى التحقيقات حيث استقبلتني ضابطتين ثم دخلت إلى حجرة وفارغة وبعد قليل دخل ضابط في الأربعين من عمره أنيق وسألني إن كان من الممكن أن أنتظر قليلاً فسألته هل أنا حرة أم مقبضه حيث أنه تم الإفراج عني بالأمس فقال إنه لا يعلم شيء عن هذا الأمر ثم قال لي هل أكلتي اليوم فقلت له أني تناولت فطاري فخرج ثم عاد ومعه طبق به طعام أعطانيه لأكل.

وبعد ذلك أدخلني مكتبة وأغلق الباب وطلب مني الجلوس وفتح ملف كبير قرأت عليه أسمى وسألني هل قلتي أنك تكرهين ألمانيا. فقلت لقد كان عليا الإجابة بنعم أم لا وعندما هربت من الإجابة أجبرني السيد "كريجار" على الإجابة. وبعد ذلك سألني إذا كنت على علم بأسماء العائلة المالكة في "إيطاليا" فقلت "لا" فسألني إذاً لي أصدقاء من أقارب العائلة المالكة أو على علاقة بهم فتذكرت أن أحد أقاربي على صله بالعائلة المالكة في إيطاليا فقال لي أن عليا عدم ذكر ذالك والاحتفاظ بتلك المعلومات ولكنه يرى أن إجراءات وأسباب القبض عليا غير رسميه لذا سيوجه مذكرة إلى برلين ومن ثم يتمنى أن يبُت بها قبل أن يستدعني السيد "كريجار" ثانية. ثم قال إنه يتمنى أن يتم إطلاق سراحي خلال أسبوعين وأن الأسرة المالكة أمرت لي

بالطعام المناسب وغرفة بمفردي وحرية الحركة في الممر وسألني عن الطعام الذي أريده. فطلبت منه أن يرسل لمقر اللجنة التي أعمل بها يطلب مندوب منهم وبالفعل أرسل في الحال وجاء أحد المسئولين وسألني احتياجاتي فطلبت منه بعض الملابس لأنني أعطيت ملابسي لزملائي في الزنزانة لأنني علمت أنهم سيفرجون عني فتعجب من كلامي وتحدث في أمر آخر.

وسألني عن كيفية معاملتي في السجن فقلت له أنه تم حبسي في الظلام فاستنكر هذا ولكني أكدت له أنه تم حبسي ٧ أيام في الظلام التام فحزن وخرج ثم جاء الضابط وسألني إن كنت أريد أي شيء طعام أم كتب أو أي شيء آخر. فقلت له أنني سأطلب من اللجنة إرسال كتب لي وبعد قليل جاءت صديقاتي لزيارتي وفي أعينهم الحزن فسلمت عليهم وأخذت منهم الملابس وطلبت منهم إرسال كتب لشكسبير وتاريخ روما وسألتهم أن يبلغوا القيادة أن كل شيء في "كراكو" على ما يرام ثم انصرفوا وجاء الحارس فقال لي بعد قليل سأرسل لك الطعام فكري فيما تريدين أن تأكليه من الفاكهة بعد الغداء.

بعد خروج الحارس أخذت أفكر وقررت أن أخبر المحقق أن السيد "كريجار" يضطهدني بشكل شخصي وهكذا سيساعدني بشكل أفضل ثم أخذت أفكر في إيطاليا كم هي عظيمة فقد وفرت لي حياة جميلة.

وبعد قليل جاء الحارس وأخذني إلى المحقق في مكتبة وبجانبه السكرتير يكتب التحقيق وبعد انتهاء الأسئلة طلب المحقق من السكرتير الخروج فحكيت له كل ما حدث لي في السجن من اضطهاد وسوء غذاء وحبس في الظلام وأن السيد "كريجار" يضطهدني بشكل شخصي ثم تحدثت عن معاملة البولندين السيئة في السجون لقد كنت أقص عليه ما يحدث بصوت مؤثر وقد لاحظت تأثير هذا عليه من أول حديثي لقد نويت أن أحكي له كل ما أعرف عن "كريجار" وعن أنه قتل أساتذة الجامعة في "لاواو" فقال أنه كان يخدم معه حين ذالك حيث طلب منه أن يحضر كل أساتذة الجامعة وبعد ذالك عاد ولم يجد أحد على قيد الحياة ثم طلب منه أن لا يخبر أحد بما حدث ثم طلب مني أن أكتب ما قلت فقلت لا حيث أنني إن فعلت سيقتل كل البولندين في السجن. ثم طلب منه أن يأمر لي بطاولة في حجرتي فقال إن هذا سيستغرق وقت وبعد ذالك دخل السكرتير لتسجيل الاستجواب فسألني المحقق إن كان لي أي نشاط مع المقاومة فأجبت بـ لا وحاولت إظهار الثقة والقوة

عند الإجابة. ثم طلب من الحارس إعادتي إلى مبنى السجن في شارع "لاكاي" فوجدت الطاولة في حجرتي وكرسي وكتب. ثم جلست فشكرت بالوحدة والتعب وتذكرت كل ما حدث لي في السجن والقتل الذي كنت أراه.

وبعد يومين قابلت والسيد "كاتشمان" ثانية وسألني إن كنت أكتب أم لا ومتى سأنتهي من هذا فأخبرته أنني سأنتهي منه في خلال يومين ثم قال لي أن إحدى عضوات اللجنة ستأتي اليوم وعليا أن أطلب منها ما أريد ثم نظر في ساعته وقال لي ربما تودين التنزه في "لاواو" فقلت بالطبع ثم قال ما رأيك أن تذهبي لنزه بمفردك فقلت "كيف بمفردي؟" فقال سأتركك تغادرين المبنى لمدة ساعة وإذا لم تعودي سيقتلونني وعند عودتك قفي تحت شجرة في مكان غير ملحوظ وخذي ساعتي هذه وعندما خرجت نظرت إلى السماء الصافية ولمست تراب الأرض بيدي وشعرت بوحشة المدينة التي تربيت بها ويسكن بها معظم أصدقائي لقد قابلت شخص أظن أني أعرفه وعندما رآني صرخ صرخة فرح وقال هل تمانعين أن نسير سوياً فقلت له بابتسامة رقيقة "عذراً لا يسمح لي بمرافقة أحد فتركني وغادر ثم عدت إلى السجن ففرح الضابط لرؤيتي ولم يكن يصدق عودتي.

وبعد أيام قليلة ذهبت إلى السيد "كتشمان" ومعي الورق كله فطلب مني أن أقراءة عليه لقد ذكرت حقائق لم يكن لدي القوة لذكرها من قبل. وأثناء ذالك فتح الباب ودخل أحد ضباط الشرطة السرية وسئل "ماذا تفعلون؟" فقال "كتشمان" أنني أقرء عليه بعض الملاحظات عن السجناء. فنظر الضابط بغضب إلي وإلى "كتشمان" ثم غادر ولم يقل شيء. ثم أمرني "كتشمان" أن أستمر في القراءة وبعد انتهائي طلب مني الحضور في اليوم التالي لأكتب التقرير على الآلة الكاتبة وبعدها طلب مني التوقيع عليه ووضعه في درج مكتبة وأغلقه بقفل سري وبعد ذلك طلبت منه أن أخدم في مشفى السجن فوافق وبلغ إذ إدارة المشفى.

لقد كان هذا بداية أفضل الأعوام التي شهدتها منذ بداية الحرب وبدلاً من الزنزانة أعطوني حجرة في الطابق العلوي لها نافذة كبيرة تدخلها الشمس وباب الحجرة باب عادي بقفل صغير أستطيع فتحه ويمكنني التنقل في أي مكان في سجن النساء وفي يوم خرجت تجولت بين السجينات لأرى ماذا يحتاجون لقد كانوا سعداء لرؤيتهم إمراءة بولندية تتفقد أحوالهم.

وفي صباح يوم جاءت المشرفة وقالت أن عليا النزول إلى السجن لمدة ساعتين حيث أنه يوجد تفتيش ولم تكن السجينات تعلم ما يحدث فكانوا سعداء بجلوسي معهم لمدة طويلة حيث لم يكن بوسعي سوى المرور السريع وإعطاء الدواء. وبعد قليل فتح الحرس الباب ودعوا بعض السجينات وتذكرت ما حدث من قبل وسعدت أنني لم يذكر اسمي.

وفي اليوم التالي عادت الأمور لطبيعتها وبعد تفقد السجناء وإعطاء الدواء ذهبت للمشرف وسألته ماذا حدث لمن تم استدعائه بالأمس فقال أنهم تم نقلهم إلى سيارة نقل وأمروا بالانضباط ومن يرفه رأسه يضربه الضابط بالمسدس ثم ذهبوا إلى ضاحية "والكا" للتسوق. لقد علمت أن المشرف ضابط أوكراني وهو زوج إحدى طالباتي إنه ذكي ويحب البولنديين والأكرانين بالطبع فهو أوكراني ويكره الألمان ولا يفرق في المعاملة بين يهودي وبولندي وأوكراني لقد سمح لي بالإشراف أحد الأدوار في سجن الرجال.

لقد نجحت في طلب الحصول على كميات أكبر من الطعام وعندما كانت تصل إلى غرفتي كنت أنقلها سراً للسجناء حيث أن هذا غير مسموح به وكان يساعدني في هذا السجينات التي يعملن في النظافة من البولنديات وكذلك ننقل الماء لمن حرم منه.

إن السجناء كانوا يموتون كل يوم بسبب انتشار مرض التيفود فكل يوم تنقل وجثة أو أكثر لقد كان هناك نقص في الماء والغذاء كبير في هذا المبنى الذي كان يمثل مقر الشرطة حتى مجئ الألمان فحولوه إلى سجن وأهل المدينة يعرفون ما الذي كان يحدث فيه إن الغذاء الذي يصل للسجناء هو مجرد حزء من رغيف خبز وشربة بصل إلى جانب الاضطهاد الذي يعاني منه كل السجناء على السواء بالإضافة إلى أن كل زنزانة بها سجين يتزعمها.

لقد كنا نحاول مساعدة السجناء بكل وسعنا وبكل طرق فمثلاً طلبوا مني تنظيف حجرتي حتى يتثنى لأحد السجينات أن تأخذ راحة وتصعد لغرفته وكأنها ستنظفها لقد كانت السجينة "جوزيا" إنها شابة صغيرة جميلة أعني كان يبدو عليها الجمال حين جاءت إلى السجن منذ أربع شهور أما الآن فقد أصبح وجهها أصفر وشعرها مموج ومن الغريب أنها كانت ترفض المساعدة والطعام بل وتتجنب
الحديث مع الكل.

وفي يوم كنت أمر على السجناء لمرضى ودخلت حجرة

كانت "جوزيا" من المفترض عليها تنظيفها وفؤجئت أنها شنقت نفسها في الحجرة فأسرعت إلى الطبيب ولكن بلا أمل حيث قد كانت ماتت ثم جاء ضابطان وأخذا يضحكان عليها ثم خرجوا. وبعد يومين جاء ضابط مكلف بالتحقيق في الأمر يسأل صديقتها لماذا انتحرت فقالت له أنه تم القبض عليها دون أي تهمة وقضت أربع شهور هنا وهي لا تشعر في أمل بالخروج على عكس الحالة التي كانت عليها عند قدومها. وبعد أيام قليلة عادة الحياة طبيعية في السجن فكل صباح ومساء أتفقد أحوال السجناء وأقدم لهم ما أستطيع من عون.

ولم يمر وقت طويل حتى ساءت الأحوال الصحية فانتشار التيفود بين السجناء إلى جانب اضطهاد الألمان لليهود مما يصيبهم بالأمراض. ومن ذالك إمراءة يهودية لها زوج وابن في السادسة عشر من عمره في زنزانة واحدة وهي تعاني من مرض القلب وكل يوم تطلب مني العلاج حيث أنها تريد العلاج والشفاء من أجل ابنها الوحيد.

وفي يوم علمت تلك المراءة بمقتل ابنها وزوجها فماتت من الحزن عليهما. لقد أثرت في تلك المراءة كثيراً.

لقد كان أروع شيء هو عملي كممرضة ومساعدة المرضى بالعلاج وهو ما كنت أفعله قبل سجني وما يشعرني بسعادة كبيرة.

وفي يـوم ٤ أغسـطس جـاءت المـشرفة وأبلغـتني أنه تم إصدار قرار بنقلي لخدمة السجناء الألمان في مبنى جديد ملحق بالسجن وعليا عدم أخذ أي أدوية معي كل ما يمكن أخذه هو أغراضي الشخصية فقط.

وعندما وصلت إلى المبنى أدخلني الحارس إلى حجرة صغيرة وأغلق عليا وقال إن الباب لن يفتح إلا للطعام فوقفت أمام النافذة أفكر في السجناء المرضى الذين كنت أساعدهم وكم أنهم يحتاجون للدواء الآن.

وعندما جاء الحارس ليدخل الطعام طلبت منه أدوات لأنظف الحجرة فخرج ثم عاد وقال إن إدارة السجن ترى أنه أمر غير ضروري. وبعد يومين سمح لي بالخروج إلى الممر فذهبت للسيد "كاتشمان" وطلبت منه المساعدة فأجرى بعض المكالمات الهاتفية ثم أخبرني أنه لا يستطيع المساعدة حيث أنها أوامر من السلطات العليا فعدت لحجرتي وبدئت مرحلة جديدة من حياتي. لقد بدئت أسجل ملحوظاتي على كتاب كان معي وفي المقدمة:

في لاواو سبتمبر من العام الثاني من الحرب ١٩٤٢

لقد كنت أحاول أن أقارن هذا السجن الذي أعيش فيه بالعالم الخارجي ولكني لا أستطيع أحاول الاحتفاظ بروح المراءة أشعر أن روح أبي في جسدي وتبادل أفكار الأجيال في رأسي فكم أن العالم صغير.

ثم حاولت أن أقرء بعض القصص لأهون على نفسي مرار السجن وأخذت أستغل الفراغ وخلاء الذهن وأخذت أفكر في عصور الرخاء الأدبي التي لم تكن تنعم إلا بانعدام الصراعات ثم جال بخاطري أن أفكر في رأي الأدباء في تأثر الإنسان بالشر المحيط وكيف أن الإنسان الذي يعيش في مناخ من الشر لا يستطيع أن يتأثر به إن قراءة هذه الآراء وهذا الأدب تجعل الذهن لا يفكر في ما يحدث حوله. فمثلاً عندما قرأت عن "الأودسا" ظلت ليليتين أفكر فيها وكانت قرأتي لها بمثابة ظهور الشمس ودفئها على روحي وعقلي. وما لم أكن أقراءة منذ أن كنت نفي الخامسة عشر من عمري من قصص الفكاهة ونحوها صرت أقرأها. ولم أكن أعلم فائدة الأدب وتأثيرها على هذا النحو من قبل وكم أن العمل الأدبي المميز يظل له بصمة على مر العصور. فمثلاً رائعة "إليود" لا تعد فقط بداية عصر أدبي جديد بل وعلامة أدبية ستستمر على مر السنين والأعوام ولها تأثير في تحول الأدب الإيطالي والألماني. ولقد كان هناك أمر يشغلني وهو هل الكاتب الشهير "دانتي" من العصور الوسطى أم من عصر الثورة والنهضة بل وهناك بعض الشعراء يرون أن شعره لا ينتمي لكلا العصرين.

لقد كانت الأحداث تدور من حولي في السجن ولا أشعر بها وكان الحارس يدخل ويفتش غرفتي ويقرأ ويطلع على كتبي ولكن بلا جدوى فكلها كتب أدبية.

لقد كان يسمح لي بالذهاب للاستحمام مرة واحدة في الأسبوع في الجزء الذي كنت فيه في المبنى القديم. وهناك طلبت من المشرفة أن تتركني أتحدث إلى الناس وكان هناك حارس عندما علم أنني مثقفة أصبح يعاملني بطريقة أفضل وبدلاً من أن يتركني أتحدث كان يشكرني كالطفل الصغير لقد شعرت أنه غريب الأفعال وكأن بداخله شحنة يريد إخراجها.

إن كل من حولي سواء أكان عظيم أم حقير يموت حتى اليهود الذين يأتون بمعاطف من الفراء وينقلب السجن حتى تأخذ زعيمة السجن هذا المعطف بما فيه من عملات وكذلك الحراس فكل من حولي عظيم أم حقير ملبسه يخلد إلى الموت. وفي أثناء

صلاتي ودعائي كنت أقول "اللهم إنا نغفر لمن أساوء إلينا فأغفر لنا" ولكني لم أكن أستطيع أن أغفر ما يحدث في السجن ليس لي ولكن للسجناء لذا فضلت أن لا أكذب على الرب وأصبحت أتلو الصلاة دون هذا الدعاء وبعد ما خرجت من السجن ذهبت إلى الفتى وأخبرته بهذا الأمر فقال إن كل السجناء فعلوا ذالك.

وعلى الرغم من أن الأمور كانت تسوء في السجن إلى جانب العزلة التي فرضت عليا إلا أنهم لا يستطيعون منعي من سمع ما يحدث بالخارج فلقد كنت أسمع ما يحدث ففي يوم سمعت صوت طلقات نار كثيفة وسقوط جثمان وعلمت أنه الضابط "بلز" إنه أحد الضباط الذي يجبر السجناء على الانسياق للأوامر عن طريق قتل بعضهم.

وفي يوم كان هناك سيارة نقل تنقل بعض اليهود إلى الريف وكانت هناك إمراءة يهودية تصرخ بصوت عالي. وهي تقول كلمة بالألمانية التي لا تتقنها وكلما زاد صراخ الحرس فيها كلما أصبح صوتها أعلى ثم انصرفت السيارة.

لقد كنت أسمع كل ما يحدث بالمر وفي يوم سمعت ضابطين يتفقان على مضايقة إحدى النساء اليهوديات التي تصطحب طفلها وحيث أنني أعلم أن قسم اليهوديات تحت حجرتي حلمت أنني أسمع ما سيحدث وبالفعل سمعت صوت السيدة والطفل يبكيان بينما الضابط يضحكان واستمر الصوت حتى منتصف اليوم.

ومع مجئ النهار أعود لكتبي وأكتب ملحوظاتي.

وعلى أي حال فإن الموت صديق مخلص لنا وهو ما يجعلنا نتحكم ونتحمل ما يحدث لنا حيث أن للحياة نهاية. لكنني شعرت أنن أصبحت أحب الحياة أكثر من شهرين مضوا وكما يقول شكسبير في مسرحيته يوليس قيصر وبينما تمضي الناس الموت أحببت الحياة إن كتابات "شكسبير" من أكثر الأشياء التي تجعلني أستمتع بحياتي.

لقد تغيرت حياتي بالسجن كثيراً ولقد قرأت قبل سجني مسرحيات "شكسبير" إلا أن قرأتها في السجن مختلفة لقد كنت أقرأها مراراً وكل مرة أكتب ملحوظاتي وكل مرة أقرأها اشعر كأنني لم أسمع عن "شكسبير" من قبل. إنه أكثر شخص يعرف ما هي الحياة إنه يصور الأشخاص كما هم في الطبيعة ويعلم الكثير عن الشخصيات المحيطة بنا.

قبل هذا الوقت ما كنت أملك الوقت للقراءة الكثيرة وكتابة ملحوظاتي أما الآن فأنا لا أشعر بالضيق إذا علمت أنه سيتمر

سجني أكثر من ذالك فلقد بدئت أكتب عن الأدب الإنجليزي بعصوره المختلفة خاصة عصر ما قبل شكسبير والتحول الذي أحدثه في الأدب. أي كان ما أكتب
فأنا أستمتع به وبقرأتي.

بالأمس جاءني كتاب عن الشعر الذي يصف ما يحدث في الحرب لقد شعرت بالخجل حيث أنني ناهزت الأربع والأربعين من عمري ولم أقرأ هذا من قبل وأشعر أن هذا الكتاب كنز. لقد كنت أشعر بتحسن في صحتي.

وفي يوم ٢٨ أكتوبر انتهى كل هذا حيث تم نقلي إلى زنزانة صغيرة مظلمة. لقد كانت تلك الزنزانة في نفس الدور وهذا مهم لي حيث أنني أعلم الحراس الموجودين هنا وأعرف من هم حولي من المساجين إنهم من الألمان والأستراليين وأعلم أن منهم مثقفين ومنهم تلاميذي وكذلك مسئول النظافة إنه قس. وفي يوم الخميس أثناء ذهابي إلى المرحاض أسألهم إذا كانوا يستقبلون الطعام بانتظام أم لا وكان من ضمن من أتحدث إليه طفلة في العاشرة من عمرها تم القبض عليها لحضورها اجتماع للمقاومة السرية ولكنها لم تذكر شيء ما سمعته. هذه الطفلة تم نقلها وأتو بطفلة أخرى في الثامنة من عمرها ولكنها لا يسمح لها بالذهاب إلى المرحاض.

وعلى الرغم مما يحدث إلا أنني لازالت أستطيع طلب الزيادة من الطعام وهو ما يمكني من مساعدة السجناء هذه المساعدة التي تشعرني بالسعادة وتعطيني القوة والأمل. ولكن ظلام المكان الجديد منعني من أن أكتب وأقراء طوال الوقت بل في ساعات قليلة لذا أصبحت أنشد القصائد التي أحفظها في أوقات الظلام مما كان يغضب الحارس الذي يكره تلك القصائد.

لقد كانت قصائد "إيملي برونتي" تمتعني عند إنشادها وأثناء غنائها في يوم ما خبطت يدي كوب سكر كان قد جاءني من لجنة المساعدة ولم أرى ما حدث إلا في النهار فجمعته ثم أخذت أكتب عن أهمية العلم والتعلم وأوضح للدارسين معنى التعليم وفائدته من كل الجوانب، ثم كتبت عن والدي وأصدقائي المقربين الذين ماتوا فكتبت "وتذكرت في وحدتي من مات من أهلي وكم أنني أشتاق لزيارة قبره" إن الأصدقاء لا يموتون أبداً والصديق لا يموت إلا إذا أصبحت لا تتذكره وتتأثر به.

وفي أثناء ذالك جاءت المشرفة وقالت أنني حرمت من الاستحمام فطلبت من المشرفة أن تحتفظ لي بالأوراق التي كتبتها عن "كريجار" وإذا مت تسلمها لشخص أعرفه وبذالك

سيقدمها للسلطات ليعرفوا أنني مت من أثر الاكتئاب وما جعلني لا أخشى من إعطائي الورق لها أنها لا تستطيع قراءة الألمانية حيث أنها بولندية.

وفي اليوم التالي مرت في الممر أحد السجينات التي تخدم في المطبخ فسألتها ما الذي يحدث حيث أن الحرس غائبين وشعرت بأشياء غريبة في المبنى فقالت أن اضطهاد الألمان للأوكرانين دفع اثنين منهم على الانتحار كما أن "بيزجسكي" ماتت إن هذا الخبر أصابني بالحزن وشعرت أنني صدمت وأخذت أذكر حديثنا معاً عن السياسة ومستقبل العالم وأخذت أكتب:

"إننا لا نستطيع تغير القانون الذي يحكمنا وكذلك من ينفذه إن الوحيد الذي يستطيع ذالك هم رجال القانون لذا علينا أن نقبل سوء حظنا".

إن اليوم بدء القسيع ينزل من السماء وتذكرت منذ ستة أشهر عندما كان الزرع الأخضر يانع. وفي اليوم التالي كنت كتب وأترجم. وفي يوم جاء ضابط وأدخل رأسه من نافذة الباب وقال لي "استعدي للذهاب إلى "ريتشا" غداً" ثم أنصرف. هذا يعني أن السيد "كاتشمان" ترك العمل هنا. إن "لاواو" بها كل من يعرفني أما إن تركتها فممكن أن يقتلني الألمان ولا يعرف عني أحد أي شيء.

وفي المساء بدئت أتقاسم مع زملائي آخر ما معي من طعام وبينما أنا أوزع الطعام جاء ضابط ملفح لم أرى وجهه ومعه حرس وبنما هو يتحدث عرفت أنه السيد "كاتشمان" فدعاني إلى مكتبة وهناك قال أنه غاب لفترة حيث أنه أنجز أكبر مهمة في حياته لقد قدم التقرير الذي كتبته في "كريجار" للسلطات وتم مسألة "كريجار" ولو لم أكن أملك الحماية الملكية لكنت قد قتلت وسيطلب مني الوقوف أمام المحكمة وإذا وافق القاضي على أقوالي سيتم منع قتل أي شخص في السجون إلا بعد إذن السلطات في برلين. ثم طلب مني "كاتشمان" أن أقول أنه رجل ألمان يحترم بلده إذا سألني القاضي ما سبب اهتمامه بالأمر ومعاملته الحسنة معي. وأن لا أتحدث مع أحد عن هذا الأمر حتى ينتهي ثم قال لي إنني من الممكن أن يسمح لي بالذهاب لبيتي بشرط عدم مغادرة البلاد. ثم طلب مني أن أقول أن معاملته أصبحت سيئة مع المساجين حيث أن "روميل" طلب منه ذلك. ثم قال أنه عليه الانصراف وسألني إن كان هناك شيء أريده فطلبت منه إرسال الكتب التي كتبتها إلى مقر اللجنة التي كنت أعمل بها ليرفقوها

بأشيائي هناك.
فوافق ثم قال أنه يتمنى لي حياة أفضل في الفترة القادمة وانصرف. ثم عدت للزنزانة الخاصة بي ثانية. وأخذت أتلو صلواتي كما كنت أفعل كل يوم منذ قدومي إلى السجن وشكرت الرب لأنه يحقق العدالة وعندها شعرت بالسعادة وفهمت أنني مجرد سبب لتحقيق العدالة حيث دخلت السجن لأعرف ما يفعل "كريجار" وأمنعه قتل أي شخص إلا بعد إجراءات مشددة.
وفي الصباح جاءت الحارس لتأخذ مني الكتب كما طلبت من "كاتشمان" وطلبت منها أن تهتم بالأمر لأن هذه الكتب مهمة جداً وشعرت في عينها تفهمها للأمر ثم ودعتها. وسمحت لي بتوديع زملائي وهذا ما أسعدني كثيراً.
ثم طلب مني حمل حقائبي للرحيل وبالخارج كانت هناك سيارة خاصة تنتظرني وبها ضابطين من الشرطة السرية وحارسه. ثم انطلقت السيارة لقد كان أحد أيام الشتاء والسماء تلمع أثناء سقوط الثلج وفي الطريق كنت أتذكر عطف "كاتشمان" وحسن معاملته ثم رأيت جامعتي التي كنت أدرس بها.
وبعد قليل وصلنا إلى محطة القطار لقد كان هناك مكان مجهز لنا في القطار كم كنت أشعر بالحزن لإجباري على ترك مدينتي المفضلة "لاواو" ولكني ما أنجزته كان يهون عليا هذا.
وعندما وصلنا إلى المحطة كان هناك غبار بالجو وتذكرت أحداث وقعت لي كثيرة وكذالك الأربع شهور ونصف التي قضيتها في سجن "لاواو" لقد مرت وكذالك كل ما هو صعب سينتهي يوماً ما فلا زلت حية ولازلت أكتب ملحوظاتي ولازال معي كتبي وبعض الطعام.
إن هذا السفر هو بداية النهاية لأنني أملك الحق وسأستطيع الدفاع عن نفسي وعندما تنتهي هذه المأساة سأعود لكفاحي وعملي ثانية وهذا كفيل بأن يعطيني قوة وصبر.
لقد مررنا "بكراكو" في الثانية صباحاً لقد كنت أشعر بالحنين نحو أصدقائي لقد كان الحراس الذين في صحبتي نائمين وكانت الحارسة الألمانية التي من شأنها مرافقتي حتى لا أستطع الانتحار قد نامت أيضاً إنني بالفعل لا أفكر في الانتحار وعلى الرغم من أني سأترك بلدي وربما لا أعود لها ثانية إلا أن "بولندا" ستحرر في خلال ثماني أشهر من الآن فأن سأغدر لخدمة بولندا وفجاءة شعرت بالوحدة عند وداع "بلادي". إنه يوم الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٢ هذا اليوم الذي فارقت فيه حدود بلادي.

الفصل السادس
من ٢٩ نوفمبر ١٩٤٢ حتى ٩ يناير ١٩٤٣

لقد كان الحراس نائمين حتى وصلنا إلى "وكلاوا" لقد حولت أن أبحث عن أثر تدمير من جراء القنابل لكني لم أجد شيء. وفي المساء وصلنا إلى برلين.

لقد كان الحراس يناقشون إن كان عليهم إيصالي إلى برلين فقط أم مصاحبتي حتى السجن. وعندما وصلنا إلى السجن لم يسمح لنا بالدخول حيث لا تقبل هناك السجينات الأثاث. فهناك سجن في "ألكسندر بللتر" هو الذي يمكن أن يقبل دخولي. وهناك دخلت إلى زنزانة صغيرة في الدور الخامس من مبنى يرجع إلى القرن التاسع عشر ومن الطراز الروماني لقد كنت متعبة لذا خلدت إلى النوم.

لقد استيقظت على لون السماء الرمادي وهو لون سحاب أوروبا في الشتاء الذي يبدوا وكأنه غير نظيف. إن النافذة التي في الزنزانة كبيرة. فأخذت أنظر إلى الزنزانة وبينما أنا كذالك أدخلت الحارسة بالقهوة إنها شابة جميلة تدعى "فرو واشتميسين". إنه يوم مشمس ولكن دون كتب ولكني لازلت أملك ذاكرتي وعليا الاستعداد لمعركة كبيرة حيث أن ضابط الشرطة السرية وعدني بأن يلحق بي يوم الاثنين.

لقد تذكرت ذالك الرجل الذي قال أنه رفض إطلاق النار على المساجين ومن ثم عرض نفسه للخطر ولكنه استمر في ارتداء زي هو يشعر أنه غير راضي عنه فما هذا البلد الذي يخجل فيه الشخص من نفسه.

وفي المساء زارني السيدة "فرو فوز تهرن" وهي المسئولة عن السجينات أنها طويلة وجميلة وشعرها بني مسدود على ظهرها

وتعامل المساجين بطريقة جيدة لقد قالت لي إنني أملك حق الإضائه في المساء وأن أطلب ما أريد فطلبت منها سلطانية للطعام فقالت لي إنهم يستخدمونها للأطفال حتى عمر السادسة أنهم لا يعطونا الطعام الكثير لكنه أكثر من الطعام الذي يقدم في سجن "ستانصلواو" أعلم أنني سأجوع هنا لكنني لن أموت من الجوع. وفي يوم الاثنين الموافق ٣٠ نوفمبر وصل ضابط الشرطة الذي سيحقق معي. لقد خرجنا سوياً وركبنا الترام. واصدمت بوجوه الناس القبيحة ثانية. ثم وصلنا إلى مقر الشرطة وفي الدور الثاني دخلت مكتب به ضابط كبير إنه نائب هتلر وهو السيد "سبترشفهيرر". وبجانبه ضابط طويل في الثانية والثلاثين من عمره وآخر واقف بجانبي. وأمرني بالجلوس أمام ضواء النافذة ثم سألني "هل أنت من كتب هذه الوثيقة؟ ولماذا؟". فقلت "لأن السيد "كاتشمان" طلب من كتابة ما أخبرته به". فقال "هل كتبتها لتعلمي الألمان درساً؟ لقد كنت أظن أنه هذا الضابط الكبير إذا علم الطريقة التي قبضت عليا بها والأسباب وكذلك كيفية معاملتي في السجن على يد السيد "كريجار" سيأمر بالإفراج عني ولكنه بدء يسأل أسئلة كثيرة وسرعة ليثبت للقاضي أن كلامي مناخي للتقرير الذي كتبته. لذا لقد حاولت استخدام نفس العبارات التي استخدمتها في تقريري لقد كان أحد الضباط لا يفعل أي شيء سوى النظر إلى وجهي تعبيراته ثم قال الضابط الكبير لي:

١. أنه قام بزيارة مكتب "كريجار".
٢. أنه استجواب عدد كبير من الضباط.
٣. أن كريجار نفي أنه قال لي أنه قتل أساتذة الجامعة.

وهنا شعرت أنهم غضبوا من أن "كريجار" قال لي هذا لا من أنه قتل أساتذة الجامعة.

لقد قال الضابط الكبير أن كريجار يحقق في وجود السكرتير فقلت له أنه في المرة الثانية لم يكن هناك أحد غيري معه فأنكر قول كريجار لي ثم سألني "إذا لم يكن كريجار هو الذي أخبرك تلك الأمور فمن أن لك بها؟"

فلم أستطيع الرد ثم بعد دقائق قلت "إنني قد كتبت أنني أستطيع أن أقسم على ما كتبت في هذا التقرير في أي وقت". لقد بدء الضابط ينظرون في عيني ثم طلبوا مني الخروج حتى يكتب التقرير. فقال لي أحد الضباط أن التحقيق أستمر لساعة و٢٠ دقيقة ثم دخلت ثانية وقرء عليا التقرير الذي هو إجابتي

على الأسئلة حيث انتهى بجملة "إنني مستعدة للقسم على صحة ما قلت". أنهم لا يقدرون أهمية القسم بالنسبة لشخص على خلق حيث أنهم يرتكبون الجرائم كل يوم.

ثم قال الضابط أنه سيستدعي السيد "كريجار" للمحاكمة ومن ثم سيواجهني به حيث أنه لم يعتاد أن يقول شيء عن شخص ثم لا يواجهه به. وهذا ما سيقرر مصيرك.

ثم ركبنا القطار وعدنا إلى السجن لقد شعرت أن السجن يبدو غير نظيف مقارنة بيوم وصولي وعندما أغلقت زنزانتي جلست على السرير وبدئت أرتب أفكاري. إنني سعيدة بما وصلت له في أول مرحلة من هذه الحملة حيث أن تصديق الضابط لي أمر هام.

إن مواجهة السيد "كريجار" هي أهم مرحلة وكيف أن الألمان سيثقون في امراءة من العدو البولندي لدرجة أن كلمة منها ستؤدي لمحاكمة ضابط ألماني كبير وبالطبع سيفكر "كريجار" في قتلي لإنهاء الأمر وهذا ما كنت أعرفه من قبل كما أن محاكمة كريجار ستحدد مصيري.

لقد بدئت أنظر على الحائط لقد وجدت الحائط مليئة بكتابات السجينات السابقات وبجانب رأسي بألمانية "عزيزتي وابنتي ستعلمين يوماً الحقيقة" وبجانبها بالفرنسية قصيدة غير موقعة فكم عدد السجينات التي دخلت هنا قبلي وماذا كان مصيرهم. وفي يوم سمعت صوت المرءة التي تنظف الممر ثم وجدت خطاب عليه رقم زنزانتي تحت الباب فتحته فوجدته من زميله في الزنزانة المقابلة إنها ممثلة ألمانية أخبرتني بالخطاب أنه أثناء ذهاب الحراس للطعام تقف السجينات وتنظر من نافذة الباب ويتحدثون سوياً باختلاف جنسياتهم وعندما فعلت اكتشفت أن مخاطبة العدو وفهم وجهات نظره طريقة جيدة إلا أنها جديدة بالنسبة لي إنهم يقدمون المبادئ التي وضعها هتلر ويؤمنون أنه يمكن استخدام أي وسيلة من أجل الانتصار على العدو وأنهم بمجرد الانتصار على روسيا سيستردون أرض الآباء. وأثناء مناقشتي لهم كان بعضهم يقتنعون بوجهة نظري وأثناء الحديث أحياناً كنا لا نستطيع أن نكمل الحديث لانعدام اللغة المشتركة بيننا.

لقد استمتعت واستفدت من هذا كثيراً إنهم يسلكون طريقة مختلفة في معاملة العدو. وهي أنهم يفعلون أي شيء سوى القتل فهم يتركونهم يختارون طريقة الموت ومع هذا إنهم لا

يسمحون بارتكاب الجرائم تحت ستار الانتساب للسلطة. إنها جريمة لا تغتفر أن تفعل هذا.

لقد جاءت المشرفة في يوم وسألتني إن كنت في حاجة لطبيب فطلبت منها أن يتم فحصي حيث أنني أعاني من مشكلة جلدية تعجلني عاجزة عن النوم وفي يوم تم نقلي إلى الدور الأرضي ودخلت حجرة انتظار الكشف بها حوالي عشرين سجينة كلهم يتحدثون بلغات مختلفة وفي أمور مختلفة ولكن بصوت منخفض وسمعت امرئتين يتحدثون البولندية فذهبت إليهم وقلت صباح الخير ولكنهم لم يردوا فكررت الكلام وقلت إنني سعيدة أن أسمع لغة بلدي فطلبت إحداهن مني أن أنتظر حتى نهاية حديثهما لقد كانت تشرح للأخرى كيفية الرد على أسئلة المحققين. وبعد الانتهاء قالت لي إحداهن "من أين أنتي في بولندا؟ ومتى جئتي هنا ولماذا؟" فأجبت عليها ثم قالت "وما اسمك؟ "فقلت لها "في السجن الأسماء لا تهم". فقالت "على العكس في السجن من المهم أن تعلمي مع من تتعاملين؟ فما اسمك؟" فقلت لها اسمي ثم قالت هي اسمها إنها "بورتنوسكا" سيدة في الخامسة والأربعين من عمرها تتحدث باحترام شديد إنها من عائلة "ماري بورتنوسكا" وهي سيدة كانت تعمل في الصليب الأحمر مشهورة بمساعدة الجنود ولها سمعة جيدة. لقد أخذنا نتبادل الأسماء والمعلومات وأخبرتها بكل شيء عني وبما أريدها أن تنقله عني في حالة موتي أو عدم الإفراج عني ثم قالت هي أيضاً ما تريد نقله وقالت لي أنها تم التحقيق معها أكثر من مره ولكن لم يفرج عنها.

لم يمر وقت حتى نادتني الطبيب للكشف ومن بعدي السيدة "بورتنوسكا" لقد كشف الطبيب عليا ثم قال إن لم تخرجي من هنا ستسوء حالتك وسألني كم من الوقت قضيته هنا فقلت "سبعة أشهر" فأعطاني بعض الدواء وقال إنه لن يقلل من انتشار المرض ثم تم نقلي إلى حجرة أخرى ومنها إلى ممر ثم السلم حتى وصلت لزنزانتي.

لقد سررت للقاء السيدة "بورتنوسكا" وكنا نتقابل كل ثلاثاء وفي آخر مره كان معها الفتاة التي رأيتها معها في غرفة الانتظار لقد بدت حالتهما الصحية تسوء لقد قرر الألمان إعدام الفتاة الصغيرة إن مقابلة ومجالسة البولندية تعد بالنسبة لها مصدر قومي في هذا الوقت وفي يوم تقرر لي مقابلة الطبيب يوم الجمعة بدلاً من الثلاثاء فأصبحت لا أستطيع مقابلة السيدة

"بورتنوسكا" هذه المقابلة التي تسعدني لأنني أتحدث مع شخص له نفس أفكاري.

لقد كان هناك من يقولون أنني من عائلة "سوسولني" لذا أعامل معاملة خاصة. ومن ثم بدء البعض ينظر إلي بعدم احترام ثم سمح لي بشراء الجرنار وبعض الكتب لذا طلبت كتاب يدعى "ماني كامبض" إن هذا الكتاب يتحدث عن الجريمة فعلمت أن كل من يقرء هذا الكتاب يفقه أن هتلر على دراية بالجرائم التي تحدث بل ويوافق عليها.

وفي يوم جاءت لي زيارة من سيدة ألمانية تدعى "هروديركتور" وسألتني إن كنت في حاجة لأي شيء فطلبت منها نسخة من التوراة فسكتت لبرهة ثم قالت "أعلم أنكي بولندية مسيحية فلماذا تريدين التوراة فقلت أنه لا فرق بينهما فغادرت وبعد يومين أحضروا لي نسخة من التوراة وعلى الرغم من أنني أفقه الألمانية إلا أنني عجزت عن فهم الكثير منها كما أنها لم تؤثر في روحي.

لقد كان هناك عائق يحول بين أن افهم كل ما في التوراة فبعض النصوص بها بلغة غير مستخدمة. لقد قرئت جزء كبير منها.

لقد جاء يوم الكريسماس لقد مضى شهر على التحقيق معي ولم أسمع أي أخبار جديدة لقد مر عام ١٩٤٢ وجاء عام ١٩٤٣ الذي يجب أن نحتفل فيه بتحرير "بولندا" وفي يوم ٨ يناير جاء الحارس وطلب مني الاستعداد للانتقال غداً.

وفي اليوم التالي وهو يوم ٩ يناير في الساعة الحادية عشر صباحاً كنت مع عدد من السجناء ننتظر في ممر الدور الأرضي لقد كانوا ينادون على امراءة تدعى "بوتك وسكا" ولم يجدوا أحد بهذا الاسم إن هذه المرءه لها أموال وفجاءه تذكرت أنني عندما جئت كان معي أموال وأخذوها مني وعندها رفعت يدي وأخبرتهم ولكنهم لم يصدقوني ثم أخذوا يجرون بعض الاتصالات وبعد ساعة أعادوا لي الأموال. ثم ركبنا في سيارة نقل مغلقة بها نافذة صغيرة للهواء. وكان كل من معي نساء ألمانيات يتحدثون عن كيفية إخفاء وجههن عند ركوب القطار فتذكرت ركوبي للقطار في "لاواو" وكم أنني كنت أتمنى رؤية أحد معارفي لأخبرهم بما حدث لي. إلا أنهم يبدون مختلفين فهم يبدو وكأنهم مجرمين.

الفصل الســـابع
رافينسبروك
٩ يناير ١٩٤٣ - ٥ إبريل ١٩٤٥

تم اقتيادنا إلى محطة القطار، وهناك تحت سيطرة الشرطة تم نقلنا إلى عربات ترحيل السجناء. أمرنا الحراس أن نركب سيارات الترحيل وقاموا بتقسيمنا إلى مجموعات كل مجموعة مكونة من ثلاثة افراد. كانت كل واحدة من تلك العربات لا تزيد في الحجم عن حجم صناديق صغيرة كل منها مصمم ليستوعب سجين واحد فقط. كنت انتقل مع فتاة أوكرانية ضخمة والتي -أثناء عملها في ألمانيا- طورت علاقة صداقة حميمة جدا مع أحد أصحاب العرق الألماني الأصيل، وكنتيجة لذلك تم إرسالها إلى معسكر اعتقال. أما رفيقة ارتحالي الأخرى كانت امرأة ألمانية سنها أكبر قليلاً، وكانت تعمل كقابلة مولّدة.

بعد ساعتين أو ما يقرب ذلك، توقف القطار. وتم دفع بوابة القفص بطريقة بربرية بواسطة أحد رجال الشرطة، الذي كان مدججاً بالسلاح وهو يزئر قائلاً: (إلى الخارج)، تسلقنا إلى الخارج بصعوبة بالغة حيث أن أقدامنا كانت في حالة خدر أو شلل بسيط بعد أن ظلت في حالة عجز شبه تام عن الحركة في ذاك الصندوق الضئيل المسمى بـ (عربة الترحيلات). المبنى الرئيسي لمحطة القطار كان يحمل لافتة تقول: "فرستنبورغ، مكلنبورغ". ذكرني ذلك بالحارس وهو ينطق بتلك الكلمات.

على الرصيف الثلجي وقفت امرأتان ذات زي ميداني رمادي اللون مع شعار رأس الموت مطبوع على قبعاتهن. كل واحدة منهن تمسك بكلب بوليسي بواسطة سلسلة قصيرة. ثم أمرونا بتكوين مجموعات من خمس أفراد وساروا بنا جيئة وذهاباً على رصيف المحطة. تجرعت ملء رئتي من هواء الريف المنعش

عندما نظرت للمرة الأولى إلى المشهد الطبيعي الخلاب لـ "ميكلنبرج"- ذلك المشهد الصامت والحزين.

تابعنا السير جيئة وذهاباً وصولاً إلى شاحنة السجن والتي كانت قد عادت بعد أن جمعت الدفعة الأولى منا لتحمل بقيتنا. لم يستغرق النقل كثيرا من الوقت، فقط عشر دقائق من القيادة بعد ان استقليت الشاحنة ثم أُمرنا بالخروج وإعادة تكوين المجموعات خماسية الأفراد مرة أخرى. كنا نقف في ميدان أو فنـاء هائل الاتساع، محاطين بثكنات من أكواخ خشبية منخفضة تم طلائها باللون الأخضر الرمادي. كل الأكواخ كانت متطابقة، ماعدا المنزل الجانبي الذي توقفنا عنده. كان هناك مجموعة من النساء يتجولن حول الميدان، كلهن يرتدين زي موحد، يصعب تمييز أحداهن عن الأخرى تماماً مثل تلك المباني التي كنا نراها من على بعد. هؤلاء النساء كنّ يرتدين سترات ذات أشرطة لونها رمادي أو أزرق داكن، وأسفل تلك السترات يوجد ثوب مخطط، مع أوشحة للرأس برونزية اللون مربوطة أسفل الذقن.

الشئ الأكثر تمييزاً ودهشة للوهلة الأولى وسط كل ذلك كان القبح المطلق والاستثنائي للبيئة المحيطة بكل ما فيها. تفاوت تلك المعسكرات منعدمة اللون كان حقاً قبيح. على الجانب البعيد من الميدان كان يوجد شارع مفتوح، محاط بصفوف مزدوجة من الأكواخ المتوازية، ممتدة على طول مساحة الشارع. كانت مشابهة بشكل غريب لبدلات النساء بل بدرجة أكبر، نظرت إلى غسق يناير المبكر المقابل لخلفية الثلج المتسخ الذي يغطي الميدان. معاً حملوا انطباع بتعارض مطلق لأي شئ كان يحمل معنى الجمال يوماً.

المزيد والمزيد من النساء كنّ يظهرن. كان يظهر بشكل واضح أنهن عائدات من العمل، يسرن في مجموعات – عادة كل خمس منهن معاً. ولكن أيضاً كان هناك آخريات يسرن بمفردهن بينما كن يعبرن الميدان إلى الثكنات. كان بينهن صغار السن وآخريات كبار، صغيرات الحجم وآخريات ضخمات، بعضهن يتحركن بسرعة شديدة، وأخريات يجرجرن أقدامهن المرهقة من خلفهن. كلهن ألتفتن لينظرن الينا، ولكن لم يقترب أحد منهن. على كل حال، الحارسة مع كلبها البوليسي كانت تقف في الجوار ولم تكن لتسمح لأحد مهما كان أن يعبر. الآن وقد استطعت أن ألق نظرة أقرب إليهن، أستطيع أن أرى اختلاف وتعدد واضح في بدلاتهم. كان أكيداً أن كل ستراتهم كانت تحمل رقما مخيط على الجانب

الأيسر، ولكن أعلى ذلك الرقم كان هناك أيضاً مثلث ملون. تلك الألوان تنوعت بين الأخضر ، الأسود والبنفسجي، بالإضافة إلى عدد كبير من المثلثات ذات اللون الأحمر. وفوق العديد من من مثلثات -اللون الأحمر، أمكن رؤية حرف "P" أسود كبير. وقد سررت وأنجذبت كثيراً لهؤلاء، أخواتي . واحدة من النساء البولنديات، فتاة شابة ذات شعر منسدل مكشوف، عبرت بالقرب منا، وسألت بعجالة: "هل يوجد أي بولنديات هنا؟"

رددت عليها: "نعم يوجد"

فقالت: "أصمدي، فإنه ليس سيئاً تماماً أن تكوني هنا" ثم سارت بسرعة.

فكرت مع نفسي في هذا، إن كانت الروح المعنوية جيدة هكذا، فإن الوضع ليس سيئاً على الإطلاق.

وفي وقت آخر كان هناك فتاة أخرى، رشيقة وذات أسلوب مرح، قررت أن تقوم بزيارتي، بعد أن سمعت أول كلماتي بالبولندية.

"لو أحضرت معك أي طعام، فمن الأفضل لك أن تأكليه كله دفعةً واحدة، وإلا فسوف يأخذونه منك!"

سألتها: "منذ متى وأنت هنا؟"

أجابت: "ثلاث سنوات" ثم سارت مبتعدة وهي تضحك. مع دخول أول خمسة مسجونات منا إلى المبنى الخاص بهم كان الظلام قد خيم على المكان. والأمل في أننا لن نضطر إلى الإنتظار طويلاً حتى يأتي دورنا ساعد في تدفئتنا، ولكن بعد فترة وجيزة كنا قد تجمدنا حتى النخاع، تم النداء على أسمائنا. وبعد مجموعتين أو ثلاث من المجموعات التي تتقدمني كان هناك امرأتان أوكرانيتان، واحدة منهن كانت تسمى "أجريبانا" والأخرى كان أسمها "كلوديا". تأملت مع نفسي، فوجدت إنها طريق طويلة تلك التي أجتازتها تلك السيدتان، من إمبراطورية روما إلى القسطنطينية، ثم من هناك عبر الكنيسة اليونانية إلى أوكرانيا، ثم الآن إلى هنا لينادى اسميهما بصوت مرتفع في رافينسبورك، فورستنبورغ، ميكلنبورغ. على الأقل، فقد وصلوا إليّ. وتم إدخالي إلى ما يشبه مكتب المقر الرئيسي.

وهناك سألتني امرأة، كان واضحاً أنها تمثل الظابط المسئول، سألتني عن اسمي وتاريخ ومكان ميلادي. وكان هناك أحدى السجناء تجلس إلى ماكينة خياطة، وكان على سترتها حرف ال "P" فوق المثلث الأحمر، نظرت إليّ بعداوة واضحة حتى سُئلت عن جنسيتي. ومع سماع جنسيتي، أضاء وجهها على الفور.

ومن المكتب، أمرت أن أذهب إلى غرفة ضخمة لتبديل الملابس، وهناك وتحت إمرة حارسة أخرى، قامت سجينتان ألمانيتان بالبدء في العمل عليّ، بسرعة تستحق الإعجاب، أخذوا مني كل شئ كان معي ووضعت في يدي ورقة، كُتب عليها رقم 16076. بعد ذلك، أمرت أن امضي قدماً إلى مقصورة صغيرة حيث قامت سجينة أخرى بنزع ملابسي تحت مراقبتها الشديدة. وقد وجدت الموقف بالأحرى مضحكاً.

وأخيراً، صرخت السيدة الألمانية: "أنت بولندية".

فوجئت بذلك بعض الشئ، وسألتها كيف عرفت ذلك؟ فقالت: "أنا ألمانية، وقد قضيت هنا أربعة سنوات بالفعل، وخلال مثل تلك الفترة من العمل تتعلمين كيف تستخدمين نظرك وخبرتك في التعرف على الاشياء والاشخاص، ونحن نعرفكم أيها القوم، أنهن فقط البولنديات اللاتي يسرن هنا مرفوعات الرأس، وتبدون مبتهجات".

ياله من استقبال بالطبع، فإن ما حدث أعطاني الشجاعة كي احتفظ برأسي مرفوعاً قليلاً. ولكنني توقفت عن الظهور مبتهجة. على أية حال، فقد أمرتني أن اجلس، وتسلحت بمقصات كهربية لحلاقة الشعر، معدة نفسها للتدقيق في نظافة رأسي. أما عن صاحبتيَّ في الزنزانة بسجن "ألكسندربلاتز" فقد كانتا تعانيان من القمل، ولكنني لم أحب فكرة أن يتم حلق شعر رأسي بالكامل. بطريقة ما فقد تم إنقاذي من تلك العملية، وهربت من "الكرسي الكهربائي".

بعد ذلك، تم إرسالنا إلى القاعة الرئيسية، حيث كان العديد من رفاقي ينتظرون بالفعل. وهنا أخبرونا أن نتجرد من ملابسنا بالكامل وأدخلونا تحت دُش الاستحمام، والذي أجبرنا بدوره على أن نبلل شعرنا كذلك. بعد هذا الاغتسال المضجر بشكل مبالغ فيه، وأجسادنا مازلت رطبة، تم عرضنا على اثنين من أطباء "سرب الحماية الموسمية"، واللذيّن كانا يراقبان المسيرة العسكرية لنا وهم يدخنون السيجار. ثم أرتدينا ملابس المعسكر (ثياب خاصة بالعمال وقباقيب غريبة) ثم تم إلقائنا مرة ثانية إلى الساحة وأمرنا أن نكون مجموعات خماسية. وفي هذا التوقيت، كان الظلام دامساً والجو بارد بشكل لايطاق. في الظروف العادية، فإن التعرض إلى هواء بارد لدرجة التجمد بهذا الشكل مع رأس مبتلة، مع ارتداء فقط سترة خفيفة بعد حمام ساخن قد يكون كافياً لتصاب بإلتهاب رئوي حاد. أما في رافينسبروك، فبطريقة ما كان كل منا بالكاد يشعر بالبرودة.

هذه المرة وقفنا في صفوف وقامت بتنظيمنا فتاة صغيرة السن، جميلة المظهر، بالغة الطول، سمراء بولندية مع شارة خضراء على ذراعها الأيمن. وبينما نحن نتحرك للأمام، كانت تسير إلى جانبي.

همست إليّ قائلة "مباني السجينات البولنديات تعرف بالفعل إنك وصلت"، "الأخبار وصلت الجميع بجولة واحدة".

وهنا كنت في حالة أكبر من الاندهاش.

وأكملت مخبرتي الصغيرة: "نعم، بالفعل، حتى قبل أن تصل الترحيلات الجديدة إلى الحمامات، كنا على علم تام، السكرتارية أخبرتنا. الكاتبة، التي دونت المعلومات الخاصة بك، ذُهلت في البداية لأنك تحدثت الألمانية بطلاقة. ظنت أنك مواطنة ألمانية. وعندما سجلت بياناتك كبولندية المولد والجنسية، كان ذلك الشك مطروداً من تفكيرها وعندها أخبرتنا جميعاً أنك وصلت، من الممكن ان تقابلي بعض الأشخاص هنا تعرفينهم. ماعدا ذلك، فإن وصول سجينة سياسية هو حدث مهم بالنسبة لنا فقط. فقد مرت فترة طويلة منذ أن جاء إلينا سجينة سياسية. متى غادرت بولندا؟ ليس قبل نهاية نوفمبر؟ يا إلهي – جميل أن اعرف أنك كنت في بولندا حديثاً إلى هذا الحد! فنحن عالقون هنا منذ سنة، اثنتان أو ثلاثة سنوات. ولكن كما ترين، فإن أدائنا ليس سيئاً جداً! ألست مندهشة أننا في هذه الحالة من طيبة القلب وصفاء السريرة والحالة المعنوية المرتفعة نسبياً؟"

في هذه اللحظة توقفنا خارج أحد المباني وبدأنا في الدخول. وفي المدخل كانت تقف امرأة كبيرة السن ذات بنية ثابتة، وكانت أيضاً ترتدي شارة خضراء، والتي قامت بإحصاء عددنا.

"هذه هي كيتكوفسكا، قائدة هذا المبنى. وأنا مشرفة الغرف. أنا مسئولة عن نصف المبنى، وذلك يمثل كوخ واحد، أما مشرفة المبنى فهي مسئولة عن المساحة كلها"

ذهبنا إلى الداخل ومعنا مشرفتي الغرف والمبنى وقاموا بتوزيعنا على الأسرة الخاصة بنا والتي كانت على شكل سرير مكون من ثلاث طوابق، بعد ذلك تم إعطاء كل منا خبز وبعض الحساء.

وفجأة، همست إليّ مياتكا مشرفة الغرف: "فقط تسللي بهدوء إلى خارج المبنى، هناك من ينتظرك بالخارج"

وتماماً عندما خرجت، فجأة شعرت بشئ خفيف يلتف حول عنقي وسمعت شخص ما ينتحب بصوت خافت. "سيدتي المحاضرة! إنه لمن الرائع أنك أتيت إلى هنا".

فانفجرت ضاحكة.

فصححت الفتاة كلماتها قائلة: "لا، لم أقصد ذلك"، "لقد استئت كثيراً عندما علمت إنك في المعسكر، ولكن سعيدة بشكل رهيب لرؤيتك مرة ثانية. لقد كنت أعيش في إيفوف، في بيت الطلبة، عندما كنت أنت مشرفتنا. ياللسماء! لقد كان ذلك منذ فترة بعيدة جداً".

سألتها: "لماذا أنت هنا؟".

أجابت: "قضية سياسية خطيرة. ولكنها لاتشكل فارقاً. يوجد العديد من الأشخاص بمثل هذا الحال... بماذا يفيد أن يزدادوا واحداً أو ينقصوا؟ وعلى كل حال، فيوماً سأحدثك عن كل ما يخص هذا الأمر."

ثم أطلت مشرفة المبنى من الباب وهمست لنا: "من الأفضل أن تفترقا، فإن المراقبة بدأت في جولتها التفقدية."

تبادلنا القبلات، ثم أختفت الفتاة في سواد الليل وعدت أنا إلى المبنى. وبعد عودتي بدقيقتين وصلت المراقبة. ثم صاحت مشرفة المبنى بصوت جهور: "انتبـــاه" فوقفنا جميعاً. وفي المدخل كانت تقف طفلة في الثانية والعشرين من عمرها تقريباً، صغيرة الحجم والسن، تضع مساحيق تجميل بكثافة، ذات شعر أشقر مجعد للغاية وترتدي زي ميداني رمادي اللون.

أعلنت مشرفة المبنى العدد الكلي لسجينات المبنى وعدد الوافدات الجدد. أصغت المراقبة التي كان الملمح الوجهي المميز لها هو نقص واضح في الذكاء إلى حد مدهش - أصغت إلى ذاك التقرير، ثم سارت عبر المبنى وفي صحبتها مشرفتي المبنى والغرف. وبدافع الفضول فقد تتبعتهم بخطوات حذرة. يتكون المبنى من قطاعين متماثلين، كل قطاع يحتوي على غرفة طعام و مهجع يسع مائتان من السجينات، غرفة للغسيل ومرحاض. في مدخل المبنى كان يوجد غرفة خدمية صغيرة حيث كانت مشرفة المبني تؤدي عملها.

وعندما غادرتنا المراقبة، دعتني مشرفة المبنى إلى تلك الغرفة الصغيرة. جلست على مقعد مقابل إمرأة لا تكبرني كثيراً، يميزها وجه شديد الحمرة ومفعم بالحيوية. احتوت عيناها قدر هائل من الحماسة. قامت بتعريف نفسها قائلة: "إليزا سيتكوفسكا". ثم وجهت سؤالين قصيرين وحادين عني. ثم سألت عن الحالة المعنوية في بولندا وما إذا كان البولنديون قد علموا بشأن "رافنزبروك".

"هل يعلم الناس في بولندا عن عمليات الإعدام و(الأرانب)؟"

نظرت إليها في ذهول.
فقالت: "إذا كنت لا تفهمين ما أقول، فإن ذلك سئ، سئ جدا. فهذا يعني أن الشعب في بولندا لا يعلم أن النساء البولنديات -وفقط البولنديات- يتم إعدامهن هنا رمياً بالرصاص لقضايا النشاط السياسي. وعلى نفس الغرار، فإن النساء البولنديات فقط يتم إستخدامهن كفئران تجارب (أرانب) للأبحاث الطبية. يأتي إلى هنا طبيب عظام اسمه أستاذ (جيبهاردت)، يأتي إلينا من مصحة في (هوينلوشين) وهي قريبة جدا، تلك المصحة تنفذ عمليات تجريبية هائلة على النساء البولنديات - السجينات السياسيات فقط. بعض الضحايا قد ماتوا بالفعل. وآخريات (يوجد حوالي ستون منهم) سوف يقضين بقية حياتهن كسيحات. كلهن تقريبا شابات صغيرات السن، وكلهن عندهم ندب بشعة على أرجلهن."
استمعت إليها وكان واضحاً إنني أصدق كل ما تقول، ولكنني لم أستوعب بعد.
مشرفة المبنى كان لديها شئ أخر لتخبرني به.
"لا أستطيع أن أخبرك عن نوعية تلك العمليات بالظبط وعن ماهيتها، ولكن على ما يبدو فإن هناك أنواع متعددة. صحيح إنني اعمل كممرضة، ولكن لا يتم إخباري عن هذه النوعية من العمليات بشكل كامل."
وبينما نحن نتحدث، دخلت ثلاث سيدات خلسة من المباني الأخرى لإلقاء نظرة على الوافدة الجديدة و لمعرفة أخر الأخبار عن الوطن.
"ليست عندك فكرة عن أهمية الحدث بالنسبة لنا، لقد مر زمان طويل منذ أن أتى إلينا سجينة (سياسية) بولندية."
فقلت لها: "ولكنني كنت أظن أن كل النساء المحتجزات في معسكرات الاعتقال هن سجينات سياسيات،" "فلا يبدو أن هناك نوع أخر من السجينات هنا."
وقد أثارت هذه الملاحظة انفجارا من الضحك لكل المتواجدين في الغرفة.
"سوف تحتاجين لمراجعة رأيك بشكل جذري شامل في هذه المؤسسة التي تزورينها. في حقيقة الأمر، الدفعة التي وصلت معها إلى هنا، لم يكن هناك سجينة واحدة تم إرسالها إلى هنا بسبب الاتهامات السياسية الموجهة إليها إلا أنت فقط، وكان يوجد زوج من الأوكران للتعامل مع العامة الألمان، وزوج من الألمان للتعامل مع العامة البولنديين، اثنتين من القابلات

المولدات (الداية)، وزوج من العاهرات والبقية كلهن سارقات. نحن أقلية وذلك هو أقسى ما في الأمر."

ثم قالت مشرفة المبنى وهي تهيئ الزوار للرحيل: "حسناً، أيتها السيدات يجب عليكن الإنصراف الآن، قبل أن يمسكوا بكن مرة ثانية."، وأردفت قائلة: "ويمكننا أن نكمل تدريب متدربتنا الجديدة غداً. إضافة إلى أن نداء الأسماء وحده سوف يعلمها شئ أو أثنين. والآن، هيا إلى النوم."

تسلقت إلى سريري ذو الطوابق بالطبقة الثانية وسقطت في نوم عميق مثل لوح خشبي.

ولم أتحرك حتى فزعني صوت مشرفة المبنى الجهوري وهي تصيح: "انتبـــاه!". لقد كانت الساعة السادسة صباحاً. ارتديت ملابسي، وتناولت قهوتي مع الخبز وتحضرت لطابور النداء. وقد كان علينا أن نمر في استعراض عسكري أمام المبنى. كان الوقت قد قارب على الفجر عندما قام مشرفي المبنى والغرف (والذين كان عددهم كلهم أربعة) - قاموا بتنظيمنا في صفوف تعداد الصف الواحد عشرة أشخاص. ثم بدأن في إحصاء عددنا، متدافعين جيئة وذهاباً في عملية كان واضحاً أنها ليست سهلة على الإطلاق. وفي النهاية، اتفقوا على العدد الكلي وذهبت مشرفة المبنى إلى مقدمة الصفوف حيث كانت تتواجد السكرتارية لتقدم تقريراً بالعدد. وفي هذه الأثناء، كنا نقف في ثبات وصمت. وبالتدريج أصبحت الأجواء أكثر إشراقاً. وأخيراً عادت مشرفة المبنى ومعها المراقبة وصاحت في الطابور لكي ننتبه قائلة: "انتبـــــاه"! قام الألمان بمراجعة عددنا الكلي ثم ذهبوا بعيداً، تاركينا واقفين كما نحن في ثبات وصمت. حينها همست لي السجينة التي كانت تجاورني بأن الأعداد الكلية لجميـــع المباني يجب مراجعتها والتأكد من صحتها الآن، وفقط عندما يتم اعتماد كل الإحصاءات سوف تنطلق صفارة الإنذار. وسوف يستغرق ذلك وقتاً طويلاً إلى حد كبير، وقد كان بالفعل.

كانت السماء تتشرب بالحمرة على يميننا. لذلك علمت أن ذاك هو الشرق وفي هذا الاتجاه تقبع بولندا، وبينما نحن مازلنا على وضعنا واقفين. بدأت انظر وأتأمل الوضع من حولي. على الشمال، وبين المبنيين خاصتنا، رأيت فاصل من جدار مرتفع يوجد أعلاه ست وعشرون من جدائل الأسلاك الشائكة. وكانت العازلات الخزفية تنتشر على مسافات فاصلة، وقد بدأت في السطوع بإضاءة بيضاء خـفيفة، إشـارة إلى شـحنة الجـهد العـالي التي تمر الآن عبر

الأسلاك...

وإلى جانب الجدار كان هناك خط رفيع من (منظر طبيعي) يمكن رؤيته، منحدر رملي ذو لون أصفر شاحب مع بعض أشجار الصنوبر الهزيلة.

كنا مازلنا نقف كما كان الحال منذ بدء اليوم. ومع الوقت كان الجو يزداد برودة، ولكن لم يكن ذلك ما يقلقني. وإنما فكرة أخرى كانت قد بدأت في التذمر بداخلي، أو بالأحرى فكرة كانت في ذهني منذ وقت طويل ولكنها أصبحت الآن أكثر إلحاحا عليّ: "باخ... دورير... هولدرلين... بيتهوفن - كلهم عاشوا وقاموا بأعمال عظيمة وكلهم في حقيقة الأمر، كانوا، ألمـــان. وبدونهم لم تكن ثقافة العالم لتصبح ما هي عليه الآن."

فكرت في الحضارة والثقافة الألمانية، والتي عن نفسي أدين لها بالكثير... والآن نفس هؤلاء الألمان بذواتهم، يوصمون الإنسانية التي ينتمون إليها بالخزي والعار. من الذي يجب أن يوجه له اللوم على ما يحدث الآن؟ لا يمكن لأحد أن يدعي أن كل ما حدث كان بسبب مجموعة قليلة من المجرمين الذين استولوا على السلطة. لم تكن مجرد قضية بعض الأفراد الذين أمسكوا بمقاليد الأمور، هم ليسوا مجرد قلة، ولكنها كانت جحافل منهم... نعم جحافل... كم فرد دبر وأنشأ وأدار سجن مثل رافنسبورك. ونحن جميعاً نعلم أن رافنسبورك هو أحد أفضل وأصغر معسكرات الاعتقال. ففي هذا المعسكر وحده، كم يوجد من الحراس في هذا المكان (رجالاً ونساء)، ناهيك عن ملايين الألمان السلبيين الذين -بمواقفهم اللامبالية- يجعلون هذه الجرائم الغير مرئية ممكن بل ليس ذلك فقط إنما يدعمونها بفعالية؟ يوما ما سيقولون إنهم لم يعرفوا بما يحدث، وذلك سوف يكون حينها صحيحاً بشكل جزئي. فهم لا يعرفون لأنهم لا يريدون أن يعرفوا بل يتمنوا ألا يعرفوا. فهم يملكون إيمان أعمى بنصر يعتزمون استغلاله بكل طريقة ممكنة وبلا محاولة لضبط النفس. ولهذا السبب، فهم يفضلون ألا يعرفوا بأي وسيلة تم تحقيق هذا الانتصار. تلك هي الدوافع الكامنة المخفية لمصيبة الألمان الأخلاقية. لذلك فإن علاقة ما بعد الحرب العالمية مع ألمانيا يجب ألا تكون مشروطة بمشاعر الانتقام أو الكراهية، وأيضاً يجب ألا يُسمح لأي نوع من الوطنية أن يلعب دوراً. فالعامل الوحيد الذي يجب أن يحكم الأمر هو مدى فاعلية حماية الإنسانية من نوازل مماثلة في المستقبل، لنضمن أن الحضارة المسيحية لن يتم إبادتها عن آخرها...

وفجأة، سمعنا صوت صفارة الإنذار. وخلال دقائق معدودة كنا قد عدنا إلى المبنى. وبعد ذلك بوقت قصير رأيت من النافذة مجموعات من النساء يسرن في مشية عسكرية ويغنين. عندما سألت عن معنى ذلك، أخبروني أنهم يطلقون عليهم (الخارجون). هذه المجموعات من السجناء، وتحت الحراسة بالطبع، يتركوا المعسكر كل يوم ويذهبون للعمل في خارجه وتوجه إليهم الأوامر ليتغنوا بأغاني ألمانية أثناء سيرهم. لدرجة أن بعض المجموعات تسافر لمسافات كبيرة جدا بالقطار في الصباح، وتعود إلى المعسكر في المساء. وتتكون هذه الفرق بشكل أساسي من عمال المصانع، أما في الصيف فيوجد أيضا عمال زراعيين، والذين كان أدائهم مفيد للغاية فيما يخص كسب المزيد من الطعام، فهم يعملون في منشآت أكبر في المنطقة، والتي يملكها "هيملر".

ثم أردفت مخبرتي قائلة: "إلى جانب أن (الخارجون) نافعين جدا لنا، فهم أيضا على اتصال بالعالم الخارجي، فهم يتابعون باستمرار أخبار الراديو، حتى أنهم في كثير من الأحيان يسلمون الخطابات ويجمعونها. بالطبع كل ذلك في غاية الخطورة، ولكن بدون تلك الأشياء فإن الحياة تصبح أسوأ جدا."

وبعد وقت قصير، جاءت مشرفة المبنى وأخذتني معها إلى مكتبها الصغير.

"يجب الآن أن نفكر ماذا سنفعل معك. وقبل كل شئ، يجب أن نحاول أن نمنع ذهابك إلى سيمينز."

فسألتها: "ما معنى هذا؟"

"هذا يعني العمل في مصنع ذخيرة -أحدى المنشآت التابعة لمجموعة أعمال سيمينز- ليس بعيداً عن المعسكر. ولكن الأمر لا يقتصر على مصنع الذخيرة، فهناك أيضاً مصانع القماش وورش الخياطة حيث يتم إنتاج الأزياء الموحدة للسجن - سوف تجدين كل ذلك بغيضاً. فهو يعني أنك ستقومين بمساعدة مباشرة للجيش الألماني. ولكنك تعرفين بعض اللغات. لذلك فبعد فترة من الوقت، يمكن أن تحصلي على شارة قيادة خضراء. وحينها ستصبحين مشرفة غرف. في بعض الجوانب يمكن اعتبارها وظيفة كريهة للغاية. ولكن على الأقل لها جانب يمكن أن يرضيكِ: فسوف تتجنبين العمل (لديهم) وسوف تصبحين قادرة إلى حد كبير على مساعدة السجينات. مشرفة المبنى بإمكانها ترشيح شخص ما لمقابلة كمشرفة غرف. وغالباً تكون المحاولة ناجحة. حتى الآن، أنت لست تحت أي تهديد - مادمت هنا في

الوافدين الجدد. ربما يمكنك مساعدتي، فهناك الكثير من العمل هنا."

وكانت واحدة من أولى مهامي هي أن أقوم بتوزيع وخياطة الأرقام والمثلثات الخاصة بباقي دفعتي من السجناء. كان المطلوب خياطة المثلثات أعلى الرقم على الجانب الأيسر من صدر السترة وعلى الذراع الأيسر للكنزة. قامت السكرتارية بإصدار قائمة بأسماء سبعين من النساء مرتبة أبجدياً، مع أرقامهم مطبوعة على بطاقة من قماش وكذلك مثلثات بألوان مختلفة. المثلثات الحمراء بدون حروف كانت تشير إلى (السجينات السياسيات ألمانيات الجنسية). وبين السجينات اللاتي تسلمن المثلثات الحمراء كانت هناك فئة قليلة، كما أخبروني بأنفسهم، فئة أصبحت على علاقة حميمة مع البولنديات. أما المثلثات الحمراء المصحوبة بحرف "U" أو "R" كانت تُعطى للأوكرانيات والروسيات على التوالي وفقاً لعلاقة الصداقة بينهم وبين الألمان. واحدة منهن أحدثت جلبة كبيرة، معبرة عن اعتراضها على الحرف الذي سلمته لها وكانت تقول أنها يجب أن تحصل على الحرف U وليس الحرف R – أو العكس؛ لا أذكر أيهما. وفي نفس الوقت كنت قد تلقيت الحرف P ورقم 16076.

المثلثات الخضراء كانت للقابلات وبعض الألمانيات. وإلى جانب أسماءهن المكتوبة بالقائمة كان يوجد حرفي "BV"، اختصارا للمصطلح الألماني "مجرم محترف"-. أما الحرفين "AS" بجانب أي اسم فهما إشارة إلى "المُعادين للمجتمع" وتم تصنيفهم بالمثلث الأسود، والذي كان من نصيب العاهرات والغجريات. وأخيـــراً، الحروف "IBV" أو (رابطة دارسي الكتاب المقدس)، كانت تشير إلى مجموعة من طلبة يدرسون الكتاب المقدس والذين تم تصنيفهم بالمثلث ذو اللون البنفسجي، تلك المجموعة كان يحظى أفرادها بدرجة عالية من الاحترام والتقدير وذلك لأمانتهم. أما شهود قضية "جيهوفا" فقد وجدوا أنفسهم في المعتقل بسبب اعتراضهم القائم بدافع الضمير على قيام الحرب بشكل عام. أمثال هؤلاء لابد وأن يجدوا أنفسهم منبوذين عندما يعيشون في مجتمع استبدادي متسلط، وفي المعتقل كانوا يعملون إما كعمال نظافة أو في المغسلة أو أنهم كانوا يتبادلون النميمة بكل بساطة. في المواقف الخطيرة وفي العراك كانوا يُظهرون قدر لا بأس به من الشجاعة وكذلك تعصب خاص لأصحاب الطوائف المختلفة – في النهاية فقد كانوا يستحقون الإعجاب المطلق من الجميع.

في أثناء عملية منح المثلث الأسود لاثنتين من المسجونات الغجريات، أم ومعها ابنتها، سألتهم كيف وصل بهم الحال إلى "رافينسبروك".

ردت الأم قائلة: "ماذا تعني بكيف وصلنا إلى هنا؟".. "لأننا غجريات، وماذا يكون السبب غير ذلك! ألا تعلمين أن كل الغجر يتم حبسهم، بغض النظر عن انتمائهم لأي قبيلة، ألا تعلمين أي شئ عنا؟ قبائلنا اشتهرت بحرف معينة. ونحن ننتمي لواحدة من أعلى القبائل وأفضلها. فنحن تجار أحصنة."

سألتها: "وماذا تصنع قبائل الغجر الأخرى، أقصد ما هي حرف القبائل الأخرى؟"

فردت علي: "القبائل الأخرى؟!! لا تحدثيني عن هؤلاء، فكلهم مجموعة من الأوغاد".. قالتها ثم لمعت كل من عينيها وعيني ابنتها بكم كبير من الكراهية والاحتقار.

لكنني أردت أن أعرف حقاً إجابة سؤالي، فأعدته عليها مرة أخرى: "ولكن ما الذي تفعله قبائل الغجر الأخرى فعلياً؟"

تمتمت بغيظ قائلة: "يلعبون على الكمان فحسب..". ندمت لعدم وجود أياً من "كرايسلر" أو "منوهين" ليسمعوا هذه الكلمات.

في هذا المساء، وبعد مناداة القائمة الثانية، أخيرا أتت نهاية اليوم للبعض، بينما كانت تلك بداية الوردية الليلية للبعض الآخر. فجأة انطلقت صفارات الإنذار وتم إطفاء كل كشافات النور. كان ذلك إنذار غارة جوية! لن أنسى ما حييت تلك المرة الأولى التي عشت فيها مشاعر إنذار الغارة الجوية، سمعت صوت الطائرات وهي تحلق فوق المعتقل، تملكتني حينها يقظة مفاجأة أن تلك الطائرات المحلقة فوق رؤوسنا تقاتل حلفاؤنا، أصحاب النصر في المستقبل القريب. في هذه اللحظة بالتحديد لم أعد أشعر بإحساس الهجر اليائس الذي كان هو العلامة المميزة للحياة في معسكر الاعتقال. مشرفة المبنى لم تذهب للنوم في تلك الليلة وسمحت لي بالجلوس إلى جانب النافذة في الظلام، استمع إلى صوت الانفجار. حيث أنه طبقا لآخر الأوامر الكتابية المنشورة، فإن كل من مشرفة المبنى ومشرفة الغرف ممنوعتان من النوم أثناء الغارات الجوية، بل علي كل منهما أن تقف قريباً من الرواق وإلى جانبها مجرفة ودلو وصندوق ممتلئ عن أخره بالرمال. أما السجينات فكان عليهن أن يذهبن إلى النوم في هدوء، أو أن يقمن بارتداء ملابسهن في حالة تعرض المعسكر للقصف. إما عند سقوط قنبلة فعلياً على المبنى، فإن مشرفة

المبنى عليها -حينئذ- أن تقودهم إلى الفناء في مجموعات مكونة من خمس سجينات.

بينما كانت مشرفة المبنى تنقل لي تلك التعليمات وكيفية تنفيذها حرفيا بالألمانية، فجأة قطعت حديثها في منتصف جملة. ولكنها سرعان ما عاودت الكلام قائلة: "يجب أن تكوني حذرة إلى أقصى درجة حين تأتي (هانزي) بالقرب منا، فهي تمثل المشرفة المفوضة (ذات الشارة الخضراء) بالنسبة لي ووظيفتها هي مراقبتنا وكتابة تقارير بكل شئ تراه وتلاحظه. إنها الصديقة المقربة ل (ماريانا)، واحدة من كبار مشرفي المعتقل والتي مُنحت الشارة الخضراء أيضاً. كلاهما من "فيينا"، وكل واحدة منهم لديها العديد من الإدانات السابقة، بل وتحملان الكثير من المسئوليات مع مسئولي المعتقل، خاصة عندما يأتي الأمر عند تقديم تقارير عن السجينات البولنديات. من بين جميع الشخصيات المسئولة عن المعتقل لا يوجد أحد إطلاقا له قدرة تنظيمية ضئيلة، لذلك فجميعهم بلا استثناء يعتمدون على مجموعة من المجرمين الذين يتسمون بالدهاء الشديد والعنصرية الواضحة في حديثهم وتصرفاتهم وينتمون في المقام الأول إلى "الهيرنفولك"، لذلك فإنه ليس شئ مؤذي إن استمعتِ إلى نصائحهم، حيث أنهم لهم نفس المستوى الثقافي والمعلوماتي لسلطات المعتقل، ولكن من الضروري ألا تستحضري مشاعر الدونية والتي تعاني منها سلطات المعتقل كثيراً في علاقتهم بالسجينات البولنديات"..

"بالطبع، فإنه من الواضح أنني أتحدث هنا عن البولنديات الذين سُجنوا في قضايا سياسية فقط، وليس هناك الكثير من هؤلاء هنا. الغالبية العظمى هنا تنتمي إلى النوع الآخر. لسوء الحظ، عندنا هنا عدد لا بأس به من البولنديات ذوي الشارات (الخضراء) و(السوداء). هؤلاء هن نساء عاملات تم ترحيلهن إلى ألمانيا ثم القبض عليهن بسبب تهم منافية للأخلاق، أو بمعنى أوضح بسبب جرائم سرقة أو جرائم أخرى تافهة. هنا، ولحظنا العسر، يتم منح المثلثات الحمراء لهؤلاء النساء لأنهم في الأساس تم ترحيلهم ليعملوا في ألمانيا كبولنديات. كنتيجة لذلك، فسوف تجدي العديد من السجينات البولنديات هنا في معسكر الاعتقال، ولكن في حقيقة الأمر هم عبارة عن تشكيلة مختلطة كبيرة من مختلف الجنسيات. أكثرية هؤلاء النساء، أقل ما يقال عنهن، أنهن نساء ليس لديهن الكثير من المبادئ في حياتهن. والعديد منهن عبارة عن مجرمين مبتذلين. رغم كل ذلك، بين كل تلك التصنيفات المتشعبة، عندنا هنا نساء وفتيات على أعلى

مستوى أخلاقي من النزاهة واللائي أتوا إلى السجن من أجل مجد بولندا. غالبيتهن من المقاطعات الغربية المجاورة لألمانيا، وكذلك من "وارسو" نفسها.

في تلك الليلة، بدأت وللمرة الأولى أدرك المعنى الحقيقي لكوني في معسكر اعتقال. الشيء المثير للضحك والسخرية الآن، هو أنني فكرت للحظة أن الوضع لن يكون مختلف كثيراً عندما أحيا بين مجموعة كبيرة من النساء من جنسيات مختلفة ومتنوعة، والذين كنت أظن أنهم جميعا تم إرسالهم إلى هنا لأنهم خصوم وأعداء لهتلر. في الواقع، لقد كان الأمر مختلفاً تماماً وكلياً. هنا، نحن نعتمد على علاقاتنا بالمجرمين سواء كانت جيدة أم سيئة، والذين بدورهم يتملقون سلطات المعتقل عن طريق تزويدهم بتقارير متجددة عنا. مثل تلك التقارير تكون السبب الرئيسي في إلقاء القبض على أي من السجينات وحبسها في ما يسمى ب (القبو) وهي غرفة محكمة التحصين تحت الأرض. كنت اعتقد في البداية أنه عندما يصل المرء إلى مرحلة الحبس في معسكر اعتقال فإنه -على الأقل- تكون مرحلة (القبض عليه) قد انتهت وتمت بالفعل. تلك المرحلة بعينها، كنت أظنها انتهت، ذلك ما افترضته.

لكـن الحقيقة فقد كانت العكس تماماً. عند التعامل مع أي جريمة أو اتهام، فإن السجين يتم حبسه في زنزانة مظلمة داخل مبنى ضخم معروف رسمياً باسم (مجمع الزنازين)، المبنى الوحيد داخل المعسكر المحاط بسور. عندما وصلت إلى معسكر الاعتقال، علمت بشأن ذلك المبنى من السجينات الأخريات، وكان ذلك في اليوم التالي لوصولي بعد أن كنت قد لاحظته في اليوم الأول. بداخل هذا المبنى يوجد طابق طويل ومنخفض جداً تحت الأرض، تم حفره بعمق يكفي لكي يستحق لقب (القبو). كان هذا المبنى مُحاط بسياج كبير، ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر بوابة خاصة. المسئول عن هذا المبنى كان يُدعى "رامادور"، سياسي مُفوَّض والذي يمتلك تحت تصرفه كل الوسائل المطلوبة لإجراء الاستجوابات لسجينات المعتقل (أدوات التعذيب، العقاقير والمخدرات.... إلى آخره). كل تلك المعلومات التي كنت أجمعها نهاراً، كان لدي ما يكفي من الوقت لأفكر فيها واستوعبها ليلاً؛ حيث أن حالتي الصحية طالما أبقتني متيقظة.

الدفعة الجديدة التي وصلت إلى المعتقل أحضرت مجموعة من الفتيات الألمانيات صغيرات السن، أعمارهن لا تزيد عن ١٨ عام. كان المفترض أن تلك المجموعة من السجينات ستبقى معنا

لأيام قلائل إلى حين الانتهاء من المباني الجديدة التي يتم إنشائها بالقرب من مقر حبسنا بالمعتقل والتي كانت تشيد فيما يسمى بـ (معتقل الشباب). افترضت أن هؤلاء الفتيات لابد وأن يكونوا من مناهضي "هتلر"؛ ولذلك السبب تم إرسالهم إلى هنا. في تلك الليلة، وبينما أنا جالسة في مكتب مشرفة المبنى، قامت هي باستدعاء مجموعة من الفتيات الجدد، لكي تسألهن عن سبب إرسالهن إلى "رافينسبروك". دخلت الفتيات الواحدة تلو الأخرى، وبعد الاستماع إلى أربع أو خمس فتيات منهم، قامت مشرفة المبنى بإيقاف الاستجواب. كانت كل واحدة من هؤلاء الفتيات يبدو عليها السرور وغالباً كلهن مبتسمات أثناء الإجابة عن أسئلة مشرفة المبنى، كانت الواحدة منهن تبتسم بشكل واضح وهي تسرد (أعمالها البطولية)، والتي كان أكثر ما تكرر منها في أجوبة السجينات هو (سفاح المحارم).

في نفس تلك الليلة، وبعد وقت قليل، نادت امرأة بولندية على مشرفة المبنى، كان من الواضح أن لديها أمر ضروري لتبلغها به. بعد أن غادرت الشابة البولندية أبلغتني مشرفة المبنى بما أخبرتها به: "الفتاة التي كانت هنا منذ قليل هي عاملة نظافة في (القبو). أتت لتخبرني أن هناك زنزانة مجهزة بسرير ذو مفارش بيضاء وزهور في انتظارك. اسمك مدرج بالقائمة تحت تصنيف (سجين استثنائي) – وهذا يعني أن السجين من هذا النوع يجب منحه معاملة خاصة. إنهم ينتظرون وصولك من "برلين"، وكان من المفترض أن يتم نقلك إلى هنا بطريقة استثنائية أيضاً. لكن مع حالة الارتباك المعتادة التي تصيبهم، فإن المسئولين في "برلين" أرسلوك إلى هنا مع اللصوص بطريق الخطأ، والسلطات هنا مازالت في انتظار وصولك."

سألتها: "لكن لماذا يجب أن يتم وضعي في (القبو) مرة ثانية؟"

"في هذا التوقيت، لا يبدو الأمر على أنه نوع من العقاب، ولكنها فقط مسألة رغبة في عزلك أو فصلك عنا –نحن بقية السجينات– وذلك حتى تتلقى معاملة أفضل. هناك في القبو، ستحصلين على طعام قوات الأمن الخاصة –أي طعام مميز– مختلف تماماً عن طعامنا نحن المكون من اللفت وحساء الكرنب والبطاطس. غداً ستأتي عاملة النظافة مرة ثانية لتسأل ماذا يجب أن تخبر السلطات؟ هل تخبرهم بوصولك أم لا."

أصابني الرعــب. بعد العديد من الشهور قضيتها في الحبس الانفرادي، كنت استمتع بالتواصل مع أخواتي السجينات حيث

سمحت لي تلك (الحرية) -إن جازت التسمية- بأن أتجول حول المبنى بل سمحت لي أن أتجول حول المعتقل بشكل عام، فهل أعود إلى (القبو) مرة ثانية!! توسلت إلى مشرفة المبنى ألا تخبر أحداً عن الأمر وعن وصولي إلى المعتقل وأن تخبر عاملة النظافة أن اخر شئ اريده هو أن يتم العثور علي.

في هذا الوقت، كان من المقرر أن تمر مجموعة السجينات التي أتيت معها بالفحص الطبي المبدئي والذي كان يتم في غرفة الفحص العام. عندما حان دوري لأمر بالفحص الطبي، وتم عرضي على الطبيبة المسئولة، فما حدث كان فظيعاً، حالة بشرتي وهي ممتلئة بالجروح والندوب والتقرحات جعلت الطبيبة في حالة من الغضب الشديد، السيدة "أوبرن هاوسر"، صاحت في وجهي بسبب ما أطلقت عليه (إهمال مقزز لقروح الجرب). حينها أخبرتها أنني قد تلقيت العلاج لمرض أصاب الأعصاب ولكنني لم أتلق علاجا لتلك القروح، فصرخت فيّ بصوت مرتفع قائلة: "أغلقي فمك تماماً، يالك من إنسانة مهملة."

حين غادرت غرفة الفحص، اقتربت مني امرأة صغيرة السن ترتدي سترة تحمل حرف "P" وهمست في أذني لأتبعها. ثم قادتني إلى رواق طويل وأنا أتبعها، وأخيراً توقفت وقالت: "بسرعة، فلا يوجد أحد من الألمان هنا الآن، تعالي معي إلى الغرفة إلى يسارك، فهناك يحتفظون بـ (الأرانب) الذين تم أجراء التجارب عليهن مؤخراً، يجب عليك أن تري ما يحدث بنفسك. حتى تخبري الآخرين عن الوضع هنا حين تخرجين من هنا حية، فأنتِ تعرفين الكثير من الشخصيات المشهورة والناس يعرفونك أيضاً وسوف يصدقون كلامك. هيا الآن."

دخلنا إلى غرفة صغيرة ووجدنا فيها خمس فتيات صغيرات في السن نسبياً، كل منهن نائمة على سرير صغير مهمل. أخبرتهم مرشدتي أنني أتيت مؤخراً من بولندا، فنظروا جميعاً إليّ ولكنني وقفت صامتة فلا أدري ماذا يجب أن أقول في مثل هذا الموقف!! أقربهم إلى باب الغرفة كانت أصغرهم سناً، وأيضاً كان يبدو عليها أنها أكثرهم إرهاقا، فتاة صغيرة، في حوالي العشرين من عمرها، ذات شعر أشقر وجسد نحيل. حاولت أن أخفف عنهم بقولي أن الحرب سوف تنتهي هذا الخريف، ولكن على ما يبدو فإن كلماتي لم تؤثر كثيراً فقد حاولت أحداهن إن تبتسم في وجهي ولكن ملامح وجهها خانتها، فقد كان أكثر ما يبدو عليها هو المعاناة والاستسلام المطلق للإرهاق. طلبت منهم مرشدتي أن يكشفوا عن أرجلهم حتى أتمكن من رؤية آثار عمليات التجارب

التي يجريها الأطباء الألمان على هؤلاء السجينات المساكين. رأيت ندوب وجروح من آثار العمليات والتجارب التي أجريت عليهن، وكل جرح لا يقل عن ٢٠ سنتيمتر، منها ما هو تحت الركبة ومنها ما فوقها. سألتني المريضات عن بولندا، فأخبرتهن عن الروح المعنوية المرتفعة للناس واستعدادهم للتضحية من أجل أحلامهم وتفاؤلهم بانتهاء الحرب قريباً، كنت أقول تلك الكلمات وأنا أعلم جيداً أنها ليست حقيقية، كنت أثق عميقاً في قلبي أن ذلك الحديث ليس صحيحاً. أخيراً أخبرتني مرشدتي أن الوقت قد حان للرحيل وأن الزيارة قد انتهت، وكم كنت سعيدة لسماع ذلك، عندما خرجنا إلى الرواق، قالت لي الفتاة التي صحبتني في تلك الرحلة المأساوية أن (الأرانب) الآن وضعهم يختلف عما سبق، هم الآن تحت العناية ويقوم على رعايتهم بعد العمليات ممرضات منا، وهذا الوضع مختلف بشكل كبير عما سبق، حيث كان يتم تركهم وهجرهم تماماً، ولم يكن مسموحاً لأي إنسان أن يقترب منهم، لدرجة أنهم لم يجدوا حتى الماء ليشربوا.

عدنا إلى غرفة الفحص تماماً في نفس التوقيت الذي كانت تغادر فيه الدفعة الأخيرة في طريقها لتعود إلى ثكناتنا في المعسكر، فانضممت إليهن دون أن يلاحظ أحد. رحلة السير إلى المهجع كانت شاقة للغاية بسبب الجروح التي أصابت قدميّ، فقد كان السير صعباً للغاية

بعد ذلك بقليل تم تعييني مشرفة غرف في مبنى ينتمي للجيش الأحمر، كان المبنى يضم ما يقرب من ٥٠٠ امرأة، معظمهن صغار السن، وأيضاً يتمتعن بلياقة بدنية وقوة جسمانية كبيرة لقد تم القبض عليهن من قبل الألمان في المواجهات مع الجيش الروسي. إنهم منعزلين عن باقي المعسكر ويتلقون معاملة خاصة. لم أكن أعلم أن المعسكر أصبح يحكمه الشيوعيون منذ خريف عام ١٩٤٣ فالسوفيتيين يستقبلون الهدايا أما البولنديين فيلقون معاملة سيئة وهذا ما يحدث أمام الجميع.

لقد كانت معاملة الحارسات غريبة فعندما نكون على انفراد تعاملنا جيداً ثم في وجود الآخرين تتحول معاملتها إلى شكل مختلف لم يكن أحد يثق فيهن ولا حتى هنا يثقن في بعضهن البعض إن معاملة الروسيين مشابهة وكذالك قادتهم فإذا كانت هناك مناقشة بين أي منهم فدائماً ما يكون هناك أحد منهم يتعامل كأنه قائد للمجموعة يقول "لا" ويعارض والباقي يطيعه دون نقاش.

وذات مره كان هناك جماعة منهم يتناقشون وفجاءة جاءت تجاهي إحداهن وسألتني ما هذا الذي تعلقيه حول رقبتك؟" فقلت "إنها صورة الرب: فقالت "إذا لم يكن هو الرب فلما تعلقيه هكذا؟" فقلت كما تعلمين أننا ربما نقتل هنا فإذا قتلوني سأحملها في يدي وأنظر إليها. "ثم قالت" أظن أن الحياة أسهل في وجود هذا الإلهه". ثم انصرفت وكان أصدقائها يقفون خلفها فصاروا سوياً.

وفي يوم كنت ذاهبة لادعوا الطبيب أو الممرضة إلى غيرنا وحيث أنه كان عليها المرور على أحد العنابر بعد ساعة كانت لا تريد المجئ معي ولكنني أقنعتها لذا جاءت ولكن على مضدد وفي الطريق إلى العنبر رأينا ضابطين سلما عليا وقالا إنهم يعلمون أنني إمراءه ممتازة الأخلاق وأنهم يريدون الحديث معي وعندما وصلنا إلى العنبر كانت الممرضة تتعامل بغلاظة ثم أنهت عملها وسلمت على الكل ثم عليا بحرارة وذهبت لقد كان هناك خمس مجموعات من الروسيين قد تظاهروا ضد هتلر لذا تم تفريقهم بين العنابر ومن بينهم مجموعتين أصبحوا معنا في نفس العنبر وكل يوم يرفضون الخروج للطابور فنحملهم ونضعهم في الصفوف الأولى ثم نعيدهم ثانية. وفي يوم كنت أحمل أحدهم وهي امراءة عجوزة لا تريد الخروج فنظرت إلى بشدة فأحرجتني ومنذ هذا الوقت قررت ألا أحمل أحدهم.

لقد كنت أشعر بالسعادة فأنا أملك الوقت للقراءة وكذلك أعطي محاضرات ففي المساء يأتي إلي الطلاب ويستمعون لي وأنا أحاضرهم عن تاريخ أوروبا والعصور الوسطى وكذالك عصر النهضة مرتين في الأسبوع وهذا ما يعطيني قوة وصبر.

إن المعاملة مع النساء البولنديات تشعرني بالسعادة ولكنني كنت أتعجب عندما أجد إحداهن تسمع مني عن تاريخ أوروبا. وكأنها أول مرة تعلم تـلك الأمـور وبفـضل
الرب لم يعلم أحد من الحراس عن لقئنا شيء.

لقد كانت الحياة الدينية أيضاً منتعشة فقد كان في صحبتنا راهبات عديدة وكنا نقيم الشعائر الدينية وفي يوم الأحد نجتمع وتتحدث معنا السيدة "إليزا ستوسكا" عما يحدث في العنابر وعن السلوك الجيد الذي علينا إتباعه.

وفي بعض الأحيان تحدثنا السيدة "هلينا تشر وزيانا" وتحكي لنا السلوك الخاطئ الذي تتبعه بعض السجينات وما يسببه هذا من قلق.

وأحياناً كنا نجمع الشباب ونتحدث معهم عن الأخلاق والمبادئ حيث أن السجن قد أثر عليهم سلباً ونحن نعلم أنهم يوماً ما سيخرجون ونريد أن يعودوا سوياً كما كانوا دون تأثير سنين السجن عليهم.

إن من ضمن تأثيرات السجن السيئة هنا أن أخذ أشياء سجين معي لا يعد سرقة عند الكثيرين فهم يسرقون الملابس والطعام وكل شيء من المخازن ومن أي مكان حتى أدوات الطعام يتبعونها ليشترون طعام وقد كان هذا شيء معتاد. إن السجناء يعلمون أنهم إذا علم الحراس بهذا فلن يكون هناك عقاب أشد مما هم فيه فهم في احتياج دائم لتلك السرقات لإيجاد الطعام الكافي. لذا كنا نحاول إعلامهم أن هذا سلوك سيء.

لقد كان من بين السجينات البولنديات ذوات خلق عالي من المدرسات والموظفات ممن كانوا يعيشون حياة كريمة قبل الحرب فهم يشعرون أن الأخلاق أثمن وأغلى من الحياة نفسها.

إنه من الصعب أن تقرر ماذا كان هؤلاء السجناء يعلمون قبل سجنهم وما إذا كانوا ينتمون للمقاومة السرية أم لا. إلا أن حياة السجن تضعف الإرادة وتؤثر بالسلب على سلوك الفرد وتضعف بدنه وتقلل من قوة تحمله وتجعله عصبي وسيء المزاج وهذا ما يغير أخلاق الفرد.

إن الأطفال الذين يولدون بالسجن يتربون في مناخ سيء للغاية السؤال الذي يفرض نفسه هنا. هل عندما يخرجون للمجتمع سيعاملون كمواطنين عادين أم ضحايا حرب وهل سيقدر الوطن ما تعرضوا له أم لا. لذا كل ما كان بوسعنا تقديمه لهم هو أن نعلمهم.

لقد كانوا يلقون تعليم على يد مدرسات كن يعملن بالتدريس ثم يقومون بعمل امتحانات في المعسكر وكانوا يستمتعون بتعلم الفلك حيث أن النظر للفضاء يجعلهم يشعرون باللانهاية وضئلة البشر والشر.

وفي يوم طلبت من السلطات أن أرسل بعض الكتب إلى معسكري فتم تفتيش الكتب والإطلاع عليها ثم قال الضابط. سيتم نقل الكتب إلى العنوان الذي كتبتيه.

ثم تم نقلي بعد ذالك إلى عنبر به سجينات يهوديات وفرنسيات يقال أنه من أسوء العنابر ويشرف عليه امراءة لا تعلم لغاتهم لذا لا تعلم أي منهم على حق وأيهم قد أخطئ. وعلى الرغم من هذا كنت سعيدة أنني سأترك مرافقة الروسيين لأرافق أناس تربيت على احترام حضارتهم لقد قلت لنفسي عليا

ألا أعامل الفرنسيين بشيء من الشفقة لما فعلوه في عام ١٩٤٠ ولما شاهدته أثناء
خدمتي في مشفى سجن "لاواو" من اضطهادهم لليهود.
وبعد نصف ساعة كنت في العنبر وقد اختار لي قائد العنبر مكان بجانب اليهود بحجرة جانب حجرة القائد. إن القائدة سيدة أمينة وذات خبرة جيدة وتعاملنا بشكل جيد. إن اليهود يصعب التعامل معهم خاصة مع اختلاف العادات بين السجناء فقد كان من بينهم فرنسيين وأسبان وألمان وبولنديين. لقد كان بعضهم بدائي في عادته إلا أنهم يتعاملون بشكل جيد مع الآخرين. لقد كان منهم من هو ثري وأنفق ماله على شراء الفيلات والملابس وعروض الأزياء وهؤلاء من الصعب التعامل معهم وهناك المثقفين.
إن المعاملة مع اليهود صعبة للغايا إنهم يعلمون أنني لا أستطيع أن أكتب تقرير للقائد حيث أن النتيجة ستكون العقاب الجماعي وهو الوقوف في البرد لعدة ساعات أو الحرمان من الطعام ولهذا فهم يجبرون شخصين على خدمت العنبر كله وهذين الشخصين من أضعف الموجودين.
إن قائدة الحجرة التي لا تبلغ عن أحد أبداً علينا أن نطيعها بسبب سلطتها وهي أحياناً تلجئ للعنف لتطبيق المبادئ. إن هذا يحتاج لجهد إلا أن اليهود يطيعونها ويفهمون أهمية تطبيق الأوامر والمبادئ لتعيش في جماعة دون مشاكل مع الألمان. لقد كانت هناك امراءة واحدة أحبها لعطفها ومساعدتها للآخرين إنها زوجة رئيس محكمة إنها السيدة "فروفراسترسنار" إنها امراءة مثقفة ومحترمة وتعمل على حفظ ونظافة المكان. إنها غير سعيدة.
إن بعض النساء في العنبر معهن أطفالهن سواء كانوا صغاراً أم كباراً لقد كانت هناك امراءة معها طفلتها ولكنها ماتت في حجرة الكشف ومنذ ذالك الحين والسيدة "سترسنار" تربي الطفلة وفي يوم أرسلت خطاب لأبيها الذي هو في أحد المعسكرات المركزية فرد على الخطاب بخطاب به نسختين بعنوان الجد في برشلونا.
إن العمل مع الفرنسيين كان أصعب فمعظم الفرنسيين الذين في المعسكر ليسوا هنا من أجل فرنسا بل لأنهم جاءوا للعمل في ألمانيا ثم ألقي القبض عليهم بسبب أو آخر إنهم لا يحسنون معاملة أحد حتى بعضهم البعض إلا واحدة منهم فقط على خلق. إنهم يسيئون معاملة البولنديين بالأخص إن شعور

الفرنسيين بعظمة بلادهم مترجمة في أفعالهم فهم يتعاملون بشكل مختلف خاصة مع البولنديين الذين يعتبرهم الفرنسيين السبب في سقوط دولتهم.

إن سلوكهم تجاه ما حدث لبلادهم مختلف كلية عنا نحن البولنديين فمنذ بداية الحرب ونحن نعلم أننا سنواجه صعوبات ونتوقع السجن ولا نلوم أنفسنا ولا نشتكي من السجن من أجل بلادنا بل من تحزن من دخلت السجن بجريمة كسرقة أو غيره. أما الفرنسيات فرد فعلهم مختلف تماماً فقد اتجهوا للقمار وأشياء أخرى أضعفت أخلاقهم ومبادئهم وهذا نتيجة للرفاهية التي كانت تحياها قبل الحرب وإذا كانت إحداهن تحب فرنسا وتدافع عنها يكون ردهم عليها الاستهزاء.

إن معظم الضباط الحارسات بولنديات ومن بينهم أيضاً ألمان إلا أن البولنديات يعاملون معاملة الدرجة الثانية وكذالك مشرفات الحجرات معظمهم بولنديات ويحاولون مساعدة الفرنسيات كثيراً بالطعام الزائد من المطبخ مما يعرضهم للخطر أما السجينات فيقسموهن الزيارات التي تأتي لهن ولكن كل هذه المساعدات تتعمد الفرنسيات تجاهلها.

لذا فقد قررت عدم الصبر والتحمل في معاملة الفرنسيات إنهم يضجرون من أن من يعطين الأوامر هنا المشرفات البولنديات. لقد قررت الاستماع بحياتي هنا فكل يوم بعد الطبور أذهب للعيادة وأكتب أسماء السجينات المرض الذين في حاجة للرعايا إنهم يعاملون في العيادة بقسوة فيقفون ساعات عديدة ثم يدخلون للممرضة الألمانية التي تقف بعيد وتعطيهم مسكن خفيف إنها هي الوحيدة التي بيدها أن تقرر هل يعرض المريض على طبيب أم هذه الطبيبة هي سجينة أيضاً.

إن أفضل شيء أن تفحصهم "زدنكا" إنها امراءة حسنة الأخلاق متعلمة لا تفارق وجهها الابتسامة على الرغم من موت زوجها الذي تحبه إنها تساعد الكل أي كان جنسيته ولا تعلم معنى شيوعيين ولكنها تعتمد على مبادئها الخاصة في معاملة الآخرين إنها تساعد الكل يهود وألمان وفرنسيين وهي أفضل طبيبة رأيتها.

إنها تعتمد في علاجها على تحسين درجة حرارة المريض وجعله في راحة تامة لمدة يومين وإعفائه من حضور الطابور إن الفرنسيات كانوا من أكثر المرضى الذين تعالجهم "زاندكا" فأجسامهم غير معتادة على الطقس هنا. وهذا سبب آخر يجعلهم يكرهون البولنديين وهو أنهم في معظم الأحيان أصحاء

فالبولنديين يحتملون الطقس البارد في الصباح عند الخروج للطابور بخلاف الفرنسيين.

لقد كانت هناك طريقة لمساعدة المرضى وكبار السن وهي إعفائهم من الأعمال البدنية عن طريق فحص الطبيب للسجين وإعطائه بطاقة إعفاء موقعة من الطبيب وكانت الفرنسيات أكثر الذين ينالون تلك البطاقة ولقد كانت هناك امراءه تدعى "دوريا" تناوبها نوبات الصرع من حين لآخر حيث أنها رأت الألمان يقتلون زوجها الأول وأباها ثم بعد ذالك ابنها وكنت أخذها إلى الطبيب وفي المرة الثانية شعرت بالتحسن حين أخرتها أنه هناك أمل للعودة إلى فرنسا مره أخرى.

لقد كان عملي في العيادة يعطيني القوة والسعادة. إن السجينات هناك يتعاملون بشكل أفضل مما يحدث في العنابر فهم يتعاونون ويحسنون المعاملة أما عندما يعودون للعنابر يعودون للمعاملة والسيئة. وبعد انتهاء وقت العبادة أعود للعنبر لأخذ طعامي. وأسوء ما أراه كمشرفة حجرة هو إجبار السجينات على عمل عبوات الطعام لزملائهم هي المرضى أو الذين لازالوا يعملون خارج الحجرة. وحينها تسمعى السجينات يلقبوك وكل المشرفات بألقاب سيئة.

إن مخزن الخبز يقلق في الثانية عر وإذا تأخر سجينات غيري عن هذا الوقت لن يكون لهم خبز في هذا اليوم. كذالك حمل حوايات الطعام تسبب مشكلة كبيرة وهي أنها ثقيلة والسجينات الفرنسيات ضعيفات لا يستطعن حملها ونحن على علم بذالك ولكن لا يوجد حل.

إن الخروج للطابور يسبب لنا المشاكل كل يوم فأول فرد عليه إنقاذ الكل وإخراجهم من العنابر والحمامات والسطح. لقد كان هناك ثلاثة يختبئون حتى لا يخرجوا للطابور. فقد كانت تدريبات شاقة أثناء الطابور تؤدي بالبعض لإغماء.

وعندما رأيت أنه لا يوجد حل لهذه المشكلة ولا يمكن جمع كل من يهرب من الطابور قدمت طلب بإلغاء قيادتي للفرقة وفي نفس الوقت طلبت من الممرضة أن كانت في حاجة لي في العيادة أن تطلب رسمياً عملي معها وبالفعل تم نقلي للعمل بالعيادة إنني لا أستطيع وصف سعادتي بهذا الأمر فقد كنت أشعر أنه بداية وقت سعيد سأقضيه في مساعدة المرضى. إن مساعدتي للمرضى أشرف لي من غشرافي على الحجرات في العنابر فعمل التمريض أحبه منذ صغري ومنذ أن كنت في مشفى "لاواو" لقد

كنت أعلم أن هناك طبيبة جديدة ستأتي تدعي "ماري كجيوسكا".

إن هذه الطبيبة دخلت السجن عام ١٩٤٤ بسبب أنها كانت في يغوسلفيا أثناء احتلال الألمان لها فتم القبض عليها ليلاً وقيل لها أنها سيتم ردها إلى بولندا وأثناء الطريق افترقت عن زوجها وابنها الذين أرسلا لها خطاب حين وصلت للمعسكر وكان معها اثنين من بنات عمي "صوفيا بوتوكا"، "روز اتيسكوسكا" ومعها بناتهم لقد كنت أظن أن هناك جهد يبذل من قبل السلطات التي يعملن بها من أجل إخراجهم من السجن حتى يوم رأيت فيه أحد الحراس ترتدين عقد تملكه ابنة عمي فعلمت أنه لا أمل لهم في الخروج.

أما باقي المجموعة فقد ذهبوا للعمل في مصنع. وفي غضون ذالك بدء الطبيب "كجوسكا" وابنته معاملة الناس بطريقة أفضل في المعسكر خاصة المرضى. لقد كانت ترى أنه لا يوجد مكان للشر على الرغم من أنني لا أوفقها الرأي. وكانت وتقول "ماذا تعين. كيف يضر الطبيب المريض؟ لابد أن يتغير الوضع هنا".

وبعد عدة أسابيع كان هناك عدد من المرضى محجوزين دون ملابس ولإطعامهم وكل ما قد تم لهم هو دواء فكانت مندهشة كيف يتعامل البشر هنا وكيف بهم كل هذا الكم من الشر. ثم بعد ذالك علمت أنهم يقتلون النساء المسجونات وعندما اعترضت كان الرد عليها هو الاستهزاء والتهكم.

وفي يوم تم نقلي ثانية إلى المعسكر وفي يوم بعد الطابور قالت لي أحد السجينات المكلفة بتنظيف مكتب القائد أنها وجدت خطاب موجهة إلى القائد من "هتلر" نفسه يقول أنه لا يسمح لي بالعمل إلا كقائد للعنبر الذي به اليهود والفرنسيين.

لقد كان لهذا تأثير سيء جداً علياً فقد حرموني من مساعدة المرضى وملازمة البولنديات إنهم قد نجحوا في معاقبتي.

ولم يكن أمامي حينها إلا قبول هذا والتعامل معه ومن حسن الحظ أن وصل إلى المعسكر مسجونات فرنسيات سياسيات متعلمات ومثقفات. وكان هناك أيضاً سيدة فرنسية تحب البولنديين إنها السيدة "مونتفورت" وكذالك كانت هناك أرملة طيبة تدعي "لارواكس".

كانت المشكلة الرئيسية أن الفرنسيات لا يعرفن اللغة الألمانية لقد تغلبنا على هذه المشكلة بطلب أن تعمل السيدة

"دوريا" معنا. وقد كثفت جهودها من أجل تحسن الوضع في المعسكر وتعليم الفرنسيات مبادئ المعسكر.

ثم وصل إلى المعسكر جنسيات جديدة ومنها بلجيكيين ومنهم امرئتين لهما نفس الاسم "جومرس". امراءة وابنتها وهي طويلة جداً ومثقفة جداً وهي مثال للجمال وهادئة وفجاءه تم نقلهم مع عدد من الفرنسيين إلى عنبر ٣٢. تحت رعاية قائدة ألمانية قاسية تدعي "كاتيا كنود".

لقد كانت أوراق تلك السجينات الفرنسيات والبلجيكيين مخفاه حتى لا يعلم زويهم وأهلهم أين هم ومن ثم فهم لا يستقبلون أي طعام ولا زيارات من أحد.

وكان من الباقيات مع السيدة "ماري" سيدة روسية مهاجرة كانت زوجة ولديها أطفال ثم طلقت وأصبح زوجها قس إنها الوحيدة في عنبر ٢٧ التي لا تشتكي من الاضطهاد. على الرغم من أنها تقوم بعمل أشياء كثيرة وفي يوم أجازتها تجلس مع السجينات الروسيات والأكرانيات فهي تقضي معهم كل يوم أحد وكذالك كل وقت فراغها. إنها تحقق نجاح كبير إنه تحت السجينات على التحمل والصبر لقد كانت الفرنسيات تحترمها لقد كانت تتعامل معي بشكل جيد وكنا نتحدث معاً كثيراً. لقد عاشت في باريس خمس وعشرين سنة ومع ذالك فهي تؤمن أن أوروبا انتهت وأن القوى الآن في أسيا إن تدينها وذكائها يعطيها القوة.

لقد جاءت معلومات من الخارج أن هناك أمور عظيمة تحدث بالخارج وأن موقف الألمان يضعف إن العدو لم يدخل روما وكذالك "مونتو كاسينو" ولكن ما هو أفضل أن نخمن ماذا سيفعل الحلفاء للأخذ بالثأر بولندا هذا هو السؤال الذي نسأله دائماً إننا نؤمن أن النهاية قاربت.

أما بالنسبة لنا نحن السجناء فعلينا أن نصدق حقيقة أن قوانا بدئت تنفذ وأن البعض قارب على الموت إننا نستيقظ كل يوم بدرجة حرارة مرتفعة خاصة في شهر مايو فأنا كل يوم أرقد على سرير العيادة وأعاني من ارتفاع الحرارة والتهابات بالحلق وحينها أعلم أن عنبري لن يخرج للطابور لأنني غير قادرة على ندائهم لقد ظللت في السرير لمدة أسبوعين وجاء الكل لزيارتي. إن معظم السجينات هنا تعاني من الضعف والمرض إلا أن الرعايا الطبية التي نلقاها تعطينا بعض الصبر والقوى. إن العمل بالعيادة كان مستمر.

لقد كانت "دوريا" تقوم بعملي وتنادي على السجينات للطابور إنها بدت ضعيفة إلا أنها مليئة بالأمل مثل الكثيرات منا. ولكن ما أحبطنا أن "مونتي كاسينو" سقطت. ويتوقع احتلال فرنسا في أي وقت.

وفي يوم وبشكل غير متوقع جاءت إحدى السجينات وأخبرت إحدى المرضى الراقدات خبر في أذنها جعلها تقوم وتصرخ من الفرح وكان الكل ينظر نظرة تعجب ولا يعلم ما الذي يحدث ولم يمضي دقائق حتى صاحت السجينة لقد أخذ البولنديين "مونتي كاسينو".

وبعد أسبوعين وفي حجرة الكشف الخاصة بمرضى السكر قالت الطبيبة "ترياتي" أن التحريات بدء وبعد خمس دقائق انتشر الخبر ومنذ ذالك الحين وكل السجينات بكل الجنسيات تنتظر تحرير بلادها والبولنديات يحلمن باتساع دولتهن.

وبعد هذا بقليل أخبرتني "دوريا" أنها تشعر بالمرض والصداع فنصحتها بالذهاب للعيادة والكشف إلا أنها رفضت وقالت إنها ستنتظر حتى أشفى لذا أخذتها بنفسي وهناك طلبت مني أن أبقى معها يوم الأجازة. وفي اليوم التالي لم تأتي لزيارتي وعلمت أنها مريضة ثم جاءت لزيارتي في اليوم الذي يليه وبعدها علمت أنها فقدت الوعي ونقلت للعيادة حيث أنها تعاني من مشاكل في المخ ثم ماتت بعد أربع وعشرين ساعة.

عندما كنت أذهب للعنبر كنت أشعر بالحزن لعجزي عن مساعدة مشرفة العنبر حيث أنني أصبت بجفاف الرئتين. وأمكث بالعيادة كثيراً ومنذ ذالك الحين وأنا اعتقد أنني سأموت موته طبيعية في السجن.

لقد كان عدد السجينات يزداد بشكل كبير يوماً بعد يوم وذات مره علمنا أن بعض الشيوعيين حاولوا قبل "هتلر" وفي اليوم التالي جاءت أربعة عشر سجينة متهمين في هذه القضية وحينها علمنا أن الشيوعية انتشرت في ألمانيا وزاد عدد معارضين "هتلر".

لقد جاءت سجينات بولنديات جدد وأخبرونا أن الوضع مضطرب في بولندا والكل ينتظر التحرير القريب حيث أن الكل يعلم أن الجنرال "روسكي" تم القبض عليه ومن يقلد قيادة الجيش الآن هو الجنرال "كرمروسكي" إلا أن موقف روسيا مجهول.

لقد كنا نجلس في المساء ونتبادل التوقعات عما يحدث في بولندا ولم نكن متأكدين من أي شيء إنها مجرد توقعات ولم نكن نعلم أن أسوء ما توقعنا كان يعد تفاؤل من لما سيحدث.

وفجاءة وفي يوم ٨ أغسطس جاءت أخبار أن "وأرسو" ستحارب قريباً لقد كنا في قلق شديد وفجاءة جاءت الأوامر بإخلاء عنبر ٢٧ وبالفعل تم توزيع اليهوديات والفرنسيات على باقي العنابر ثم أتى فوج جديد كلهن مرضى وظللت يومين لا أنام كل ما أفعله هو مناوبتهم بالماء والمساعدات الطبية وما كنت أفهم الذي يحدث ثم قررت الذهاب للسيدة "بنيسز" التي صرخت بمجرد رؤيتي وقالت هذا هو نتيجة التسيب الإداري فقلت لها أني جئت بسبب انتشار المرض السريع في المعسكر فقال "فما الذي يمكن أن أفعله" فقلت لها أولاً "أمري بجمع الكلاب بعيداً ثم زوديني بعدد من البولنديات ودعينا نذهب إلى المطبخ لجلب الماء والطعام وحينها سأعلم ما الذي يحدث بالخارج. ولكنها قالت "لا شيء بالخارج" إلا أن خوفها جعلها توافق على رأي ثم حذرتني من العودة إليها ثانية.

وعندما خرجنا رأيت عدد كبير من المرضى لا يتم الكشف عليهم حيث أنهم جدد ولا يأكلون أرقام وهناك بعضهم عطشى والباقي يأكل عندما سألتهم.

ما الذي يحدث قالو "إننا أبرياء إننا لسنا سياسيين" ومنهم من كان يسأل "هل سنعمل لدى الألمان" وعندما سألتهم عن "وارسو" قالوا إنها حرقت بالكامل ولن يكون هناك أي مدينة تدعى "وارسو" ثانية.

لقد ظل عدد القادمين يتزايد وما فعلته الإدارة هو نصب خيمة كبيرة لمن جاءوا من "وارسو" وتركوهم في الهواء ربما لمدة أسبوع أو أكثر لقد كنا نحاول مساعدتهم بالطعام والدواء ونسألهم لعل نجد منهم قريب أو صديق.

لقد كان هناك عدد من المسجونات قد سرقوا ذهب ومقتنيات من "وارسو" أثناء حرقها لذا كان يتم تفتيشهم وأخذ كل ما هو قيم منهم لذا كان من غير المسموح أن نتحدث معهم. لقد جلبوا معهم عدد من الأشياء التي أخذوها من بيوت الذين خرجوا هرباً من الحريق لقد جلبوا ساعات ذهبية وملابس سهرة وملابس داخلية ومرايات وهدايا ومعالق ذهبية.

لقد كان هناك عدد كبير من الأطفال يولدون إلا أنهم يموتون من سوء التغذية وما كان هناك لبن يقوم لهم حيث أني كنت أطلب من السيدة "بينز" إمداد الأطفال باللبن حيث أنهم صغار

ولا يمكن أن يكونوا مجرمين إلا أن الأمر كان صعب. وكانت هناك نساء تفقد أطفالها أو ينقلوا لمعسكرات أخرى وهناك امراءه قالت لي أن ولديها في "وارسو" وجدهم حيث أن الألمان أخذوها. وتركوا الأطفال وأخبرتني غيرها أنها رأت ولديها يقتلوا فطلبت منها ألا تخبرها حتى لا تيأس وفي المساء علمت أنها علمت بوفاة ولديها.

لقد كانت هناك امراءة كلما نامت تستيقظ مفزوعة من كابوس بشع وفي يوم حكت لي أنها كلما نامت ترى في منامها ما رأته بعينها في الحقيقة وهو اغتصاب بنتها على يد جندي ألماني ثم قتلها وفي يوم قامت وأخذت تقول إن ابنتي حامل فقد تم اغتصابها عدة مرات على يد جندي ألماني. فلابد وأن تكون حامل.

لقد كان عدد الوافدين من "وارسو" يتزايد بسقوط عدد من ضواحيها بالترتيب المدينة القديمة و"زولبردز" وغيرهم. لقد نقلهم الألمان إلى المصانع وأماكن أخرى.

ولمنع الناس الذين لا يريدون خدمة الألمان لأسباب أيدلوجية من الانتحار كانوا يحبسون في العنابر ولقد كانت المشرقة بولندية وتسئ معاملة الألمان زمما يعطيها القوى على الرغم من ضعف جثمانها. ومن فترة لأخرى ترسل الإدارة أسماء المطلوبة لمكتب العمل ومع ذالك إذا كانت قائمة المطلوبين قد جاءت وهناك شخص مريض تم نقله وعلاجه في العيادة في نفس اليوم فيمكن أن يتغيب عن الذهاب ولهذا كنا نضطر لرفع درجة حرارة الجسم صناعياً.

وأثناء إعداد المطلوبين في قائمة العمل وقوفهم أمام الحجرة يأتي البائعين يعرضون بضاعتهم ثم يرتجفون عندما يروني وأمثالي من قادة العنابر. ومن حسن الحظ أن سقوط "هتلر" لم يتأخر كثيراً لذا لم يرى ما نصنعه من خدع.

وفي خريف ١٩٤٤ تم توسيع عمل مكتب العمل فقد بدء توزيع السجينات على المصانع ونتيجة لما حدث في "وارسوا" كان هناك أسر كثيرة أتت معاً أم وبنتها أو بنت وأختها أو بنت وأم عجوز لذا إذا كانت إحداهن تنقل إلى العمل بالمصانع كانت تأخذ أمها العجوز معها. وفي يوم كان هناك بنت طلب منها الانتقال للمصانع ولأنها تعلم أن الحياة هناك أفضل لذا وافقت وطلبت أخذ أمها معها إلا أنهم رفضوا مصاحبة الأم لها.

وعادة عندما يكون مشرف المصنع سكران تكون هناك فرصة لنا لإقناع صاحب المصنع الذي جاءت إليه إحدى الأمهات أن

بنتها ستساعدها وأنه في حاجة لعمال أكثر وهذا ما كان ينجح في كثير من الأحوال لقد.

وفي عام ١٩٤٤ عدد كبير من النساء البولنديات الذين يعلمون في العيش رفضوا أن يجر وعلى العمل مع الألمان. لقد قالو لنا إننا إن لم نؤيدهم سيتم نقلهم للعمل في مصانع في "وارسو" ومن المؤسف أننا لم نستطيع دعمهم جميعاً.

وأثناء الغارات الجوية كان الهدوء يسود المكان. لقد أعتدنا الجلوس في عنبر القائد ننظر ونسمع ما يحدث. لقد كنا نظن أنهم يلتقطون لنا الصور من الهواء وبعد فترة علمنا أن هذا ما يحدث حقاً.

ومن ثم فقد علمنا بعد ذلك أن هذا يحدث لتأميننا وحمايتنا ومن ثم أصبح ضابط الشرطة السرية يأتون للإقامة معنا في المعسكر.

حتى لقد كانت تدفق الركاب من "وارسو" وكلما زاد زادت حروب هتلر والبقع التي يحتلها كلما زاد عدد القادمين من كل أنحاء العالم فرنسيين وبلجيكيين وإيطاليين يغوسلفين. وفي آخر الخريف وصل ركب مكون من ٥٠ إمرأة ألمانية. لقد كان هذا الوضع مأزق لنا لأنهم لا يتحدثون سوى لغتهم الأم. لقد كانوا يعاملون البولنديات بطريقة مختلفة إلا أنهم على العموم يحترمونا. إنهم كانوا يسهل معاملتهم عدا واحدة كانوا كلهم يطيعونها دون مناقشة إنها فتاة في التاسعة عشر من عمرها تدرس القانون وهي من "سولونيكا". ويشعر بالفخر تجاه أجدادها. وبعد ذالك علمت أنها رئيسة أحد الوحدات العسكرية وهي المترجمة بالنسبة لهم فهي تتحدث الفرنسية جيداً إلا أنها لا تفهمها بسهولة. إنني أحياناً لا أفهم نطقها الغريب للفرنسية. إلا أنني أتعامل مع الأمر. لقد كانت أحياناً تمتنع عن الخروج للطابور حيث أنها تبرد لدرجة تعجل جسدها يرزق.

وفي يوم حاولت إسعاد "سيول" بأن تلوث بعض السطور من مسرحية دعاية وفوجئت برد فعلها الغريب. لقد قامت وفردت شعرها وأخذت قتلوا الـ "إلوديا" وبالطبع لم يفهم أحد ما تقول إلا أنهم خمنوا أن ما تقول هو شعر.

وفي يوم فعلت شيء غريب آخر فقد جاءت وقال لي "إن الألمان لا يشعرون بالغربة في هذا المعسكر لأنهم تحت قيادة البولندية الذين تحملوا الألمان لمدة طويلة منحوا بأولادهم."

ثم نظرت إليا بعمق وانصرفت عائدة للعنبر. لقد كان معها اثنين من السجينات وكانت تريد أن تعلمهم أن البولندية على الرغم من أنهم يعيشون بعيداً عن ألمانيا إلا أنهم يعلمون أهمية بقاء حرية أثينا.

أغلب الألمانية يريدون أن يعلموا العالم بأهمية وحضارة بلادهم وعندما عدنا إلى العنبر عانقتني وهو شيء لم أكن أتوقعه من إمراءة ألمانية تجاه أي جنسية أخرى وطلبت مني أن أوفر لها وسيلة نقل للعودة لأنها تشرف على شيء ما ولابد أنه تعود. إنها إمراءة طبيب ولكنها لا تعلم أن في هذا الوقت كرامة ألمانيا فخرها لم تستمر.

وفي المساء وقبل أن تتحرك السيارة. ودعت السيدات الألمانيات البولنديات بغناء أغنية السلام وأغمرت الدموع وجههن ولكن صوتهم لم يهتز فهم يغنون بقوة.

لقد أصبحت العنابر فارغة لدرجة جعلت كل السجينات تأكل وتنام وتتحرك براحة فيها. أما من يعملون في العيادات والمطبخ وغيره فلهم حرية امتلاك مساحات أكبر.

لقد كان المعسكر مصمم ليسع ١٥٠٠٠ شخص وأكثر ولذا أصبح السجينات يختارون المكان الذي يفضلونه أمام الفتحات ويحتلون الأماكن التي كانوا يعاقبون بالجلوس فيها حتى يضمنون عدم حدوث ذالك.

إن هذا لم يكن تغير كبير بالنسبة لما حدث في الخيم فلقد كانت الخيمة يوضع فيها أكثر من ٤٠٠٠ شخص في الخريف الماضي حيث لم يكن هواء لتنفسه ولا مكان للراحة حيث أن الأسرة كلها مستخدمه وكان عدد الذين يموتون كبير جداً لدرجة أنك لا تستطيع الوصول للجثث أو حملها حتى أن يوماً جاءتني المشرفة الخاصة بهم وهي حزينة سبب أن أحد السجينات في الخيمة أخذت تبكي وترقص حول أحد الجثث. أما الآن فالتغير قد سادهم.

وفي النهاية شهر أكتوبر تم تكليفي بالإشراف على عنبر ٣٢ الذي يحوي روسيين وكانت المشرفة السابقة للعنبر تسئ معاملتهم لذا سررت أنني سأحقق عنهم ذالك.

لقد كانت معي "نيوتا برونتوسكا" التي كان يصعب العمل معها فهي سيئة الطبع تشبه الألمان وكانت تتعامل معهم بسهولة إلا أن الألمان أكثر الشعوب غطرسة وهذا أماكن الكل يشتكي منه.

وكانت المشرفات ومن بينهم "برونتوسكا" يعاملن السجينات بقسوة وفي يوم كانت تتحدث إلى إحدى السجينات وفوجئت السجينة أنها لا تعلم معنى كلمة "تسوية الأمور". وبعد ذلك بأيام تركت العمل مع الألمان حيث قدمت طلب رفض العمل معهم لأنها يسئن معاملة السجينات لم يكن الألمان يتعاملون معاملة حسنة منها إنني لم أتذكر كل ما كنت تفعل إلا أنها هددت بالعمل في
المصانع إن لم يتغير سلوكها.

ولم يكن العمل جيد بعد تغير مكاني فبخلاف كل المعسكر عدد السجينات في مكاني الجديد كبير ويوجد هنا الروسيين والنرويجيين الذين يميزون أنفسهم اعتماداً على ثقافتهم إن معظمهن سياسيات حتى الفرنسيات هنا والبلجيكيات أعلى في المستوى من هن في عنبر ٢٧ لقد كانت المعاملة بيننا جيدة باستثناء إجبارهم للخروج إلى الطابور في الصباح لقد كان الطعام يصل إلينا من الروسيين وكل الخدمات متاحة حتى الممرضات.

لقد كانت هناك مشكلة أخرى غير طابور الصباح ألا وهي أن بعض السجينات ليس لهن عمل ثابت بل عليها الوقوف كل يوم في طابور أمام مكتب العمل لتعرف ما إذا كانت ستعمل في المطبخ اليوم أو في أي مكان آخر وأمام مكتب العمل إذا غفلت عنهم عيني لثانية يهربون. لقد كنت أخاف من عواقب هذا إلا أنني لم أعاقب قط. وبعد فترة تحسن الوضع حيث أصبح العمل أخف. فقد كانت السجينات الألمانيات يقمن بتنظيف الثياب أولاً. وبعد فترة أصبحوا يقومون بتنظيم البضائع المستعملة القادمة بالقطارات والتي تحمل كل أنواع السلع من الأغطية الحريرية وحتى لعب الأطفال.

وفي يوم صادفت البولندية "أنا لوسوكا" بعض الأشياء التي كانت تمتلكها في شقتها وحاولت تجميعها إلا أن المالك رفض أن كثير من النساء حاولن مساعدتها لقد كنا لا نسأل بعضنا البعض عن الحياة قبل السجن فقد كان اليوم مليء بالأعمال من طابور الصباح والغارات الجوية إلى جانب نقص الطعام والثياب.

لقد توقفت زيارات الطعام التي كانت تصل إلينا. إلا أن الصليب الأحمر كان يتذكرنا. إلا أن الألمان كانوا يأخذون القادم من الطعام لهم حتى أنهم كانوا يخرجون عند خروجهم إلا أنه في الشتاء كانوا يمدونا ببعض منه.

ومع هذا الوضع انتشرت الأمراض وضعفت الصحة وخاصة أن الكثير قد أصابتهم "الديزونتريا" حتى أنهم يأكلون والطعام لا

يهضم ولا يستفيد منه الجسم. وهذا النوع من "الديزونتيريا" لا يسبب ارتفاع درجة الحرارة ومن ثم فإن السجينة لا تلجئ للذهاب للممرضة بل أشعر بها وهي تصرخ بالليل من الألم ومن ثم تموت من الألم. وفي الصباح وعند النداء للطابور نفاجئ بعدد من الموتى في الطابور حيث أن المشرف لم يكن لديه وقت ليبلغ الإدارة بوفاة السجينة.

وفي يوم كانت هناك إمراءة فرنسية تدعي "جيني" إنها طبيبة وعطوفة ومن آلاتي شاركن في الثورة الفرنسية وكانت قد أوصتني أن تظل مع صديقتها حتى الموت وبالفعل في يوم كانت تعاني بشدة من المرض ومن المفترض أن تذهب إلى العيادة ولكن صديقتها ذكرتني بوصيتها وكان هناك طابور في الثانية ظهراً ولابد أن يحضره الكل فعندما جاءت الممرضة قالت إنها لن تعيش حتى الثانية ظهراً لذا لم أنقلها للعيادة وبعد أن قاربت الساعة الثانية وبدء الاستعداد للطابور وكانت "جيني" لازالت على قيد الحياة شعرت بالقلق وفجاءة ومع قدوم منادي الطابور وجد روحها قد صعدت إلى السماء لتفارق الأرض بما فيها من الألم.

لقد كان الطابور يهز قلوبنا حيث أنك تقف وتشاهد الموتى أمام عينك وما كان يزيد الموقف سوءاً هو وصول قطارات تحمل سجينات فرنسيات ذهبن للعمل في المصانع لمدة عام ثم يأتين وبعد يومين أو ثلاثة من الخروج إلى الطابور يصابون بالدزونتريا ويمتن. لقد كان في مجموعتي إمرائتين من بريطانيا تم القبض عليهم في فرنسا لقد كان يسببان لي صداع فبينما يصبن بأي الم. بسيط يطلبن الإشراف الطبي والرعاية الخاصة ولكنهم أيضاً ماتا في النهاية.

إن وصول عدد جديد من الفرنسيين البلجيكيين قاض لسلسلة من المشاكل مع الصليب الأحمر حيث أن هؤلاء الفتيات عوملن معاملة خاصة منذ البداية. كما أن الروسيات الذين يملكون حتى أغطية يرفضون إعطاء الفرنسيات الجدد أي منهم لقد كنت أقول لهم أنني لا أؤمن بالشيوعية أحدنا ست أغطية وينام زميله بردان ولكن الكل كان يحذروني من الحديث في تلك الأمور إلا أنني و"سيمون" الفرنسية لم نكن نخاف من إبداء آرائنا.

لقد كانت الفرنسيات يمتن من البرد وأصبح أهم شيء هو كتابة قم الغطاء عليه حين لا يؤخذ. وكانت السجينات التي

تموت تكفن في غطاء قذر حفاظاً على إبقاء أغطية سليمة. للأحياء. لقد كنت أحتفظ بصحتي أكثر من الفرنسيات لذا لم يكن لي بديل.

لقد حكى لي أحد يوماً أن السيدة "شيري" عندما ماتت لم يكن أحد يحتاج لكتابة رقم على جسدها فقد قامت قبل وفاتها بساعة واغتسلت وكتبت رقمها على جسدها وإنها لم تكن محطمة جسدياً وعندما طلبت من المسئولين عن تحديد سبب الوفاة تحديد سبب وفاة "ثيري" عجزوا عن ذالك. حيث أنهم يستقبلون حوالي ١٢٠ ميت كل يوم. إن هذا يعتمد على ذكاء مشرف العنبر وعلى إبقاء حيث الموتى بعيداً عن الأحياء. فلقد كنت أضع يدي الموتى دائماً. وكأنه في وضع صلاة. وفي يوم جاءت مجموعة من السجينات وتشاجرن معي لهذا الأمر ولم أكن أعتاد التشاجر معهن لذا بعد أن قمن بإخراج ما قلوبهن قلت لهن بكل هدوء إنني أشعر بالسعادة لأنهم يضمنون ما أفعل فإن الحياة. لا تساوي الكثير وحينها نظروا. إلى الأرض وانصرفن. ومنذ ذالك الحين وهن يعاملني باحترام شديد. وعندما فكرت في الأمر علمت أنه في بعض الأوقات تظهر الحقيقة في خلاف دائر.

إن عدداً من الممرضات كانت تستطيع تغسيل الموتى والوقوف بجانبهم بينما كانت الأخريات يعجزن عن هذا.

وفي كل يوم كان هناك طابور كبير من المرضى الذين يطلبون الفحص. وبينما ينتهي اليوم ولا يدخلون أو بينما تسقط الطبيبة من التعب فكيف لطبيب أن يفحص مريض دون سرير ولا أدوات ولا دواء لقد كان الأمر مرهق على الطرفين المريض والطبيب وأضف لهذا الوضع أنهن نساء ضعيفات.

وفي هذه الحالة الميؤس منها جاءت ريح سعادة حيث أن أحد السجينات كانت قد جلبت معها نسخة من كتاب لشكسبير بالإنجليزية. حقاً إنني لم يكن لدى الوقت والجهد للقراءة إلا أن مجرد شعور بأن. "كنج لير" يشاركني سجني يكفيني.

لقد كان هناك خمس بنات في عنبر تشرف عليه "هلينا ولفرت" وكانت تلك البنات مثقفات ويحضرن محاضراتي ويكتبن ملحوظات وفي يوم وجدت أحد المراقبات ملحوظات مكتوبة لأحد الفتيات وبالطبع كان الأمر معلق ولكن الفتاة قالت أن هذه الملحوظات كتبتها إثري سماعي لأحد السجينات التي كانت تسافر كثيراً وبفعل جهد الكثيرين نجت هذه الفتاة من هذا المأزق.

وفي يوم وقبل حلول السنة الجديدة ثم نقل "هيلنا" ومن ثم أصبح إعطاء محاضرات في الأدب أمر صعب. وفي يوم ٥ يناير ١٩٤٥. وفي المساء تم نقل هيلنا مع بعض الألمانيات إلى منطقة قرب بوابة المعسكر وبصحبتها السيدة "روسيا" أستاذة قانون.

وبعد يومين وفي معاد محاضرتي جاءت طالبتي تسألني هل ستعطينا المحاضرة أم ستمتنعي فقلت لن أمتنع وبعد أن استعديت لإلقائها سألتهم هل تمانعون أن نتحدث اليوم عن أمر ديني.

لقد كان يوم فبراير نهاية سلسلة طويلة حيث كان عدد البولنديين الذين فقدوا حياتهم ١٤٤.

وبعد أسبوعين جاءت إليا إمراءة من "فينا" أعرفها فهي تودني دائماً وقالت إنها تريد أن تخبرني شيء بخصوص السياسة ثم قالت إن في الحجرة المجاورة للإدارة تجلس زوجة عمدة البلدة ستخبرك بكل ما تعرف عن السياسة. فذهبت وسألتها "وما الذي يحدث في العالم؟" لقد نظرت إلى شارتي وقالت "هل تعلمين بنود اتفاقية "يلتا"؟" وبعد خمسين دقيقة وأنا أشعر أنني بلا وطن.

وخلال عدة أيام علمت أسماء اللجنة. من البولنديات الجدد وما أدهشني أن أسماء هذه اللجنة لم يسمع عنها من قبل. إننا كنا نشعر بالخوف على مستقبل وطننا ولكن بلا جدوى. ومن ثم أصبح موت زملائنا هنا أو في الحرب أمر لا قيمة له ومنذ ذالك الحين وهذا الأمر يطرأ ببالي.

وفجاءة أصبحت أنا وكل من هي كبيرة في السن مثل "نيوتا" مسئولين عن أن نجعل الصغيرات منا يفهمن معنى الشيوعية. إلا أن هؤلاء الكبار انقسم رأيهن إلى رأيين وفي يوم دعتني ""مارسيا كجوسكا" إلى مكتب العيادة وقالت لي "إنك تحرضين الشابات ضد الشيوعية وأعنت تعلمين أننا حكمنا من قبل الشيوعيين لفترة ومن الأفضل عدم نشر هذه المبادئ.

لقد كنت أعلم نيتها جيدة. إلا أنها لا تدري أن الشر يسبب خطر كبير على العالم ويجب فهمه إلا أنني أوضحت لها أنني أستاذة جامعية ومن واجبي أن أعلم الطلاب الصح والخطأ. وبعد هذا الموقف ظللنا نلتقي كما كنا إلا أن علاقتها اختلفت.

وفي المعسكر تم نقل كل من حولي من المشرفات حتى لا يستمعون لكلامي ومن بينهم "جادرا" ثم تم تعين جواسيسهم عليا أحدهما للألمان والأخرى للروسيين. وأصبح الكل يخاف مني في الإدارة. ثم تم نقلي إلى معسكر مجاور يعرف باسم "بيترشوب" أة "مركز الورشة" وكانت مشرفة العنبر والمشرفة

الثانية ألمان يعاملوني بشكل سيء ولكنهم لاحظوا أنه بمجرد قدومي زاد إمداد الغذاء لهم. وكانت إخوتي وصديقتي يخشون فراقي لهم. إلا أنه بفض ارتفاع حرارتي في المساء عدت إلى العيادة.

وفي يوم ٤ فبراير نادتني مشرفة العنبر وقالت لي أنهم قرروا أن مجموعة من السجينات لن تخرج من المعسكر لأي مكان أخر ثم تم نقلهم إلى عنبر ٢٤ بدلاً من ٣٢ وبعد ذلك بيومين تم عزلهم بكردون وكأنهم غير موجودين لقد بدا أن المعسكر أصبح فارغ للروسيين إلا أن تلك المجموعة التي تم عزلها قاموا باختراق العازل واندمجوا مع باقي العنابر وأثبتوا للألمان أن القوى لن تفيد في معاملتهم. لقد كانت جماعة منهم قد اختبأت في كهف بالقرب من حجرة المشرف وأصابهم المرض وكنا نعلم أنهم سيموتون إما من المرض أو سيقتلون إلا أن يحدث شيء غير عادي.

لقد بدء أن هذا الأمر الغير عادي قد جاء ففي ليلة سمعنا صوت البنادق والطلقات النارية وقمنا نصلى وسمعنا أن الروسيين سيصلون قبل أن نقتل الفتيات.

لكن الاقتراب من الخط الأمامي كان له عواقب أخـرى، عواقب يمكن وصفها بالمصيرية للمعـتقل بأكـمله. في هـذه

الأثناء، كانت عربات النقل الجماعي تعبر إلى الخارج من بوابات المعتقل في تتابع الواحدة تلو الأخرى. وفي نفس الوقت، كان هناك عدد لا يحصى من الأطفال من مختلف الجنسيات، يتجولون في أنحاء المكان، يلعبون ويمرحون أثناء مناداة السجينات وكذلك حول القبو. كان من المتداول بشكل شبه رسمي أن سجن "رافنسبورك" تحول إلى ما يشبه معتقل تخزين، حيث كان عدد السجينات فيه قد تجاوز ١٠.٠٠٠ امرأة. يوم تلو الآخر، اختفت الخيمة الضخمة تدريجياً، ورأينا الأشجار الضخمة التي كانت تحيط بالمعتقل بأكمله، كان ذلك المشهد غريباً بالنسبة إلينا، كنا ننظر إليه في اندهاش، بينما كانت السجينات الهولنديات تبتسمن في ثقة ثم قالت إحداهن: "تلك علامة جيدة، فهذا يعني أن الوقت لن يطول حتى نصل، في معتقل هولندا، وقبل أن يقوم حلفاؤنا بالعدوان على البلاد، كان قد تم بناء مبنى مخصص للأطفال رُسم على جدرانه رسومات من قصص الأطفال والأساطير الخيالية، وعندما قاموا بإجلائنا من معتقل هولندا، كانت تلك الرسومات لم تجف بعد.."

تمكنت ١٥ من "الأرانب" من الهروب معنا في تلك النقلة، متنكرين في أرقام وهويات مساجين كانوا قد ماتوا بالفعل.

بالإضافة إلى ذلك، فقد بذلنا قصارى جهدنا، وفعلنا كل ما نستطيع كي نتأكد أن "بينز" قد نجحت في توصيل خبر "أرانب التجارب" للعالم كله، ليعلم الجمع ما يحدث في تلك المعتقلات المتوحشة بالتفاصيل، وكان ذلك النجاح بفضل مساعدة "أكا كلوديشكزاك"، والتي كان والدها مواطن أمريكي نجح في إخراجها من "رافينسبروك" عبر سويسرا، ثم أدخلها إلى الولايات المتحدة. وبعد أن ذاع خبر "الأرانب" في جميع أنحاء البلاد، قامت السلطات باستدعاء سجينتين من "الأرانب": "جادزيا كامنيسكا" و"صوفيا باج" أو كما كان لقبها "الأسطـورة"، كانت كلا منها في قمة الشجاعة، تتميزان بسرعة البديهة والقدرة على تحدث الألمانية بطلاقة. كانت "بينز" و"يوهان شوارزهوبر" الضابط الجديد المسئول عن معتقل الحجز الوقائي، والذي قام بإخبار السلطات أن "الأرانب" تم نقلهم لمعتقل آخر أكثر أماناً، ولكي يؤيد كلامه فقد ذكر عرضياً أنه قد تم نقلهم إلى معتقل "جروس روزين" بمقاطعة سيليزيا، حيث كان القتال لا يزال مستمراً. كانت السجينتان تعلمان أن هذا الاستدعاء راجع في المقام الأول لرغبة السلطات في جمع المعلومات عن "أكا كلوديشكزاك"، وكانت الحقيقة تقر بأن لا أحد بيننا جميعاً يمكن أن يعلم إلى أي مدى وصلت "أكا"، ولكن على مدى سنوات عديدة، كنا حريصين على أن نرسل المعلومات إلى العديد من الجهات التي يهمها الأمر في بولندا، وعلى ما يبدو، فقد كان نتيجة ذلك أن يتم ذكر "أرانب التجارب" في بعض قنوات الراديو، أما "بينز" والتي ذُكر اسمها أيضاً في قنوات الراديو، كانت خائفة بشدة.

أخيـراً، وبعد صراع طويل، قائد المعتقل "فريتز سوهرن" الـذي كان حـتى ذلك الـوقت غـير مـتورط فـي مشروع (الأرانب) الإجرامي، قام باستدعاء واحدة من السجينات اللاتي خضعن لتجارب مشروع الأرانب، استدعى "ماريسا بلاتر"، ولكنها لم تذهب وحدها، بل رافقتها "جادزيا" و"باجاكا" بصفتهما مترجمتين.. سوهرن أظهر لماريسا وثيقة وطلب منها أن توقع عليها، ووعدها أنه سيتم إطلاق سراحها إن فعلت ما طلبه منها..

كانت تلك الورقة عبارة عن إقرار تعترف فيه ماريسا أن الإصابة الموجودة على قدميها هي أثر لعملية جراحية كانت قد

أجرتها بعد إصابتها في حادثة أثناء عملها بالمصنع.. ولكن ماريسا رفضت بالطبع، وقالت لـ "سوهرن" بكل وضوح أنها لا ترغب في أن يتم إطلاق سراحها، ففي كل الأحوال لن تتمكن من العودة إلى بولندا في ذلك الوقت.. ولذلك فهي تفضل البقاء هنا في المعتقل مع صديقاتها السجينات..

ثم دارت مناقشة طويلة بين ماريسا وسوهرن، كانت تدور حول وعود من سوهرن أنه سيرسل إلى "برلين" ويطلب من صانعي القرار هناك أن يسمحوا له بتحديد المصير الذي سينتهي إليه أمر (الأرانب).. ولكنه كان حديثاً عبثياً فإن كل تلك الوعود كانت تنتهي دائماً بعدم تلقي (الأرانب) لأي إجابة مرضية.. ولكن صراعهم من أجل البقاء استمر... ولا يزال مستمراً.

ذات مساء وفجأة، بينما كنت رقيدة الفراش في عيادة المعتقل، دخلت إلى العيادة أحدى السجانات واقتربت من سريري ثم أمرتني أن ارتدي ملابسي على الفور وأن اذهب معها إلى القائد، طبعاً كانت تقصد قائد المعتقل، بينما كنت أرتدي ملابسي اختلست لحظات قليلة تمكنت فيها من إخبار السجينة التي ترقد في السرير المجاور أن القائد قد استدعاني وأن السبب -في ظني- واضح، فلم يتم استدعاء أي من السجينات من قبل في مثل هذا الوقت المتأخر، لذلك فالمؤشرات كلها تقول أن هذا هو موعد الإعـدام. بعد أن غادرنا المبنى، ظهرت في طريقنا سجانة أخرى كانت تنتظر وصولنا، مما أكد شكوكي.. سارت إحداهما على يميني والأخرى على يساري، كان المشهد بأكمله يبدو تماماً كمشهد سجينة تسير إلى كرسي الإعدام. بعد أن عبرنا بوابة المعتقل، لم نتوجه إلى الغابة الواقعة على يمين المعتقل كما ظننت وإنما ذهبنا في الاتجاه الآخر إلى مقر القائد، انتظرت لفترة قصيرة ثم دخلت إلى مكتب "سوهرن". استقبلني واقفاً كما حدث من قبل حين كنت أصنف كسجينة استثنائية.. مما أثار بداخلي حيرة ودهشة كبيرتين، ثم سألني عن أحوال صحتي وقال أنه قد سمع إنني كنت مريضة وتمنى لي ألا يكون مرضي خطيراً، مما زاد شعور الدهشة بداخلي أكثر.

لكن سرعان ما فهمت، الشئ الوحيد الذي يمكنه تحقيق هذا التحول الرهيب في طريقة المعاملة، هو تدخل مستوى عالي، عالي جداً.. تذكرت حينها أنه منذ شهرين كنت قد قرأت في مجلة المراقبين الدوليين التي تتسلمها مراقبة العنبر بشكل منتظم، قرأت عن "كارل بوكهارت"، مؤرخ سويسري وصديق قديم، قد أصبح رئيس الصليب الأحمر

الدولي..
في تلك اللحظة تحديداً التي وقفت فيها أمام سوهرن، شعرت بهيبة ونفوذ تلك المؤسسة العظمى (الهلال الأحمر)، ذلك النفوذ الذي فاق كل قوة، وكذلك تخيلت مدى سطوة علاقة الصداقة القديمة.. ذلك كله كان بمثل درع حماية يفصل بيني وبين سوهرن.. وكأنه حاجز غير مرئي لا يمكنه اختراقه.
سألني: هل لي أي أمنيات؟ أي شئ أريده؟ هل ينقصني طعام؟ ملابس؟ أي شئ على الإطلاق؟؟
كان يتصرف وكأنه تاجر يعرض بضاعته، فأجبته أنني لا أحتاج إلى شئ. أعاد سؤاله مرة أخرى ولكن بنبرة تحمل الكثير من نفاذ الصبر هذه المرة، ثم في نهاية الأمر تم اقتيادي مرة أخرى إلى العيادة.
حين عدت وجدت جميع السجينات مازلن مستيقظات، والبولنديات منهن كن يتلين الصلاة، ثم همسوا لبعضهم: "إنها هي قد عادت، وهي مبتسمة أيضاً."، حينها شعرت بشئ من الحماقة، فقد كنت منذ وقت قليل أظن أنني أسير إلى مماتي وها أنا الآن عدت محملة بالهدايا المعنوية بعد مقابلة سوهرن.
بعد أن خرجت من عيادة المعتقل، تم تعييني مشرفة غرف في عنبر ٣١، الذي كانت المسئولة عنه "هانكا زاتروسكا". تذكرت أنني كنت في هذا المبنى منذ بما يقرب من يومين، عندما أرسلني إلى هناك د/ تريت. قبل مغادرة العيادة مباشرة، عند الباب كانت تقف صديقتي الشرطية التشيكية ذات الجسم الممتلئ تنتظرني بفرحة وشوق ثم قالت لي: "تريت ارسل لاستدعائك، ولكن قبل أن تذهبي إليه أذهبي أولاً لرؤية (زدينكا) بسرعة فهي تنتظرك."
كان يبدو عليها كما لو أنها تريد أن أذهب إلى "زدينكا" باي شكل حتى ولو بالقوة، امسكت بذراعي النحيل بيديها السمينتين، وجذبتني نحو غرفة زدينكا.
ما أن دخلت إلى غرفة زدينكا، حتى أغلقت الباب بقوة خلفي وقربتني منها وبدأت تحدثني همساً وكأنها تخشى أن يسمعنا أحد، قالت، احتضنتني وأحاطت بعنقي. ولكنني لم أكن مسرورة بما فهمت منها مما دفعني أن أقول لها: "ولكن يا زدينكا، هذا أمر غير قابل للتفكير، كيف أغادر وحدي، دونكم جميعاً؟ بالطبع لن افعل لن أترككم، الأمر لا يحتاج للنقاش."
ردت عليّ بشئ من الحدة: "ليس من حقك أن تفكري بهذا الشكل، فإن إطلاق سراحك هو الإنقاذ الوحيد لنا جميعاً، ويمكن

أن يكون هو الوسيلة لإطلاق سراح بقيتنا. والآن هيا اذهبي واحرصي على ألا يراك أحد."

obeikandl.com

الفصل الثامن
إيطاليا

بعد تبادل التحية والسلام ما سلمت على أخي قلت له إن عليا أن أرسل للصليب الأحمر في "واسو" وأخبرهم أنني تركت "نيتا بورنتوسكا" في "رفانسبراك" فرد عليا تقصدين أنكي سترسلين إلى "لندن" فنظرت إليه ثم فهمت أنه لا يريد أن يخبرني كل شيء من أول مرة أن حيث أنني لم أصبح سجينة بعد الآن فقد تم الإفراج عني.

وفي اليوم التالي بدئت مرحلة جديدة وهي العودة إلى الحياة إنه من الصعب على شخص عادي فهم هذا حيث أن هذا الشعور لا يفهمه إلا من غاب عن الحياة الطبيعية لفترة طويلة. إن كل شيء كان مختلف خاصة أنني لم أعود إلى "بولندا" بل تم تهجيري إلى إيطاليا. إنني أريد الخروج وشراء ملابس وقبعة وحذاء وأريد أن أكل في مطعم إن كل هذه الأمور تكون تافه بالنسبة لشخص سينتظر الموت إن أهم ما بقي لي هو كيف أنقذهم كيف أنقذ هؤلاء السجناء.

وعلى الرغم من أن اتصالي بالسجن قد انقطع في خلال يومين إلا أنني علمت أن الشيوعية انهزمت في "ريفنس براك" إن تقريري للصليب الأحمر سيساعد في تحسن الأمر كثيراً. إن جينيف لا تعلم شيء عن السجينات الفرنسيات والبلجيكيات في المعسكر الألماني.

وبعد وصولي مباشرة استلم "بيراك هاردت" خطاب من نائب هتلر يؤكد كلامي الوارد في تقريري عن "كريجار".

ولمدة أسبوعين ظللت أفكر في مساعدة المسجونات وبعدها علمت أن المعسكر قد انحل لذا فقد أصبح همي الوحيد هو

حماية نفسي إن شعوري أنني في خطر كان لي مصدر قوة لي. وعندما يحدث هذا فلا يبقى شيء سوى شعوري بالفراغ يتبعه شعور بالاكتئاب. وكما يقول السيد "بيرون" "بعد انتهاء العاصفة لا يبقى لنا من الحياة الكثير".

إن حال العالم كان يوصف بالأفضل في هذا الوقت. كذالك قال لي السيد "بارك هاردت" عندما قابلته وأضاف "أن رأي الغباء متحيرة الآن" فكيف سيستمر هذا الغبي. إن حلفائنا في الغرب يستملون إلى الشرق.

كم أن بولندا محظوظة حيث أنه ما كان يسمح لأحد بذكر اسمها ويعد اللاجئين منها مدافعين عن الحرية.

إننا نرفض مع كل ما حدث أن نصبح أعداء السلام من أجل الأخذ بالثائر على الرغم من أننا انتصرنا في الحرب.

لقد وصلت سيارة نقل بها عدد كبير من المساجين الذين تم الإفراج عنهم وهنا بدئت مرحلة جديدة من حياتي.

لقد اتجهنا إلى بولندا وفي الطريق رأيت لافتات مكتوبة بالبولندية تجنب الكوبري المحروق وعلى الجانبين نرى سيارات تحمل جنود ينظرون إلينا بابتسامة المنتصر ويحملون الأسلحة وبشرتهم تلمع من الشمس. وكلما اقتربنا من المدينة كلما زاد الازدحام وزاد عدد الجنود الذين يطلبون أن نوصلهم لأقرب مدينة. لقد كانت تجربة الحرب كفيلة بأن تحول الفلاح البولندي إلى رجل يعرف أماكن كثيرة وفي الطريق سمعت الجنود يتحدثون عن "مصر" و"العراق" و"فلسطين" ثم عن "مونت كاسينو".

إنهم لم يتحدثوا عن روسيا وهذا ما فاجئنا فسألت ما شكل المعسكرات في روسيا؟ وفوجئت أنهم لا يريدون الحديث عنها حتى لا يتذكروا أشياء مؤلمة حيث أن كرههم لروسيا كان واضح. فمن الصعب أن ينسى الإنسان حياة مريرة عاشها لمدة ٣ أعوام ومن الصعب أن لا يؤثر على مشاعره وحينها شعرت أن بولندا تحملت لأعوام كثيرة إلا أنها لم تذهب هباءاً. وفي هذا اليوم شعرت بفرحة مشابه لما نقراءه في القصائد عن عودة الإنسان للحياة.

وبعد يومين أخذت سيارة نقل وسرت إلى روما في ذي رسمي لقد تم تعييني في فريق تعليم الجنود والإشراف على الدراسات العليا لهم إنها بداية مهمة صعبة.

وفي يوم جاءني شاب صغير من بولندا يحمل لي السلام الحار من السيد "أدام سزبستا" وقال لي إن ابنه الصغير يدعو لي كل

يوم لقد جعلني هذا الأمر أشعر بسعادة بالغة وشعرت أن كلمات أحد قصائد الشاعر "جوليسيز" تصف حالي وهو يقول:

هناك طفل صغير في بلدي يدعو لي
لذا فلن تغرق مركبي ولن تضل الطريق
سأبحر نحو بلادي يوماً ما.. وسأعبر المضيق

obeikandl.com

خاتمـــــة

وفي بدايات عام ١٩٦٧ علمت بالصدفة من جريدة بولندية أن السلطات الألمانية تحقق مع السيد "كريجار" فأرسلت شكر للسلطات الألمانية مرفق معه خطاب يتضمن إمكانية حضوري كشاهد وبالفعل تم طلبي للشهادة على الفور.

لقد طلبت من المحترم "تشملوسكي" أن يصطحبني لقد ذهبنا معاً. لقد استقبلنا سيدة ألمانيا وقالت إن مهمتها رعايتي. ثم ذهبنا إلى الفندق حيث أن المحاكمة في صباح اليوم التالي وفي الصباح ذهبت للمحكمة. لقد كان هناك ثلاثة قضاة. وكان السيد "كريجار" يمثل للمحاكمة ومعه ثماني من رجال الشرطة السرية. وخلفهم الدفاع الحاضر عنهم. لقد تم توجهي إلى طاولة في جانب من الحجرة قريبة من المنصة. وخلفي يجلس عدد من العامة والسيد "تشيملوسكي".

لقد تقدمت لرئيس المحكمة وبعد أن حياني وأوضح لي أهمية الشهادة سألني إن كنت أسمح بتسجيل شهادتي أم لا وبالطبع وافقت. وبدئت أشرح له عملي وزيارتي لسجن "سترنسلو" ثم القبض عليا دون أسباب ومعاملتي في السجن ثم تحقيق "كريجار" معي وحديثه معي عن "قتل أساتذة لاواو" وعند ما تحدثت عن هذا وجدت أن القاضي ركز الحديث على "نتسلو" وما حدث في هذا السجن. لقد أخافني هذا كثيراً لقد حاولت أن أقول كل ما أعرف وفجاءة رأيت أحد الموظفين يتجه للقاضي ويتحدث معه سراً. لقد خشيت من أن لا يحققون في أحداث "لاواو" وبعد ذالك قاطعني القاضي قائلاً "عليك أن تتركي أي شيء دون ذكره" لذا استمرت الشهادة لمدة ساعة وخمس

دقائق بعدها أعلن القاضي عن استراحة تناولت فيها فنجان قهوة كبيراً استعداداً لمجادلة الدفاع.

وعندما عدنا إلى حجرة المحاكمة طلب الرئيس من الدفاع الحديث إلا أنه لم يجد شيء ليقوله وكذالك "كريجار" وبعد فترة قال الدفاع "إن المقاومة البولندية السرية كانت تتعاون مع روسيا ضد ألمانيا وهذا ما قاله السيد "كريجار" وقبل ذالك سألني الرئيس سؤال جعلني أفهم أنه لا يعلم شيء عما حدث في "لاواو" أثناء الحرب. ثم طلبت الكلمة وقلت إن بولندا لا تحب النظام الروسي الشيوعي.

وحينها طلب كريجار الكلمة وقال إن "أوكرانيا" كانت تعاون "بولندا" فصرخ فيه القاضي إن كلامه بلا معنى وبدئت أنظر إليهم وأرتقب ما سيحدث ثم بدء القاضي يسألني عن أسئلة أخرى وبعدها سأل "كريجار" إذا كان يريد قول شيء ولكنه رفض للمرة الثالثة. وكانت هذه نهاية الجلسة ثم انصرفت ولاحظت أن من معي يخافون عليا جداً حيث أن العديد هنا تؤذيه شهادتي.

وفي المساء وجدت عدد من الصحفيين اليهود وغيرهم في انتظاري يريدون معرفة الكثير عن المحاكمة إنهم لم يهتموا بأمر "لاواو" لقد كانوا يريدون معرفة ما حدث لليهود. ثم قال أجدهم أن "كريجار" كان ينكر كل التهم حتى ظهوري على ساحة المحكمة. وأن الوحيدة التي تعلم ما قدمه "كريجار" من أجل البولندية قد ماتت. وبعد ذلك ذهبنا لزيارة قبر الشاعر الذي هاجم هتلر. لتعرف أن هذا الشعب به أيضاً من يؤمن بحرية الشعوب وكرامتهم.

وفي اليوم التالي تركت المدينة بعد أن كتبت تقريري عما أعرفه عن قتل أساتذة الجامعة ووجهته لأجد الرجال الذين يهتمون بأرامل وأبناء الشهداء البولنديين خاصة أساتذة الجامعة.

ثم ذهبت "لفينا" لزيارة السيد "مسز موت ويسنتال" لقد استقبلني بترحاب ثم قال لي إن المسئول عن قتل أساتذة الجامعة ليس "كريجار" وإنما "كاتشمان" وهو الآن هارب إلى الأرجنتين. فقلت إن "كاتشمان" كان معاون لـ"كريجار" ولا يمكن أن يكون قد قتل هؤلاء الأساتذة وحده بل بأمر وبمساعدة "كريجار" ليشهد على قتل كريجار لخمس وعشرين من أساتذة جامعة "لاواو" وهذا ما أثار إعجاب "ويسنتال".

وفي غضون ذلك تم الحكم على "كريجار" بالأشغال الشاقة المؤبدة بسبب قتله للسجناء في "ستنسلو". وبعدها أرسلت

للسلطات الألمانية طلب التحقيق في جريمة "لاواو" وقبولي للشهادة فيها ولم استقبل أي رد.

ومن باريس يحاول "بون زلنسكي" والسيد "ولدزلنسكي" فتح تلك القضية ولكن بلا جدوى وبعد فترة حاولت السلطات الألمانية طلب الحصول على السيد "كاتشمان" من الأرجنتين. ولكن لم يحدث وحتى الآن لازالت قضية قتل ٢٥ أستاذ من أساتذة جامعة "لاواو" مفتوحة.

روما، ١٩٦٧

obeikandl.com